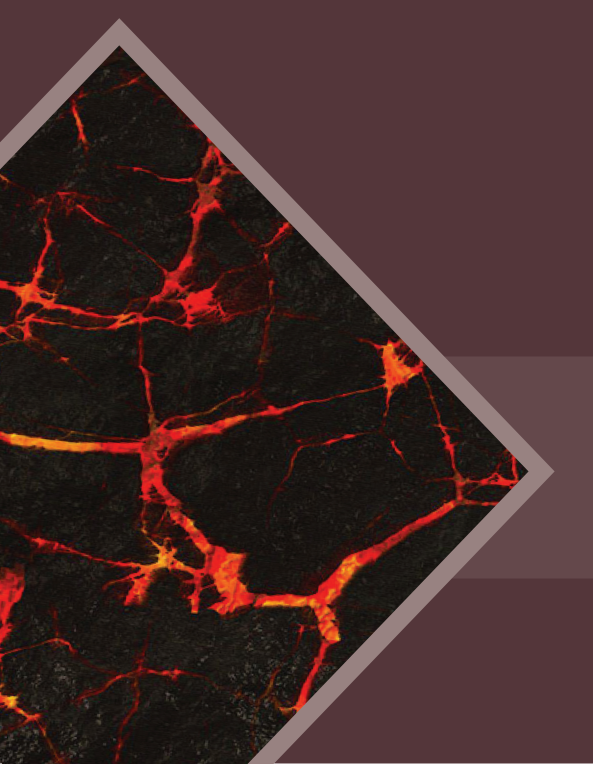
١٦





وثوقية التوهم وخواء العدم



د. حسام الدين حامد



وثوقية التوهم وخواء العدم

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٦)



وثوقية التوهم وخواء العدم

د. حسام الدين حامد



الإلحـــاد
وثوقية التوهم وخواء العدم

د. حسام الدين حامد

قياس الصفحة: ١٤,٥×٢١,٥ سم
عدد الصفحات: ٣٠٤ ص
الطبعة الأولى
(١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م)

الفهرسة أثناء النشر:
حامد/ حسام الدين
الإلحاد (وثوقية التوهم وخواء العدم)، حسام الدين حامد
٣٠٤ ص، ١٤,٥×٢١,٥ سم
١. الفكر الغربي. ٢. الإلحاد. أ.العنوان. ب. السلسلة
ISBN 978-614-8020-99-5



هاتف: ٠٠٢٠١٠٩٠٨٣٦١٦٤
بريد إلكتروني: tfakkor@gmail.com
الموقع: www.tfakkor.com



دار العصرية للنشر والتوزيع
هاتف: ٠٠٢٠١٠٠٥٢٢٦٤٠٤



لطلبات الشراء البريدية
الرجاء الاتصال على:
٠٠٢٠١٠٩٠٢٩٨٢٢٥
Kotobgy@gmail.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ضربَ على الباطل وحشة، حتى نفر منه أهلُه، وما أنِسوا به لحظة، الحمد لله الذي سنّ التدافع، وجعل في النفوس عن الشر وازعًا، ووضع فيها لحب الخير دافعًا، فلا يأتي مبطِلٌ معذورًا، يومَ يُقال: «ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا..»، فالحمد بعد الحمد لله!

وأشهد ألّا إلٰه إلا الله وحده، أحيا النفوس المَواتَ بوحيه، وشفى القلوب العليلة بآياته، تفرّد بالملك، وله الخلق والأمر، وكلَّ يومٍ هو في شأن، بكرمه أنعمَ على عباده فلم يحصوا لنعمائه عدًّا، وبفضله غفر للتائبين وإن جاءوا شيئًا إدًّا، فانظر إلى آثار رحمة الله!

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله ربنا بالهدى ودين الحق، وأظهره على الدين كله، ولم يقبضه حتى أقام الملة العوجاء، ففتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، فما أشقى من أعرض

عن هديه، واحتذى على غير نهجه، يشقى في الواضحات بعقله، ما أشقاه!

أما بعدُ:

إنّ الكلمةَ الصادقةَ تستمد روحها قبسًا من نفسِ صاحبِها، فيغدو الشبه بينهما كشبه الأبناء بالآباء، ولقد قام هذا الكتابُ عندي كالبرهان المستقلِّ على هذه الحقيقة، فإني أصدقكم القولَ أنّي بذلتُ وُسعي أن أستودعَ هذا الكتاب صيحةَ النذير، فغلبتني عليه شفقةُ الناصح، واجتهدتُ أن أبثَّه نبرةَ الساخر من عبثية الإلحاد، فَسَرَت فيه روحُ الحريص على دعوةِ الملحدين، ولم تُغْنِ كلماتٌ حاولتُ وضعَها هنا أو هناك شيئًا، وكيف تغني والرُّزءُ في هؤلاء شديد، قومٌ اختلت المعاييرُ عندهم، فتاهت في الواضحاتِ عقولُهم، يحسبون أنهم يُحسنون صُنعًا، ولا يُفيقون حتى يَروا العذابَ الأليم؟!

ولو قيل لي اجمع الإلحاد في كلمةٍ واحدة، لا يجاوز وصفُه رسمها، ولا تندّ حقيقتُه عن حرفها، لقلت «التّوهم»! ولو تمثّل «العدمُ» غرضًا يُطلب، وأملًا يُرتجى تحصيله، لكان العدمُ هو غاية الملحد من هذه الحياة، ينطلقون من وهم معدوم، ويطمعون في عدمٍ متوهم، وإنّي لأخاطب فيهم بهذا الكتاب لحظةً يخلو فيها المرء بنفسه، متخليًا عن شهوات النفس ونزغاتها، مستدعيًا ميزان القسط، منتهجًا الإنصاف، متخلقًا بالعدل، لا يجرمنّه شنآن قومٍ على أن يظلم.. فتغدو تلك اللحظة

ميلاد إنسانٍ آخر، وكم ميتٍ خرج من ثناياه حيّ!

وقد قسّمت هذا الكتاب قسمين، يتناول القسم الأول منه موقف الإلحاد من الطبيعة والعلم الطبيعي، ذلك الموقف الذي يعده الملحد دستورًا لإلحاده، وفرقانًا يعرّف به عن حاله، أبيّن في هذا القسم تناقض الملحد في علاقته بالطبيعة، والعداء الذي بينه وبينها وإن زعم أنّها أمّه، وقد وقع ذلك في أربع مقالات، تبدأ بمقال «أمنا الطبيعة.. أليس كذلك؟!» وتنتهي بمقال «أفتني!»، ثمّ أعقب بنقض موقف الملحد من العلم الطبيعي في اثنتي عشرة مقالة، نقضًا مصحوبًا ببيان طريقة العلم الطبيعي، متبوعًا ببيان أنّ علاقة الملحد بالعلم الطبيعي علاقةٌ نفسيةٌ روحانيةٌ، وليست علاقةً علميةً كما يدّعي ويزعم!

والأفكار الرئيسة التي تناولت نقضها في علاقة الملحد بالعلم الطبيعي تتلخص في بيان اشتمال العلم الطبيعي على الغيبيات والمسلّمات والقضايا الفلسفية على عكس ما يتوهمه الملحد وسميته «التوهم!»، ثم بيان الدور الذي يلعبه العنصر البشري في طريقة العلم الطبيعي وسميته «ثقةٌ غير متبادلة!»، يعقب ذلك مقالٌ عن معنى الإجماع في العلم الطبيعي ومباحثه، وحجيته وكيفية الوقوف عليه والفرق بينه وبين الإجماع في الشرع، وسميت هذا المقال «وأجمعوا..!»، يتلو ذلك مقالٌ يبيّن القصور الذاتي الملازم للعلم الطبيعي وعدم كفايته وسميته «قاصر..!»، ثمّ مقالٌ عن معنى النظرية العلمية وقيمتها وصفاتها مع تطبيقاتٍ على بعض النظريات التي يكثر الملحدون من الاستدلال بها وسميته

«نظرية. . !»، وآخر الأفكار كانت بخصوص الفرق بين العلم الطبيعي والمذهب الطبيعي المادي، والفرق بين دائرة الدين ودائرة العلم الطبيعي، وحقيقة العلاقة بين هاتين الدائرتين، وقواعد درء التعارض بين النصوص الشرعية والعلم الطبيعي، مع تطبيق على بعض الأمثلة المشتهرة على ألسنة الملحدين، وسميته «الدائرتان»! ويعقب كل مقالٍ من هذه المقالات الستة مقالٌ يتناول العلاقة النفسية بين الملحد والعلم الطبيعي، «الخندق!» بعد «التوهم»، و«بمكيالين!» بعد «ثقةٌ غير متبادلة!»، و«نفسٌ خائنة. . !» بعد «وأجمعوا. . !»، و«تناقض!» بعد «قاصر!»، و«علاقةٌ عاطفية. . !» بعد «نظرية!»، و«علمٌ بلا عمل!» بعد «الدائرتان!».

أما القسم الثاني من الكتاب فهو يعرض موقف الإلحاد من الموت والانتحار، والمعنى من الوجود والغاية من الحياة، يتناول البؤس الذي ينبغي أن يملأ حياة الملحد، والخواء الذي يستشعره في شأنه كله، والموت الذي يجب أن ينغص عليه الالتذاذ بحياته، والانتحار المستساغ في فلسفة إلحاده، وقد وقع ذلك القسم في أربع عشرة مقالة، وطريقتي في هذه المقالات أنّها أزواج، مقالةٌ يطغى عليها الأسلوب العلمي يكثر فيها التقرير والاستشهاد، تعقبها مقالةٌ يغلبها الطابع الأدبي، وكذلك في المقالات التي تتناول الموقف من الطبيعة والعلم الطبيعي، أبدأ بمقالةٍ يكثر فيها التفصيل والتقرير والاستشهاد وبيان طريقة العلم الطبيعي ونقض موقف الملحد منها، ثم أثنّي بمقالةٍ تشبه مقالات الأدباء تتناول العلاقة النفسية بين الملحد والعلم الطبيعي.

وغايتي من عرض الكتاب على هذه الصورة الجديدة الغريبة، بمقالةٍ يطغى عليها الأسلوب العلمي ثم مقالةٍ يغلبها الطابع الأدبي. . وهكذا، غايتي أن أدخُل على نفس القارئ من كل باب، وأن نطوف سويًّا نطرق سبيل العقل تارة وندق باب القلب تارة، غايتي أن يكون الكتاب مناسبًا لباحثٍ وملحدٍ ومتشككٍ وطالبٍ لليقين، غايتي أن أبذل وسعي عسى أن يتقبله الله تعالى فينفع به سائلًا، ويرشد به حائرًا، ويدل به عليه! والله أسأل أن يكتب له القبول في الأرض، وأن يجعله خالصًا وصوابًا!

وكتبه:

حسام الدين حامد

١٨ ـ ٢ ـ ٢٠١٥

أولاً
وثوقية التوهم

أمُّنا الطبيعة.. أليس كذلك؟!

«أمنا الطبيعة لا ـ ولم تكن أبدًا ـ تعتني بنا!»

سام هاريس[١]

إنّها الطبيعة. . الطبيعة التي احتار فيها جميع الناس عمدًا وسهوًا، واختيارًا وجبرًا، إن صحّ أن تَعْرِض للحيرةِ هذه الأحوال، وانظر إلى الطبيعة إذ تُبدي ليلًا يغالبه سحر البيان، أو بحرًا يراوده همس العشّاق، أو جبلًا يشاكس الطامحين، أو صحراءَ تحيّر عقول التائهين، أو كواكبَ تسعى هربًا من أعين الساهرين؟! طبيعةٌ تُحيّر أجزاؤُها فكيّف بها مجتمعة؟! لقد تخاصم فيها أرباب المذاهب وتشاكسوا، حتى اختلط الأمر واضطرب القول، ودعت الحاجة لتفصيل المقال!

في بحثٍ لهم بعنوان «المعنى في الطبيعة: معنى الحياة كوسيطٍ في العلاقة بين الصحة والارتباط بالطبيعة»[٢]، وضع

(١) Sam Harris. An article entitled: Mother nature is not our friend.

(٢) Howell AJ, Passmore H, Buro K. Meaning in Nature: Meaning in Life as a Mediator of the Relationship Between Nature Connectedness and Well-Being. J Happiness Stud (2013) 14:1681-1696.

أندرو هُووِيل وزملاؤه مقدمةً محكمةً تليق بموضوع البحث، قرّر فيها أنّ معنى الحياة يعود إلى «اعتقاد المرء أن حياته ذات فائدة، وأن وجوده يتجاوز سرعة زوالهم»، وأنّ استشعار معنى الحياة ينبع من «القدرة على تسامي المرء بنفسه، وربط هويته مع عناصرَ ثابتةٍ ومستقرةٍ في هذا العالم المتغير، والاعتقاد أن حياته تمثل جزءًا من مخططٍ أكبر... والإحساس بالحيوية والارتباط بالآخرين»، وأن الارتباط بالطبيعة هو رافدٌ ضخمٌ في الإحساس بمعنى الحياة وبالتالي في الإحساس بالصحة النفسية والاجتماعية! أما وقد علمتَ ذلك، فاتركه وتعال لنقيضه!

لعلّ أكثر المواقف جمعًا للمتناقضات المضحكة هو موقف الملحد من الطبيعة، فهو إذ يدّعي ـ كثيرًا ـ أن الدين هو صورةٌ لهروب الإنسان من خوفه من الطبيعة، فهو لا يدقق في كون إلحاده ـ غالبًا ـ يمثل انعكاسًا لانبهاره أو حيرته أو تشبثه بالطبيعة، وهو ينتسب إليها مدعيًّا أنّه ابنها، دون ملاحظة غربته فيها وكفران كبراء مذهبه بأمومتها، وهو يرمي المتدين بالغفلة عن دراستها وتحريم السياحة في أرجائها، ولو كان في الإلحاد شرعٌ يبين موقف الملحد من الطبيعة لكان نهيًا جازمًا «لا تتأمل»!

وأيّ شيءٍ في الدنيا أكثر مللًا من رحلةٍ مدرسيةٍ لطفلٍ لم يتجاوز السادسة من عمره، لزيارة مصنعٍ قديمٍ مهجورٍ تتحرك آلاته ببطءٍ شديد، ولا يُسمح له باستعمال عقله في شأن الآلات التي يراها، إلا حفظًا لما يقوله المهندس الذي يغيب في كثيرٍ من

الأحيان؟! أيّ ملل؟! وأيّ فرقٍ بين رحلة هذا الطفل وحال الملحد في النظر في شأن الطبيعة؟! وما كان لمثله أن يعجبه شيءٌ مما يراه لأن «الجمال» الذي يراه مجرد وهم، إذ القوانين الصارمة غير العاقلة أنتجته دون قصد! وما كان لمثله أن يكون له نظرٌ ما لم يسبقه إليه مهندسٌ أو فيزيائيٌّ أو عالمٌ بالأحياء! وما كان لمثله أن يعجبه شيءٌ لأنّه يعلم أنّ «إعجابه بالكيف المجهول» ينبع من الفراغ المعرفي لديه! وما كان لمثله أن يعجبه شيءٌ وهو يعتقد أن التأمل بدون دراسةٍ أكاديميةٍ هو خرافةٌ تامة الأركان!! وكأنّي بهذا الرجل ينظر إلى البحر والسماء والفُلك الجارية وعينه معلقةٌ بمشرف الرحلة الذي يقول له ـ وهو يشير نحو المهندس ـ: «هاه!! لا تتأمل!!»

يخلص تحليل ديفيد روزنبرج إلى أنّ «حب الطبيعة ينبع من الإحساس بالعجب!»[١]، العجب الذي يتأتى من استشعار الإبداع والجمال والعظمة، والإحساس بالدهشة والمفاجأة وتضاؤل الذات، وكل هذه الأمور لا تتحقق لملحدٍ يَرُد كل أمرٍ إلى قوانين لا تعقل، ويرى أن الانبهار بالجمال والعظمة هو انسياقٌ لوهمٍ سيبطله العلم، فإن كان ملحدًا جاهلًا فينبغي له أن يشعر بتضاؤل عقله أمام عقل فلاسفة الإلحاد ومنظّريه، فلا يكون له رأيٌ في الطبيعة دون الالتزام بكلامهم، وإن كان ملحدًا عالمًا شعر بتضاؤله أمام الزمن، بمعنى أنّه لو مُدّ في عمره لاستطاع أن يفسر

(١) David Rothenberg. Review of Green Delusions: An Environmentalist Critique of Radical Environmentalism. Environmental History Review 1993; 17: 87-88.

كل مفردات الطبيعة تفسيرًا ينسخ ادعاءات «الإبداع» و«الجمال» و«العظمة»!!

ـ هيّا بنا نذهب ونستلقي على حشيش الأرض، وندخّن السجائر، ونستمتع بالطبيعة!

ـ أستمتع بالطبيعة! يسعدني أن أخبرك أنني فقدت هذا الاستمتاع بالمرة! يزعم الناس أنّ الفنّ يجعلنا نحب الطبيعة أكثر من ذي قبل. . . وخبرتي الشخصيّة أنه كلما زاد تعمقنا بالفن قل اهتمامنا بالطبيعة، لما يكشفه لنا الفن مما في الطبيعة من انعدام التصميم، والفظاظة الزائدة، ورتابتها التي تتجاوز الحد، وحالتها الناقصة! للطبيعة نوايا جيّدةٌ بالطبع ولكنها ـ كما قال أرسطو ذات مرة ـ لا تستطيع تنفيذها، عندما أنظر إلى مناظر الطبيعة لا أستطيع التوقف عن ملاحظة عيوبها، وبالتأكيد فإنّ نقصان الطبيعة هذا من حسن حظنا وإلا لم يكن هناك فنٌّ على الإطلاق، الفن هو احتجاجنا الروحاني ومحاولتنا الشجاعة لتعليم الطبيعة كيف كان ينبغي أن تكون!. . . إنّ الطبيعة غير مريحةٍ بالمرة، حشيش الأرض صلبٌ وقصيرٌ ورطب، لماذا يستطيع أفقر عمال بلدة موريس أن يصنع لك متكئًا أكثر راحةٍ مما توفره لك الطبيعة بأكملها؟!. . . أنا لا أشتكي، إذ لو كانت الطبيعة مريحةً لما اخترع الإنسان المعمار الهندسي. . وفوق ذلك فالطبيعة عديمة المبالاة والتقدير لنا، عندما أتمشى في الحديقة ينتابني دومًا شعور أننا والقطيع المرعيّ على المنحدر سواءٌ عند الطبيعة. . لا شيء أكثر وضوحًا من كره الطبيعة للعقل، ومن أن التفكير هو أكثر

الأشياء غير الصحية في العالم، والناس يموتون من التفكير كما يموتون من أي مرضٍ آخر.

(تسوّس الكذب ـ للأديب الملحد أوسكار وايلد)[١]

قف أمام المرآة وانظر إلى عينيك، هذه العين التي تذهلك بمناسبة تركيبها لوظيفتها، فإن جهلت تفاصيل ذلك أخذك سحر جمالها، العين التي طالما ألهمت شاعرًا، وآنست عاشقًا، وأجابت سائلًا، وفعلت كثيرًا وحدها، ثم اسأل أحد عوام الملحدين عن عينيه التي بها يبصر، سيسكت حتى ينظر فيرى رأي كهنة الإلحاد، فإن سألت أحد علمائهم فكثيرًا ما تجد أقوالًا من مثل: «إن عين الأخطبوط ليس فيها بقعة عمياء في حين أنّ أعيننا فيها، وإنّ عين العقرب مزودةٌ بنظاراتٍ شمسيةٍ وأعيننا ليس فيها ذلك!»[٢]، أو من مثل: «هل أعيننا كاملة؟! إنّها ليست كذلك طبقًا للنظّارة القابعة على أنفي بينما أكتب الآن، وليست كذلك مقارنةً مع الكم الهائل من الأعين في المملكة الحيوانية، ولا بالمقارنة بين التركيب المروّع لأعيننا مع عين الأخطبوط على سبيل المثال»[٣]! فنحن أمام رجلٍ لا يتأمل ـ جاهلًا ولا عالمًا ـ ولو كان متأملًا في عينيه! ونحن أمام مذهبٍ لا يترك لمعتنقه أدنى فرصةٍ لإعمال عقله في النظر فيما حوله خارج القوالب المسبقة!

كثيرًا ما يُدلّل الملحد الطبيعة بنداء الأمومة، مع أنّ المشاعر

---

(١) Oscar Wilde. The decay of lying. P: 1-2.

(٢) Elliott Sober. Evidence and evolution: The logic behind the science. P:146.

(٣) Robyn Williams. Unintelligent design. P:65.

المتبادلة بين الاثنين يغلب عليها الخوف والقلق، فالملحد بالنسبة للطبيعة ليس إلا أحد الغزاة المنتفعين، يستهلك مواردها، ويقضي على خيراتها دون وجه حق، وفي وجود أفكار التطور وحتمية التقدم لدى الإنسان، فإن «فلاسفةً مثل نيتشه وسبنسر ـ ملهمين بهذه الأفكار ـ قد طرحوا نظرةً ـ تسمى أحيانًا النظرة الفاوستية[١] Faustian للعلم الطبيعي ـ ترى الإنسانية مشتبكةً في صراعٍ دائمٍ لإخضاع قوى الطبيعة واستغلالها للاستعمال الذي يعود عليهم بالفائدة، وقد رأى نيتشه أنّ هذا مشتقٌ من غريزةٍ موروثةٍ دفينةٍ تهدف إلى التحكم في الطبيعة، وقد كانت هذه الغريزة من العوامل التي ساعدة على بقاء الإنسان حيًّا في الماضي المبهم السحيق»[٢]!

والطبيعة بالنسبة للملحد ليست إلا شخصيةً اعتباريةً، عديمة الإرادة، دائمةَ الحركة دون محركٍ من خارجها، دؤوبةَ التأثير على حياة الإنسان، فأيّ قلقٍ يتولد في قلبك من مُتصرّفٍ عديم العقل؟! ثم كيف يطمئن لسانك وأنت تسمها بالأمومة؟! يقول الملحد الشهير سام هاريس في الركون إلى ادعاء أمومة الطبيعة إنّه يعتقد في «خطورة وسفاهة هذه النظرة الرومانسية الأسطورية للطبيعة، كل مائة مليون سنةٍ تقريبًا يصطدم كويكبٌ أو مذنبٌ في حجم الجبل بالأرض ويسحق كلَّ ما هو على قيد الحياة، إذا

---

(١) وتعود إلى تنازل المرء الطَموح عن الأخلاق لتحصيل النجاح والقوة.

(٢) Barrow JD. Impossibility: the limits of science and the science of limits. Oxford University Press. 1998. Page 128.

أردنا دليلًا على عدم اكتراث الطبيعة برفاهية الكائنات المعقدة مثلنا، فإن تاريخ الحياة على هذا الكوكب هو حلقةٌ من التدمير الذي لا يرحم والتجديد الأعمى المترنح»[1]!

وهكذا.. وفقًا لما زعموا؛ فإنَ الطبيعة الجامدة التي لا تعقل، ولا تبالي، لهي جديرةٌ أن توصف بالجفاء، وألا يُهتم لها، ولو أنّ رجلًا وقف على مشهدٍ من المشاهد التي تزدان بها الطبيعة ـ فضلًا عن المشاهد التي ظاهرها القبح ـ فعجزَ عن الإحساس بهذا المشهد، ولم يبعث في قلبه دفء الأُنس، ثمّ اعتقدَ أنّ إعجاب الناس بهذا المشهد ـ ونظائره ـ دربٌ من الخيال المُحرّم، والخرافة المقنّعة، إنّ هذا الرجل ليس إلا ابنًا تعيسًا شديدَ العقوق للطبيعة، وإن ملأ فمه بأحاديث البر ونداءات الأمومة! إنّ هذا الرجل ليس إلا ملحدًا صدق في إلحاده!

(١) Sam Harris. An article entitled: Mother nature is not our friend.

لا تتأمل!

أبعدتُ المسير..

وأثقلني رمل الصحراء..

ما عادت تحملني قدماي..

أسكنني التعب وأقعدني الجهد..

تلمّستُ ظلًّا وتوسدتُ صخرةً..

واستغرقتُ حتى خدرت أطرافي وشردت عيناي..

استغرقتُ كأنّ الدنيا ليس فيها إلا أنا وهذه البقعة الغارقة في الرمال..

استغرقتُ حتى تلاشت رائحة الوَحشة التي بُثّت بالمكان..

استغرقتُ حتى تحاورت الصخور والأحجار..

...

قالت صخرةٌ شديدةٌ صلبة:

إني في الصخور كالملك في أمته! وما شأن الملك إلا من قوة الإرادة وثبات العزم وقوة البطش!

إن كانت شدة الملك ترفع شأنه، فإن قسوتي ـ لا بد ـ رافعةٌ قدري!

إنّي لا يعثُر بي أحدٌ إلا كسرت عظمه، ولا أصبتُ فردًا إلا أدميته!

إنّي إن هويتُ على جمادٍ سحقته!

إني...

بادرتها صخرةٌ أخرى مستنكِرة:

ألا ما أغلظك!! أما تأملتِ حالي!؟

إني في الصخور كالأميرات في الأمم! وهل يرفع الأميرات أفضل من الجمال والرقة؟!

أما رأيتُنَّنِي سوداءَ ينعكس عليّ ضوء الشمس فأكون في الكون سوادًا يتلألأ؟!

أما رأيتنّ مثيلاتي يزيِّنَّ جدرانَ القصور وأرضياتِ المنازل؟!

لقد عرف العلماء قيمتي واستدلوا بي على قدرة خالقي..

عندئذٍ احتد حجر كبريتٍ فاسدُ الذوق كأنّ عهده بالحياة ألف عامٍ من الحمق:

يا تعس العقول ويا مسخ الأذواق! مذ متى والصخر يُستحسن فيه الجمال؟!

أرأيتِ سجانًا يُمدح برهافة إحساس؟! أرأيتِ مصاصَ دماءٍ يُستعذب منه بياض الأسنان؟!

إن الصخر ـ يا هؤلاء ـ علامة على الأذى والغلظة والقبح!
وحيث إنّي أسرع منكن اشتعالًا إن سُعِّرَت بي النيران!
وحيث إنّي أفضل منكن نتنَ رائحةٍ والتصاقًا بأبدان!
وحيث إنّ ناري أكثر حرارةً وكثافةَ دخان!
حيث كان ذلك فإني إذن..
أقبحكم قبحًا!
قاطعَ سعادته حجرٌ مدفونٌ في الرمال:
صه! اسكت قبحك الله فوق قبحك!
كأني بك كأجرب يفتخر أن سوء مظهره أرشد الناس إلى النظافة!!
ولو كان في الجرب عظةً فإنه لن يكون فخرًا!!
فاستر قُبحَك فحقه ـ لو عقلتَ ـ الكتمان لا المباهاة!
كأن شأن الصخر يأتي من القبح!؟
و هل الشأن إلا في المنعَة فلا يراك أحدٌ فضلًا عن أن يصل إليك؟!
ولو نظرتَ إليّ لوجدتني كمثل.. كمثل..
كمثل لؤلؤةٍ في محارتها يبحث عنها الجميع ما لم يروها!
فإن رأوها صارت سلعةً تباع وتشترى!
وحيث كانت اللؤلؤة أفضل منكن فإني ـ لشبهي بها ـ أفضل منكن!

من هناك قال حجرٌ متغطرسٌ كأنه فلتة الزمان:
و ما ثمن الحجارة وفضلها إلا من ندرتها؟!
حجرٌ نادرُ الوجود يجمع قلوب النساء وأعين الرجال!
حجرٌ نادرُ الوجود تشد إليه الرحال وتدفع فيه الأموال!

وحيث إني آخر فردٍ من جنسي، فإن فضلي عليكن كفضلي عليكن
في أعين التِّجار!
يا هؤلاء...

و ما إن سمعت صخرة بلهاء قوله «يا هؤلاء!» حتى قالت:
يا هؤلاء!! يا هؤلاء!!
أنا أفضل وأجمل وأغلى صخرةٍ عرفتُها! ولأنّ لي بنفسي
معرفةً جيدةً كمعرفة الصاحب بصاحبه فإني أضمن لكنّ
أني أنا سر شرف الصخر بين الجمادات! يا هؤلاء! يا هؤلاء..!
أشفق عليها حجرٌ من كثرة الكلام مع عدم وقود العقل فأخذ منها
طرف الحديث وأكمل:
يا هؤلاء! لقد آويت ـ مدى عمري ـ صنوفًا من الأحياء!
لو كشفت لكم سترَ ما تحتي لرأيتن من العقارب والحيات والهوام
والحشرات ما الله به عليم!
أتحبون أن تشهد لكم هذه الأحياء بفضلي عليها فتقرون
بفضلي عليكم؟!

تكلمت صخرةٌ رخوةٌ هي إلى «كتلةِ رملٍ جافة» أقرب منها إلى الصخر:
أنّى لكم أن تكونوا مثلي؟!
بدأتُ من الرمل وصرتُ صخرةً رخوةً، وبعد عمرٍ أصير
صخرةً صلبةً وقد لا أصير!

أين أنتنّ من مثل هذه المغامرات والتجارب؟! أنتن غارقاتٌ في الملل!
الماضي والحاضر والمستقبل عندكنّ هو أنكنّ صخور!
أما أنا...

هنا صاح حجرٌ ضخم الحجم ـ أو هكذا بدا صوته كأنه صياح:
أفٍّ لكم! أما تلحظون ضخامتي؟!
أما تنعمون بظلّي ولا يصل لكم شيءٌ من حر الشمس بفضلي؟!
أما ترون أني ـ لضخامتي ـ يأتيني الناس يركنون إليّ
ويتقون حر الشمس بين يديّ!!
أما ترون...

ثم..! ثمّ قال ملحدٌ قاطعًا هذا الحديث كلّه:
وما هذا القول الهزل؟! وهل هذه إلّا صخورٌ فحسب؟!

الطبيعة وحدها لا تكفي!

«نحن مُجرد نمل يحيا فوق برتقالة فاسدة، نتصارع..
ونحقد.. بينما الكون يردد لحنه الأعظم.. فلا نصغي..»

أحمد خالد توفيق

ستيفن واينبرغ هو فيزيائي أمريكي حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٧٩م، حصل عليها مشاركةً مع الأمريكي شيلدون جلاشو والباكستاني محمد عبد السلام، واينبرغ ملحدٌ ذو ملامحَ جامدةٍ ولسانٍ طليق، كتب في ثاني كتبه «الدقائق الثلاثة الأولى» عن إمكانية أن نبحث عن هدفٍ للعالم، ثم ذكر بعد ذلك في كتابه «أحلام النظرية النهائية» أنّه كان متسرعًا حين صرّح بإمكانية البحث عن هدفٍ للعالم، فالعالم ليس إلا منظومةً فيزيائيةً لا هدف لها، وأنّ هذا التسرع كان من قبيل «الحنين إلى عالمٍ تسبح فيه السماوات بحمد الله»[(١)]!

هذا الحنين يفسره واينبرغ نفسه بقوله: «إنّ من الرائع أن

(١) ستيفين واينبرغ: «أحلام النظرية النهائية»، والذي ترجم تحت عنوان: أحلام الفيزيائيين بالعثور على نظريةٍ علميةٍ جامعةٍ شاملة، ترجمة أدهم السمان، صفحة ١٩٩.

نجد في قوانين الطبيعة خطة أعدها خالقٌ مهتمٌّ وتؤدي فيها الكائنات البشرية دورًا متميزًا، وأنا أشعر بالحزن عندما أشك في ذلك، ومن زملائي العلميين نفرٌ يقولون بأن التأمل في الطبيعة يعطيهم اكتفاءً روحانيا[1] كان الآخرون يجدونه في الاعتقاد بإلهٍ مهتم، ربما كان بعضهم يشعر فعلًا هذا الشعور، أما أنا فلا!!»[2]، ثم يقول «إنّه لإغراء يكاد لا يقاوم أن نعتقد... شيئًا مخصصًا لنا، وإن شرف مقاومة هذا الإغراء ليس أكثر من بديل ضعيف عن عزاءات الدين، لكنه لا يخلو من رضى عن الذات»[3]!

وبعد أن تطَّلع على إفصاح واينبرغ عن تسرعه وحنينه وقلة عزائه، تعجب من ملحدٍ من عوام الملحدين يؤكد قمة ثباته واطمئنانه ورضاه!! ملحدٌ لو مات لم يشعر به أحدٌ غير جاره ذي القربى، ملحدٌ لا يستطيع التأمل في الطبيعة لأنّه لا علم له بقوانينها، يغالط نفسه أحيانًا ويدعي العلم بكلمةٍ من هنا وعبارةٍ من هناك، إلا أنّه في قرارة نفسه يعلم أنّه مهرجٌ كبيرٌ يبيت ليلته كئيبًا، ملحدٌ لم يؤتَ معشار علم واينبرغ بقوانين الطبيعة، ومع ذلك فهو يدّعي أضعاف ما عند واينبرغ من الاكتفاء الروحاني، وما ذلك إلا من تهور الصغير وغفلة الجاهل وكِبر النفوس!

---

(١) الترجمة في النسخة العربية «راحة ذهنية»، والصواب ما ترجمت به النص «اكتفاء روحانيًّا»، إذ الأصل الإنجليزي: spiritual satisfaction

(٢) السابق، صفحة ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٣) السابق، صفحة ٢٠٣.

يعرب التطوري الشهير ثيودوسيوس دوبجانسكي عن قلقه بخصوص أولئك الذين يعيشون خارج المعمل، فمثلهم لن يشعر بمعنى الحياة لعدم قدرته على فهم الطبيعة، إذ إنّه ليس باستطاعة جميع الناس إدراك المفاهيم العلمية، ثم يتساءل قائلًا: «هل العوام لا قيمة لهم؟ قد يبدون كذلك بالنظر إلى حقيقة أن الإنجازات الفكرية والروحية هي بالأساس من نتاج الأقلية النخبوية، بل ـ وإلى حدٍ كبيرٍ ـ من نتاج أقليةٍ صغيرةٍ من الأفراد العباقرة، بينما مصير الغالبية العظمى من البشر هي الموت والنسيان، فهل تلعب هذه الغالبية دورًا في تقدم البشرية؟!»[1]، ثم يقرر أن وجود العوام متحتّم للتقدم كضرورة كثرة متسلقي الجبال، ليظهر من بينهم من يستطيع الوصول للقمة!

هذا الملحد «الكومبارس» هو الذي يعنيني بالأساس، وهو الذي يثير استغرابي وعجبي، فقد أتفهم نفسية من أوتي شيئًا من العلم بأمور الطبيعة والأحياء، واستغرق في هذا العلم حتى نسي ما سواه، ثم اشتهر وصار يشار إليه بالبنان، أتفهم أن يملأ هذا فراغه الروحي بكلمات المديح، وأحاديث الصحافة، وإشارات الإعجاب، ومشهد كتبه التي تحقق أعلى المبيعات، أتفهمه ولا أعذره، لكني لا أفهم ما الذي يجنيه ملحدٌ عاميّ مقلدٌ «لا قيمة له»؟! وكيف يصبر نفسه على هذا الخواء الروحي الملازم للإلحاد؟!

وإن كان الملحدون قد أجمعوا على أن الطبيعة وحدها

---

(١) Theodosius Dobzhansky (1971). The Biology of Ultimate Concern. P. 132.

تكفي علميًّا، واشترطوا لهذه الكفاية زمانًا قديمًا تعمل فيه قوانين الطبيعة والانتخاب الطبيعي، إلا أنّ أغلبهم قد اعترف أن الطبيعة لا تكفي روحيًّا، وقد أدرك كبراؤهم أن الفقر الروحاني المصاحب للإلحاد يمثل مشكلةً طاغية، ولا يبدو في الأفق حلٌّ ناجعٌ يتصبّر به الملحدون، فقرٌ كفيلٌ أن يهاجر عَوَام الإلحاد بحثًا عن الكفاية في مذاهب أخرى.. أدرك كهنة الإلحاد ذلك جيدًا.. حتى أنّ الكتاب الأخير لسام هاريس عنوانه «الصحوة.. دليلٌ إلى الروحانية بدون أديان»!

يبحث الملحد الشهير ريتشارد دوكنز عن شيءٍ يُشعر الإنسان بالامتنان لهذه الطبيعة، شيءٍ يجعلك في حاجةٍ إلى شكر الطبيعة والرضا بالحياة، ويدفعك إلى العمل عرفانًا بهذا الجميل، بحثَ دوكنز فوجد شيئًا كثيرًا ما كرّره في كلامه، ويحلو لي أن أقتبسه من حواره مع دانيال دينيت عن معنى الحياة إذ يقول: «تحركني فكرة عدم احتمالية وجودنا، عندما تفكر في الاحتمالات التي تعوق وجودنا، إنّه شرف كبيرٌ أن تكون هنا.. هناك بلايين البشر الذين كان من الممكن أن يكونوا مكانك، والكثير منهم كان ربما ليكون أفضل منك، لذا كفّ عن الشكوى»[1]!

يقول دوكنز كذلك في إحدى كتبه: «لم يكن على أكثر فلاحي القرون الوسطى تواضع حالٍ سوى أن يعطس ليؤثر بدوره على شيءٍ آخر، ليغيّر بدوره شيئًا آخر، والذي بعد سلسلةٍ طويلةٍ

(١) لقاء مصوّر بين ريتشارد دوكنز ودانيال دينيت تجده على هذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=dTuhSdvlX-A

من التداعيات أدّى إلى نتيجة أنّ واحدًا من جدودك المحتملين فشل في أن يكون جدك وصار جدًّا لفردٍ آخر بدلًا منك، إنني لا أتكلم عن «نظرية الفوضى» ولا عن نظيرتها في الشيوع «نظرية التعقيد» بل عن الإحصائيات العادية للسببية»[1] نعم.. «يعطس».. ما قرأته صحيح!

انتهى كلام دوكنز بحذافيره، ونصه وفصه، وشحمه ولحمه.. هكذا.. هذا هو أقصى ما يجده دوكنز من تعزيةٍ في نظرته الإلحادية للإنسان، هذا المعنى الضعيف هو الذي يستند عليه دوكنز في مطالبة عوام الملحدين بالكفِّ عن التَّشكي والضجر! لقد تم اختيارك بالصدفة من بين البلايين.. فكفّ عن التشكي!!

كوسيلةٍ من وسائل الدعم المعنوي للجنود، فإن الجيش الأمريكي يضم عددًا من رجالات الأديان، يقومون بغرس الصبر والأمل في النفوس، ويخاطب كلٌّ منهم أتباع ديانته من المجندين.. كل هذا معقولٌ مفهوم، لكنّ العجيب أن الجنود الملحدين يطالبون بأنّ يكون لهم مثل هذا الذي لمعتنقي الأديان!! والجماعات الإلحادية في أمريكا تضغط على الجيش للسماح بالتحاق أحد رجالهم، ليخاطب الجنود الملحدين ويصبرهم ويدعمهم معنويًّا[2].. وحتى الآن يرفض الجيش هذا المطلب

---

(١) Richard Dawkins. Unweaving the rainbow. P: 10.

(٢) http://www.nytimes.com/2011/04/27/us/27atheists.html?pagewanted=all&_r=0
http://www.huffingtonpost.com/chris-stedman/why-would-atheists-in-the-military-want-their-own-chaplains_b_3690003.html

الغريب، فمنذ متى والإلحاد ـ في نظر معتنقيه ـ ديانة كسائر الأديان؟! ثم لنفرض أنّ الجيش قد وافق. . فما الذي سيقوله ممثل الإلحاد للجنود ليحثهم على الصبر؟!! أيحدثهم أنّهم ليسوا إلا كائناتٍ تافهةً من نتاج تطور الطبيعة عبر ملايين السنين، فلا بأس أن يموتوا في سبيل الوطن ليصيروا عدمًا ونسيًا منسيًّا؟!! ما الذي سيقوله لرفع الروح المعنوية!؟

برنارد بيكيت كاتبٌ قصصيٌّ ترك الإلحاد وتحول إلى اللاأدرية، الطريف في قصة تحول بيكيت أن سبب تحوله كان الملحد الشهير ريتشارد دوكنز[١]، وحين سُئل عن ذلك ذكر أنّه حين جمعه أحد المناسبات بدوكنز نفسه، رأى كيف يتعامل معه الملحدون وكأنّه كاهنهم الأعظم، وأحس أنّه عاد إلى الكنيسة التي تركها من قبل، ورأى أن الملحدين يفرضون عليه بغض الأديان، والاعتقاد بضررها الجسيم حتى ولو لم يدرس الأمر، وتعجب من فكرة إلزامه بأن يدعو إلى الإلحاد وكأنّه أحد المبشرين بالمسيحية!! هذا الذي جعله يترك الإلحاد ويتحول إلى اللاأدرية!

وإذن فشأن الملحد العامي أو الملحد «الكومبارس» يدعو للرثاء والشفقة، فقد علموه أن الطبيعة ليست إلا منظومةً متكاملةً وما سواها خيال، وأن التأمل فيها لا يمكن إلا لمتخصصٍ عارفٍ بقوانين الطبيعة والكيمياء والأحياء، وإلا صار التأمل سبيلًا

(١) http://www.newscientist.com/blogs/culturelab/2010/06/bernard-beckett-converting-from-atheism.html

للخرافات، فامتنع عن التأمل إمعانًا في الطاعة، ثمّ لما صرخت روحه أسكتها ووضع الرمل في فمها، صبرًا منه على متطلبات الإلحاد العلمي الصارم، ثمّ لما وجد بعض علماء الإلحاد أنفسهم يحركهم الحنين للإيمان، وبعضهم الآخر يصفه بأنّه من العوام الذين لا قيمة لهم، اعتبر ذلك «زلةً» وظلّ على عهده ملحدًا، ثم لما حدثوه عن الروحانية بكلامٍ لا يسمن، تغاضى عن الأمر ومضى في سبيله قدمًا، وروحه تئنّ بين الحين والآخر؛ كمحمومٍ يهذي من قلة الدواء، حتى تفلتت الروح فذهبت برباطة جأشه، وغدا يخبط خبط عشواء، لا يدري حقيقة ما يقول ويفعل!

إنّ هذا الخواء الروحي الذي يبتلع الإلحاد، قد جعل منه مسخًا بأيدي أتباعه، فالملحد الذي هرب من الأديان، ذهب فنحت بيديه صنمًا من الصلصال يعبده، ليُشبع هذه الصرخة التي تزلزل كيانه، ويروي هذه الروح العطشى في داخله، فإذا به وقد ترك الإلٰه وعبد الطبيعة، وعصى الله وأطاع البشر، وزعم أنّ الطبيعة أمّه ثمّ دار عليها يعقّها ويهجوها، وهجر الشرائع واتبع فلسفة العلم، وكره علماء الدين وقدّس كهنة الإلحاد، ونعى على المتدينين التقليد وبات معلقًا قلبه بما يقوله له روّاد المعامل، واستنكر الولاء والبراء وكره معتنقي الأديان، واستنكر في الدين مخاطبة العواطف وذهب حائرًا يبحث عما يخاطب عاطفته، وادعى الثقةَ والجزعُ يملؤه، وأظهر اليقينَ والحنينُ يغزوه، ولو انعتقت روحه من إسار جسده، لصرخت في الناس تطلب النجاة!

أفتِني!!

أفتني! أفتني في شأن هذه المجرّات المترامية والأفلاك المتباعدة!؟ أفتني في كواكب هذه «المجموعة» جعلوا بعضها من بعض، مالها خلت من مقومات حياةٍ قد اجتمعت لهذه الأرض، من غِلافٍ يحفظ لها ما فيها، ويصد عنها عواديها، وفصولٍ أربعةٍ تعاقبت وانتظمت، وهيئةٍ كالكرة بُسِط سطحها ومدّت، وجبالٍ راسياتٍ أمسكتها فما اضطربت؟! أفتني في هذه الأرض قد جُعلت كفاتًا، حملت الناس أحياءً وضمّتهم رفاتًا؟! أفتني في هذه الأرض امتازت بجاذبيةٍ يسرت السير على سطحها، واتسعت مناكِبُها، وفُجِّجَت سُبُلُها، فحَسُنَت فراشًا ومهادًا، وصَلُحَت هجرةً ومقامًا!؟

«بالمقارنة بغالبية الكواكب فإنّ هذه الأرض تُعد جنّة، وأجزاء الأرض هي جنّة بأيّ مقياس.. ما هي احتمالات أنّ كوكبًا التُقط عشوائيًّا تتوفر فيه كل هذه الخصائص اللطيفة؟! حتى أفضل الحسابات تفاؤلًا كانت لتجعل النسبة أقل من

واحد في المليون!». . الملحد الشهير ريتشارد دوكنز[1].

أفتني في شأن تلك السماء وقد كان ينبغي لها أن تكون صخورًا تتصادم، وأحجارًا تتساقط، وظلامًا تتطاير فيه شعاليل النيران؟! أفتني في شأنها وقد كان ينبغي لها أن تبعث رعبًا يتضاعف، وخوفًا يتزايد، ووحشةً لا تنتهي عند حد؟! أفتني في شأنها وقد كان ينبغي لها أن تكون بؤسًا بالنهار وغربةً بالليل؟! فمالها ازدانت بنورٍ وسراج، وزُيِّنت بالمصابيحِ والأبراج؟! مالها ونجومها كحبّاتِ لؤلؤٍ تلمع في الظُّلم، وألوانها ساحةُ جمالٍ تُذهل البصر؟! مالها تُؤنس الساهرين، وتُلهم الناظمين؟! مالها تتقلب بين نهارٍ ينشطون فيه، وليلٍ يسكنون إليه؟!

«عليّ أن أعترف أن الطبيعة تبدو لي أحيانًا أجمل بكثيرٍ مما ينبغي لها أن تكون!». . الفيزيائي الملحد ستفين واينبرغ[2].

أفتني في شأنِ هذا الجمال الذي لا ينبغي، والحسن الذي لا يُقاوم؟! أفتني في شأن هذا الطير السابح في جوّ السماء، قصِيًّا في عُلُوِّه، عصِيًّا في سُمُوِّه، من يسّر صيدَه، وقرّب بعده، وطيّب طعمه؟! أفتني فيما يدُبُّ على الأرضِ من الحيوانِ، وما في الأَنعامِ من الإنعامِ، من نفع نقلةٍ وملبسٍ وزينةٍ وطعام، ولبنٍ خالصٍ سائغٍ شرابه، قد تيسّر السبيل لطلابه؟!

---

(١) Richard Dawkins. Unweaving the rainbow. P: 11.

(٢) ستيفين واينبرغ: «أحلام النظرية النهائية»، والذي ترجم تحت عنوان: أحلام الفيزيائيين بالعثور على نظريةٍ علميةٍ جامعةٍ شاملة، ترجمة أدهم السمان، صفحة ١٩٥.

«ومهما يكن من أمر، فإن هذه المسائل الكوسمولوجية قد تجد لها حلًّا، ولكن مهما كان أمر النموذج الذي ستتبين صحته، فإنّه ليس بينها نموذجٌ مريحٌ ومطمئِن، إذ يكاد يستحيل على بني الإنسان ألا يعتقدوا بوجود علاقةٍ خاصةٍ بينهم وبين الكون، وأن الحياة ليست مجرد نهايةٍ مضحكةٍ لعوارضَ متتاليةٍ تعود في الماضي إلى الدقائق الثلاث الأولى، بل نحن بشكلٍ ما نميل إلى الاعتقاد بأننا كنا منذ البداية في التصميم وأننا غاية الوجود، فها أنا ذا عند كتابة هذه السطور، في طائرة تحلق فوق ولاية فيومينغ على ارتفاع ١٠٠٠٠ متر، في طريق العودة من سان فرانسيسكو إلى بوسطن، والأرض تحتي تبدو حانيةً مريحة، غيومٌ مخمليةٌ هنا وهناك، ثلوجٌ متوردةٌ تحت آشعة الشمس الغاربة، طرقات تمتد من مدينةٍ إلى أخرى عبر البلاد، فما أصعب أن نصدق أن هذا كله ليس سوى جزءٍ ضئيلٍ من كونٍ ماحقٍ عدواني، بل وأصعب من ذلك أن نتحقق أن هذا الكون قد تطور من ظروفٍ ابتدائيةٍ تكاد تكون غير مألوفة، ولا يمكن تصورها إلا بالجهد الجهيد، وأنّه سيخبو يومًا ما في برودة لا حدود لها أو أنّه سيصير إلى جحيمٍ مسعور، حقًّا إنّ الكون كلما بدا طيّعًا للإدراك، بدا عبثًا غير مقبول... فالسعي عن رضا لفهم الكون هو من الأشياء النادرة التي تسمو بالإنسان فوق مستوى الترهات، وتنعم عليه بشيءٍ من شرف المشاركة في هذه المسرحية المأساوية»!.. الفيزيائي الملحد ستيفين واينبرغ[1]!

أفتني في شأن الأرض الحانية، والغيوم المخملية، والثلوج

---

(١) ستيفين واينبرغ: الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون، ترجمة: محمد وائل الأتاسي، الدار المتحدة، صفحة: ١٧١ مختصرًا.

المتوردة! أفتني في شأن أوراق العشب تداعب بخار الماء فيكون الندى، ثم يداعب الندى أوراق العشب فيبقى رطبًا؟! أفتني في شأن بذرةٍ تبعث في النفس فكرةً بعد فكرة؟! كيف تهمس لأرضٍ صلبةٍ فتلين لمستدقِّ عروقها، وتسترسل فتفشي فيها سر نموها؟ تمضي في الأرض بجذرها، وتشُقُّ إلى السماءِ طريقها، فإذا بها بعد الضآلة شجرةٌ تامة، استغلظت واستوت على ساقها، طيبةً ذات حسنٍ وجمالٍ يُعجِب من يزرع، يأتي الطفل الضعيف يقطف ثمرها فلا تأبى ولا تتمنع؟!

«وفي قلبِ كلّ جمالٍ، يكمن شيءٌ لا بشري!»[1]..
الفيلسوف الوجودي ألبير كامو!

أفتني في شأن الحقيقة الفائتة، والفريضة الغائبة؟! لماذا كانت تحثّني تفاصيلُ الجمال على قول «الله»!؟ لماذا كانت تسري في جسدي قشعريرةٌ ما حين تطالعني مظاهر العظمة؟! أليس الأمر برمته ليس إلا قوانين صمّاء تعمل منذ الأزل؟! فحسنًا فعلتُ إذن حين وأدتُ هذا التأثر الذي يعتريني؟! حسنًا فعلتُ حين درّبتُ نفسي على عدم الاكتراث، واكتسبتُ مناعةً تقي من روعة الاندهاش؟! فليتك تُفتيني في شأني، مالي صرتُ أعجز عن نظم القوافي، وأعاني من فقر الخواطر؟!

«بصفتي ملحدة، فإنني أبغض هذا الحصاد من البيانات العدوانية ضد الدين الصادرة من الساخرين المحترفين،

---

(١) ألبير كامو: أسطورة سيزيف، ترجمة: أنيس زكي حسن، منشورات دار مكتبة الحياة، صفحة ٢٣.

والمتسكعين، والعلماء المتحفزين ثقافيًّا أصحاب الخيال المعقّد، أبغض العالم الفكري الضيّق الذي يقترحونه لأنّه في الحقيقة محبطٌ للغاية، وهو قاتلٌ لمستقبل الفن!»[1].. أستاذة النقد الفني الأمريكية الملحدة كاميليا باجليا.

أفتني في رجلٍ أتاك بقلبٍ سريع التعلق فيّاض المشاعر، تقصر جوارحه عن مجاراة قلبه حتى كان يعدُّ نفسه منافقًا، ثمّ انصرفَ عنك بقلبٍ عليلٍ تعلوه أطلال الحياة، يجعل من الطبيعة صنمًا جامدًا لا قيمة له، فتجعل هي منه مضغة لحمٍ جامدةً لا روح فيه، وكأنّ كلًّا منهما لما اكتفى بالآخر أهلكَه، أفتني في شأن هذا الرجل الأول كيف أفك أسره؟! ثمّ أفتني ـ لا أبًا لك ـ في طبيعةٍ كانت تراود جَنَاني وتغري كياني، ثم صارت ـ بعد لقائي إياك ـ رمز الكآبة وآية السآمة، لا تنفع سائلًا، ولا تهدي حائرًا، وبعد أن كانت تُسأل «ماذا تقولين؟!»، أمست يُسأل عنها «ماذا قيل فيها؟»! أفتني في السبيل إلى هذه الطبيعة المغدورة؟! أفتني من غير فلسفة!؟ أفتني، ليتني لم أعرفك!؟

«نحن أبناء الفوضى، والمكوّن الأصيل لكل تغيُّر هو الفناء، في الجذر ليس ثمّ إلا الفساد وامتداد الفوضى الذي لا يمكن اقتلاعه، الغاية ضائعةٌ وما تبقى هو الطريق، هذه هي الكآبة التي يجب أن نتقبلها حين نمعن النظر بعمقٍ وعقلانيةٍ في قلب الكون!»[2].. الكيميائي البريطاني الملحد بيتر أتكنز!

---

(١) Camille Paglia. "Art Movies: R.I.P." Salon, 8 Aug. 2007.

(٢) Peter Atkins (1984). The Second Law. Scientific American Library. Quoted by: Richard Dawkins. Unweaving the rainbow. P:4.

التوهّم!

«قُم يا صريعَ الوهمِ واسألْ بالنُّهى
ما قيمة الإنسانِ؟ ما يُعليه؟»[1]

عبد الله البردوني

بين الواقع والمأمول هوّةٌ تغازل عقول المشاهدين، وتتفاوت بحسب اتساع المدارك وطول الأمل، يرصدها قومٌ بالدراية والتعقّل، ويملؤونها بالسعي الحثيث، ويمحوها أقوامٌ بالتمنّي والتوهم، ليركن أحدهم إلى مخادعته نفسه، ركونًا يورثه طمأنينة الجاهل، ويقين من لا يدري، وليس عنده إلّا كذبًا يتغيّاه، ووهمًا يتزيّا به، ومن المشقة أن تُبصّر هذا المخدوع بموضع قدميه، وترسم له خريطة موقعه، عسى أن يفيق قبل أن تبتلعه الهوة، فيخرّ صريعًا عند الارتطام بالحقائق!

ولعلّ أبرز مظاهر التوهّم تتمثل في موقف الإلحاد من العلم الطبيعي، فإن كانت الطبيعة هي إلٰه الملحد، فإن العلم الطبيعي

(١) قصيدة «مدرسة الحياة»، من ديوان «من أرض بلقيس» للشاعر اليمني عبد الله البردوني.

هو كتابه المقدّس، الذي تُصدّق أخباره، وتُطاع أوامره، وتُجتنب نواهيه، وعلى أساسه يُعقد الولاء والبراء عند الملحدين، وهو عندهم كتابٌ تامٌّ لا يغادر شيئًا، وأحصى كل شيءٍ خبرًا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وطريقة نقله أصدق من التواتر، وأهله هم أصحاب الولاية الذين ترسم كلماتهم معالم الطريق!

يتحدث ميتشيو كاكو عن أمله قائلًا: «إن عصر الاكتشاف في العلم يقترب من نهايته ليفتح عصرًا جديدًا، هو عصر السيطرة على الطبيعة»[١]، ويؤمّل فرانك ويلكزيك كذلك أن «تكون هذه القيود الظاهرة ـ التي تقيّد العلم ـ متوهَّمة، وفي النهاية سنتمكن من الحصول على رؤيةٍ فريدةٍ وحتميةٍ للكون، رؤيةٍ متاحة تمامًا للتحليل العقلي»[٢]، وإذا بهذه الكلمات ونظائرها التي تتحدث عن المأمول من العلم الطبيعي، قد تحولت عند غالبية الملحدين إلى واقعٍ معيش، ليحدّثوك عن العلم الطبيعي الذي كشف الخبء في كل شيء، ولا يستعصي عليه شيء!!

عندما تنتقل من وصف المأمول لوصف الواقع، تجد قول الفيزيائي النوبلي[٣] ستفين واينبرغ في مقدمة كتابه عن نشأة الكون

---

(١) ميتشيو كاكو: رؤى مستقبلية.. كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين؟ ترجمة د. سعد الدين خرفان، مراجعة: محمد يونس، سلسلة عالم المعرفة، صفحة ١٣.

(٢) Wilczek Frank. Analysis and Synthesis IV: Limits and Supplements. Physics Today 2004; 57:10-11.

(٣) النوبلي: نسبة للحصول على جائزة نوبل.

«طبعًا ليس لدينا يقينٌ مطلقٌ في هذا المجال»[١]، وقول إيوجين سكوت «لا يوجد إجماعٌ بشأن كيفية نشأة الكائنات الحية الأولى»[٢]، ويقول الفيزيائي النوبلي ريتشارد فاينمان «كل المعرفة العلمية الطبيعية غيرُ أكيدة»[٣]، ويصرّح نيل تايسون أنّ «طبيعة العلم الطبيعي المتشككة تجعله منافسًا غير كفءٍ لقلوب البشر وعقولهم»[٤]، ويقول عالم الرياضيات والفيزيائي النوبلي إيوجين ويغنر: «إنني أعتقد أنّه ليس حقًّا أن نتوقع أن قدراتنا العقلية يمكنها صياغة مفاهيم كاملة لنتمكن من فهمٍ تامٍّ لظواهر الطبيعة المادية»[٥]، وعيًا من هؤلاء بالهوة الفارقة بين الواقع والمأمول، في حين تجد غالبية الملحدين يدهشونك بادعاء يقينٍ لا يوجد عند أرفع المتخصصين قدرًا!

تكمن مشكلة الملحد في العجز عن التفرقة بين مستقبل العلم المأمول أو المتوهم[٦] وواقعه، بسبب سوء تصوره لطريقة

---

(١) ستيفين واينبرغ: الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون، ترجمة: محمد وائل الأتاسي، الدار المتحدة، صفحة: ٦.

(٢) Scott EC. Evolution vs. Creationism: An Introduction. Greenwood Press. P 24.

(٣) Richard Feyman. The Meaning of It All. http://www.inf.fu-berlin.de/lehre/pmo/eng/Feynman-Uncertainty.pdf. Accessed 30 November 2014

(٤) نيل تايسون ودونالد سميث: البدايات، ١٤ مليار عام من تطور الكون، ترجمة: محمد فتحي خضر، صفحة ١٤، وفي الترجمة المطبوعة «العلم» والأنسب «العلم الطبيعي» كما ذكرتها.

(٥) Wigner E. The limits of science. Proceedings of the American Philosophical Society 1950; 94:424.

(٦) انظر مقالة: قاصر..!

العلم الطبيعي بدءًا من الدافع لتحصيله مرورًا بالأصول انتهاءً إلى ممارسته، يحسب الماديّ عمومًا والملحد خصوصًا أن كافة متعلقات العلم الطبيعي لا شأن لها بالغيبيات، وأن الميتافيزيقا لا تلعب دورًا في شيءٍ من عمليات العلم الطبيعي ولا مجرياته! فتعالوا ننظر على شيءٍ من ذلك بدءًا من الدافع.. مرورًا بالأصول.. انتهاءً إلى ممارسته..

بدءًا من الدافع.. إن الدافع لاستكشاف الكون عن طريق العلم الطبيعي لا ينسجم مع المادية والإلحاد بحال، فما معنى أن تدرس أعالي الجبال وأعماق البحار وتعرف خصائصها؟! لماذا تضيّع عمرك في تخصصٍ دقيقٍ مبناه على دراسة الكائنات الحية أو صخور الأرض أو نجوم السماء؟! لماذا تسعى لمنفعة سواك من البشر؟! ما الغاية؟! يقول الفيزيائي الشهير علي مصطفى مشرفة رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيحٌ أن العلم يُعنى بالحقائق الموضوعية، وأن الدّين يُعنى بالقيم الروحية، ولكن طلب العلم في ذاته مبنيٌّ على قيمةٍ روحيةٍ هي حب الحق، فطالب العلم طالب حقيقة!»[1]!

لماذا يُضيّع الملحد عمره في طلب الحقيقة، وعنده أنّ الرغبة في الوصول للحقيقة ليست إلا نتاج عمليةٍ تطوريةٍ مثلها مثل حاجة الإنسان للدين عند المتدينين؟! فلماذا ترفض الثانية ولا ترفض الأولى؟! ولو وسوس للملحد ضميرُه وحدثته نفسه: ما قيمة هذا البحث العلمي وما أدراك أنّ هذا العالم لا يجري

(١) علي مصطفى مشرفة: كتيب العلم والحياة، مقالة العلم والدين.

عبثًا؟! لما اطمأنت نفسه لجواب هذا السؤال إلا أن يترك البحث العلمي أو أن يترك إلحاده وكفره بمن لم يخلق السماوات والأرض عبثًا!

بدءًا من الدافع.. إنّ الصادق مع نفسه يدرك أنّ الدافع الأكبر لاستكشاف الكون، والأمل الأعظم في البحث عن خوافيه ينبع من افتراض خصيصةٍ مميزةٍ للكائن البشري في هذا الكون، ولا يمكن أن يتحقق هذا الأمل في قلب من يعتقد أن الإنسان ليس إلا نتاج عمليةٍ تطوريةٍ لا تُخطط ولا تدري، لا يمكن أن يوجد هذا الأمل في قلب من يعتقد أن حقيقة الإنسان أنّه هباءةٌ في كونٍ غير متناهٍ، لا قيمة له ولا ضمان لمنتجات عقله!

قد أدرك جورج جور أنّ المعرفة البشرية محدودة، وأن الظواهر الطبيعية تستدعي عملًا وقدرةً ذهنية لا نهائية، وأننا لا يمكن أن نزعم أنّ إنسان المستقبل سيصل إلى معرفة وتفسير كافة ظواهر الطبيعة، إلا إذا.. إلا إذا افترضنا أن هناك تصميمًا في الطبيعة يجعل للإنسان قيمةً خاصّة فيها Anthropocentric design، عندها «يكون من المعقول أن نفترض أن الطبيعة ككلٍّ مؤطرةٌ نظاميًّا وفق تصميمٍ ذكي، ولا شيءَ فيها يستعصي بطبيعته على القدرة العقلية للبشر، وأن الحقائق الكثيرة الغامضة ليس غموضها إلا أمرًا مؤقتًا حتى نتحصل على المعرفة اللازمة السابقة لكشفها»[1]!

---

(١) George Gore (1878). The art of scientific discovery. pp. 26-29.

مرورًا بالأصول. . ففي الوقت الذي يدّعي الملحد فيه إنكاره لكافة الغيبيات، وعدم تصديقه إلا لمشهودٍ ثابتٍ بالبرهان، يجهل ـ أو يتجاهل ـ أن الأصول التي تبنى عليها أصول العلم الطبيعي نفسها مسلّماتٌ غير مبرهنة، لا يخالف في حتمية وجود هذه المسلّمات عاقل، منذ قدماء اليونان وحتى فلاسفة العلم المعاصرين! قد يختلف رجال العلم الطبيعي وفلاسفته في اتساع دائرة هذه المسلّمات الأوليّة، وقد يختلفون في ضرورة موافقتها للواقع من عدمها، لكنّهم لا يزعمون أبدًا أن العلم قد يُطلب من غير هذا العنصر الغيبيّ!

في ورقاتٍ بعنوان «طبيعة العلم الطبيعي والطريقة العلمية» أعدتها الجمعية الجيولوجية الأمريكية، استفتحت بذكر الافتراضات التي يقوم عليها العلم الطبيعي والمعرفة المبنية عليه، وهذه الافتراضات هي:

ـ العالم له وجودٌ حقيقي، وهو يوجد مستقلًّا عن استقبالنا الحسّي له.

ـ يستطيع الإنسان أن يدرك العالم الفيزيائي بدقة، وأن يحاول فهمه.

ـ العمليات الطبيعية كافيةٌ لتفسير وشرح الظواهر والأحداث الطبيعية، أو بعبارةٍ أخرى فإنّ على علماء الطبيعة أن يفسروا الطبيعة عن طريق الطبيعة ـ وليس عن طريق ما فوق الطبيعة لأنّه

لا يقوم على دليلٍ مستقلٍّ[1] وبالتالي لا يمكن إثبات زيفه ولذلك لا يُعدّ من العلم الطبيعي ـ حتى ولو لم يعلم البشر ما هي العمليات الطبيعية المفسّرة في الوقت الحالي.

ـ بطبيعة عملية التفكير الإنسانية ـ المتجذرة بخبراته السابقة ـ فإن تصوراتنا قد تكون غير دقيقةٍ أو منحازة.

ـ التفسيرات العلمية محدودة، المعرفة العلمية هي بالضرورة ممكنةٌ وليست مطلقة، ولهذا يجب أن تُقوّم وتقدّر وتخضع للتعديل وفق الأدلة الجديدة، من المستحيل أن نعرف إن كنّا فكّرنا في كلّ تفسيرٍ بديلٍ وكل عاملٍ مؤثر، والتكنولوجيا قد تكون محدودة.

ـ التفسيرات العلمية احتمالية، والنظرة الإحصائية للطبيعة ثابتةٌ ضمنيًّا أو صراحةً عند ذكر التوقعات العلمية لظاهرةٍ ما أو احتمالية وقوع حدثٍ ما في المواقف الفعلية![2]

هذه الافتراضات التي ينطلق منها العلم الطبيعي ليست إلّا

---

(١) إن قصد بهذا عدم قيام دليلٍ مستقلٍ على وجود ما فوق الطبيعة من خلال التجربة والمعمل فلا إشكال، ولكن إن قصد أنّه لا يوجد مطلق الدليل على وجود ما فوق الطبيعة فغير مسلم، إذ لا تنحصر الأدلة في الأدلة الطبيعية وحدها (انظر مقال: الدائرتان!)، والدليل العقلي قائم على وجود ما فوق الطبيعة، والغريب أن النقاط المطروحة كلها من أن العالم مستقل، وأن الإنسان قادر على فهمه، كل هذه النقاط لا يوجد دليلٌ مستقلٌّ عليها من العلم الطبيعي، بل بعضها لا يمكن إقامة الدليل عليه أصلًا، ومع ذلك يقبل بهذه المقدمات كافة علماء الطبيعة بل كافة العقلاء، وهذه المقدمات نفسها لا تصح إلا بافتراض أن الكون غير العاقل لا يسير عبثًا!

(٢) The Geological Society of America (GSA). The nature of science and the scientific method.
Available at: http://www.geosociety.org/educate/NatureScience.pdf. Visited on: 13-2-2015.

مسلّماتٍ لا تقوم على دليلٍ تجريبيٍّ أو حسي، كيف تثبت أنّ الإنسان قادرٌ على إدارك العالم من حوله وعنده من الآلات ما يكفيه لمحاولة فهمه؟! كيف تحل ذلك اللغز الذي قال فيه الفيزيائي النوبلي الشهير آينشتين: «أكثر شيءٍ غير مفهوم بخصوص هذا العالم هو أنّه مفهوم»[1]؟! كيف تثبت أن الطبيعة لا تفسّر إلا بالطبيعة عن طريق الطبيعة؟[2] فهذه هي الأسس التي يُبنى عليها العلم الطبيعي، وتبنى على بعضها ـ كالافتراض الأول والثاني ـ الكثير من معاملاتنا الحياتية، ما الدليل على هذه الافتراضات في عالمٍ ماديّ طبيعيّ بحت؟!

مرورًا بالأصول.. الاستقراء والسببية من الأصول التي ينطلق منها العلم الطبيعي وتعمل عليها طرائقه التجريبية، فالملاحظة وتكرار الملاحظة يُبنى عليهم الاستنتاج، وهذا من الاستقراء الناقص بحسب اصطلاح أهل الأصول[3]، ولا يمكن

(١) Antonina Vallentin (1954). *Einstein: A Biography*. p. 24.

(٢) وانظر مقال «قاصر..!» للوقوف على استحالة ثبوت المنظومة من داخلها وفقًا لمبرهنات عدم الاكتمال لكورت جودل.

(٣) الاستقراء قد يكون تامًّا وذلك حين يكون بتتبع أفراد وجزئيات الحكم في كل صورةٍ منها ما عدا الصورة محل البحث، وقد يكون ناقصًا ذلك حين يُلحق الفرد بحكم الأغلب، ودلالة الاستقراء التام عند أهل الأصول ـ أصول الفقه ـ حجةٌ لازمة، وهو عند كثيرٍ منهم قطعي الدلالة، بينما دلالة الاستقراء الناقص ظنية.

ولا شك أن التجربة المعملية تتكرر عدة مرات قبل الخروج بحكم، لكنّ هذا الحكم لا يُبنى على ملاحظة جميع أفراد الحكم، فعندما تبحث مثلًا عن العلاقة بين ميكروبٍ ما وأعراضٍ مرضية، فأنت تبحث في عشرات المرضى وتجرّب في عشراتٍ من حيوانات التجارب، لترى هل هناك علاقة بين الميكروب والمرض أم لا، وعندما =

الوثوق والجزم بأثر الاستقراء الناقص إلا بافتراض أن العالم يسير وفق نظامٍ لا يتغير، وقد أدرك فلاسفةٌ مثل ديفيد هيوم وبرتراند رسل هذاً الأمر وباءت محاولاتهم لحلّ إشكاله بالفشل، لكنّ الغريب أنك ترى الكثير من عامة الملحدين لا يدرك شيئًا من ذلك، ويحسب أن العلم الطبيعي لا دخل للميتافيزيقا ولا للإشكالات الفلسفية فيه مطلقًا!

هل معنى أن التجربة أنتجت نتيجةً معينةً تسعةً وتسعين مرة أن هذه النتيجة ستتكرر في المرة المائة؟! هل هذا حتمٌ لازمٌ وضرورةٌ لا مناصَ منها؟! العلم التجريبي مبنيٌّ على ذلك.. لكن التدليل على لزوم ذلك لا يصح إلا بالإقرار بأن الكون لا يسير عبثًا! وهذا الإقرار بعدم عبثية الكون الجامد غير العاقل عديم الغائية ـ كما يزعم الماديون ـ يعتبر من العبث، فكيف تنسب لجماد متحركٍ بلا عقلٍ ولا غاية أنّه لا يعبث وأنّه يمكن دراسة خطواته فضلًا عن توقعها؟!

انتهاءً بالممارسة.. لا تخلو الممارسة في فرعٍ من فروع العلم الطبيعي، أو حتى في جزئيةٍ من أصغر جزئياته من فرضٍ

= ترى من ملاحظاتك وتجاربك تكرر هذه العلاقة تحكم بأن هناك علاقة بين الميكروب والمرض، وهكذا ليس من شرط الطريقة التجريبية أن تبني حكمك على ملاحظة جميع المرضى على ظهر الأرض لتعذُّرِه، ولذلك وُضع في قواعد البحث الإكلينيكي أصول اختيار العينة الممثلة للمجموع Proper Sampling of representative sample، وهذا الاختيار وتلك الطريقة لا شك يعتريها شكّ بخصوص تعميم نتائج العينة على المجموع، ولذلك فهذه الطريقة ظنية ولكنّ العمل عليها في البحوث الإكلينيكية.

غيبيٍّ أو أكثر، بدون هذه الفروض لا يمكن أن تسير عجلة العلم الطبيعي، في كثيرٍ من العلوم التطبيقية تكون تلك الفروض مسلّمةً من الجميع دون إشكالٍ داخليّ في نفس هذه الافتراضات، شأنها شأن بعض الافتراضات السابقة التي ينطلق منها العلم الطبيعي، وبالتالي لا تبعث إشكالًا إلا إشكالًا من خارجها على وزان ما سبق من إشكالٍ يتوجه للملحد الذي يدعي عدم وجود ميتافيزيقا في العلم الطبيعي مطلقًا، لكنّ العلوم التي يكون فيها شقّ تاريخيّ مثل علوم الأحياء Biology والكونيات Cosmology ودراسة طبقات الأرض Geology وما شابه، أحيانًا تكون هذه العلوم مبنيةً على افتراضاتٍ مشكلةٍ وغير مسلّمةٍ في ذاتها، وبالتالي تغدو هذه الافتراضات ملزمةً للماديّ الملحد الذي يزعم عدم وجود مصادراتٍ في العلم الطبيعي، ويكون العلم بها مفيدًا للموحد حتى لا ينساق وراء استنتاجات الملحد ناسيًا الافتراضات المُشكلة غير المسلّمة التي ينطلق منها الملحد ولا يستطيع إثباتها!

على سبيل المثال خذ مبدأ التماثلية Uniformitarianism، والذي من خلاله يدرس العلم الطبيعي الكون بناءً على ثبات قوانين عمل الطبيعة زمانيًّا ومكانيًّا، فقوانين الطبيعة تعمل على نفس الشكل في الماضي والحاضر والمستقبل، والإنسان لم يوجد بالخلق المباشر، وإنما يجب دراسة وجوده الأول وفق قوانين الطبيعة، التي أنتجت الإنسان تطورًا من كائناتٍ سابقةٍ عليه، وهذه الجبال والبحار والقارات وما شابه، ليس للأمر الإلٰهي دخلٌ في تكونها، وإنّما هي نتيجة عملٍ دائمٍ لقوانين الطبيعة منذ قديم

الأزمان، هذا مبدأ حاكمٌ على العلوم التي تدرس الطبيعة والإنسان في التاريخ.. فما برهانه؟!

يقول ستيفين جاولد في مقالةٍ له بعنوان «هل التماثلية ضرورية؟»: «إنّ افتراض ثبات قوانين الطبيعة مكانيًّا وزمانيًّا ليس خاصًّا بعلم الجيولوجيا حيث إنّه لازمٌ لصلاحية الاستدلال الاستقرائي الذي هو ـ كما بيّن بيكون منذ أربعة قرونٍ تقريبًا ـ الطريق الأساسي للتفكير في العلم الطبيعي التجريبي، إذ إنه بدون افتراض الثبات الزماني والمكاني ليس لدينا أي أساسٍ للتعميم من المعلوم على المجهول، وليس هناك طريقةٌ للوصول لاستنتاجاتٍ عامةٍ من خلال عددٍ محدودٍ من الملاحظات!»[١].

نعم.. هو مبدأٌ مسلّمٌ به ينطلق منه كافة الباحثون في العلم الطبيعي ذي الشق التاريخي، كي لا يأتي أحد الكتّاب ليدعي أن هذه التغيرات في شواطئ البحار حدثت بفعل كارثةٍ طبيعية، وآخر يزعم أنّ سلاسل الجبال كانت بفعل الكائنات الفضائية، وهذا المبدأ لا يمكن إثباته بالتجربة كما لا يمكن إثباته بالاستقراء أو الاستنباط، فكيف تثبت أن الكون لا يتغير حتى يمكن تعميم المشاهدات الجزئية المتكررة على الماضي بناءً على بعض المشاهدات الجزئية المتكررة؟! أليس هذا من الاستدلال بمحل النزاع على محل النزاع؟! إنّه مبدأٌ مسلّمٌ به لا دليل عليه لدراسة الماضي بالطريقة العلمية!

(١) Gould SJ. Is uniformitarianism necessary? American Journal Of Science (1965) 263: 223-228.

انتهاءً بممارسته.. عندما تتوصل إلى نظريتين تستطيع كل واحدةٍ منهما أن تفسر الظواهر الطبيعية على نفس الدرجة من الكفاءة والقدرة على التوقع والتحكم، عندئذٍ يكون الرجحان للنظرية الأقل من جهة عدد الافتراضات، الأبسط من جهة التركيب، فيما يُعرف بشفرة أوكام Occam's Razor (Parsimony)، ترجّح الأبسط والأسهل دون أن تستطيع البرهنة على أن الطبيعة تستعمل الطريقة الأسهل! ترجح الأيسر دون أن تستطيع البرهنة على أنّ الحقيقة يجب أن تكون في الاتجاه اليسير!!

انتهاءً بالممارسة.. عندما تقبل على أيةِ تجربةٍ لا بد من أن تؤطر هذه التجربة بتعريفاتٍ محددة، ولذلك تجد أن ذكر التعريفات متكرر في الأوراق العلمية عند الكلام على طريقة البحث Methods or Methodology، مثلًا.. عندما تقوم بنشر بحثٍ علميٍّ عن معدلات الوفاة بالمستشفى Hospital mortality بعد عملية استئصال الكبد للأورام النقيرية في القناة المرارية Hilar cholangiocarcinoma، وتقوم بتعريف الوفاة بالمستشفى مثلًا أنّها الوفاة خلال شهرٍ بعد العملية الجراحية، لن تكون النتائج مثل أن تعرّف الوفاة بالمستشفى بأنّها الوفاة خلال ثلاثة أشهرٍ بعد العملية الجراحية، لن تكون مثل أن تعرّف الوفاة بالمستشفى أنّها الوفاة التي تحدث قبل الأمر بخروج المريض أول مرةٍ بعد العملية، واختيارك لتعريفٍ دون غيره لا يسلم من نقد!

كذلك حين تجري بحثًا عن مرض ارتجاع المريء GERD Gastroesophageal Reflux Disease مثلًا، تبحث في الانتكاس

الذي يحدث بعد تعاطي نوعٍ معيّنٍ من الأدوية لفترة محددة أو بعد عمليةٍ جراحيةٍ لإصلاح فتق الحجاب الحاجز Hiatus hernia بإحدى العمليات الجراحية التي تعالجه، عندما تكتب بحثك لا بد أن يكون في المقطع الخاص بطريقة البحث Patients and methods تعريفًا للانتكاس، هل هو مجرد عودة أعراض ارتجاع المريء، أما لا بد من ثبوت الارتجاع بمقياس ضغط صمام أسفل المريء Lower esophageal sphincter pressure (LESP) حتى لو لم يكن هناك أعراض، لا شك أن اختيارك لتعريفٍ دون الآخر سيؤثر على نتائج البحث! ولا شك أن هذا الاختيار سيكون فيه جانبٌ من المصادرة أو التنازل عن مميزات غيره من التعريفات المطروحة وهكذا . . !

أحد زملائي الجراحين راسل أحد الرموز في مجال جراحة الكبد وقد نشر هذا الرمزُ بحثًا عن عملية استئصال أورام القناة المرارية النقيرية لمائة مريضٍ بدون وفاة بالمستشفى بعد العملية Without mortality، أخبرني هذا الزميل أنّه يوم وصوله المستشفى وجد إحدى الحالات تموت بعد عملية الاستئصال هذه في العناية المركزة، كانت هذه صدمةً إلى حدٍّ ما . . لكن هذا الرمز الجراحي لم يكذب في بحثه، هو فقط استعمل تعريفًا محددًا للوفاة بالمستشفى، وقصر مدة الدراسة على مدةٍ معينة، فتحصَّل ـ أو لكي يتحصل! ـ على مائة حالة بدون وفاة بالمستشفى بعد العملية!

هذا الإشكال في التعريف في مثل هذه البحوث الإكلينيكة

الطبية تبقى في دائرة الأطباء والمختصين، لكن تتضح «مشكلة التعريف» أكثر حين يكون للتعريف تعلّقٌ فلسفيٌّ بالأسئلة الوجودية من جهةٍ أو أخرى، كارل ساغان مثلًا كان على رأس مؤيدي البحث عن الحياة خارج الأرض The search for extraterrestrial intelligence (SETI)، قوبلت عملية البحث بالنفور على فشل آلات الرصد والنفور النفسي من الفكرة، كان ساغان من الذكاء بحيث قابل ذلك الرفض بجذب الأنظار إلى تعريف الحياة نفسها Definitions of life، ليضع تعريفات عدة بناءً على علم وظائف الأعضاء والأيض والكيمياء الحيوية والوراثة والديناميكا الحرارية، ها هو يرمي في جعبتك خمسة تعريفات، لا ليمنعك من نفي وجود الحياة خارج الأرض بهذه التعريفات، بل ليوحي لك أن التعريفات تتغير حسب معطيات العلم، فما يدريك ألا يأتي في المستقبل ما يغيّر تعريفك للحياة أصلًا؟!

خذ مثالًا آخر على دور التعريف في العلم الطبيعي من نظرية التطور، فعندما تقوم بتعريف التشابه بين الكائنات الحية Homology على أنّه «التشابه نتيجة سلفٍ مشترك Common ancestry»، فإنّك بذلك تكون جعلتَ من نظرية التطور حقيقةً بمجرد تعريفك للتشابه بين الكائنات الحية، وهذا لا يفيد في الاحتجاج على من يرى أنّ التشابه نتيجة وحدة الخالق One Creator، والتعريفان لا يقوم عليها دليلٌ تجريبيّ بل كلاهما مبنيٌّ على نظرٍ فلسفيّ لما يدل عليه التشابه بين الكائنات، لكن الفرق بين التعريف الأول أن صاحبه يعتبره علميًّا scientific يمكن

إثباته بالطريقة التجريبية، في حين أنّ حقيقته أنّه يعد في مقام المناظرة مصادرةً على المطلوب ليس إلا، بينما صاحب التعريف الثاني لا يزعم إمكانية إثباته بالتجربة وإنما يزعم إثباته بالأدلة الواردة في النصوص الشرعية الصحيحة الصريحة!

من المشكلات المشتهرة في نظرية التطور كذلك مشكلة تعريف النوع Definition of Species، وقد أُفردت فيها مصنفاتٌ كاملةٌ في محاولاتٍ لحلها[١].. فتخيّل مثلًا لو تبنيّتَ التعريف الذي ذكره غوستاف لوبون بقوله: «النوع النفسي هو كالنوع التشريحي مؤلفٌ من عددٍ قليلٍ من الصفات الأساسية الثابتة التي تتجمع حولها صفاتٌ ثانويةٌ متغيرةٌ متحولة، وذلك كالمربي الذي يحوّل بنية الحيوان الظاهرة والبستانيّ الذي يغيّر منظر النبات، فلا يتبين ذلك من ليس له إلمامٌ بالأمر، مع أنّ المربي والبستانيّ لم يؤثرا في غير الصفات الثانوية لذلك الحيوان وذلك النبات، والصفات الأساسية تميل دائمًا إلى الظهور ثانيةً في كل جيلٍ جديدٍ على الرغم من كل حيلة»[٢]!

يعتمد التطوريون على وقوع التغيرات الطفيفة بفعل الانتخاب الطبيعي وهو ما يعرفونه باسم التطور

---

(١) انظر على سبيل المثال:

- Richard A. Richards. The Species Problem: A Philosophical Analysis. Cambridge University Press.

- Quentin D. Wheeler and Rudolf Meier. Species Concepts And Phylogenetic Theory: A debate. columbia university press.

- John S. Wilkins. Species: A History Of The Idea. University Of California Press.

(٢) غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، صفحة ٤٠.

الأصغر Microevolution، ومن ثمّ يستدلون بها على وقوع التطور في بقية الصفات حتى تُنتج نوعًا آخر من نوعٍ سابق Macroevolution اعتمادًا على الزمن، دون أن يقوم أحدٌ منهم برصدٍ لعملية تطور كبرى حقيقيةٍ في الماضي ولا في الحاضر، تخيّل لو تبنيّت هذا التعريف الذي ذكره لوبون، وهو يقرر حدوث التغيرات في الصفات الثانوية، ويجعل الصفات الأساسية ثابتةً لا تتغير، كيف ستثبت وقوع التطور الأكبر بالقياس على التطور الأصغر حينها؟! وكيف ترد تعريفَ لوبون بناءً على طريقة عمليةٍ تجريبية؟! هي مشكلةٌ فلسفيةٌ بالأساس، وهكذا.. فالعلم الطبيعي في دوافعه وأصوله وممارساته فيه ما لا يُنكره أحدٌ من الافتراضات والمصادرات الغيبية والفلسفية التي لا تقوم على دليلٍ تجريبي، ولا يمكن إثباتها بطريقة البحث العلمي الطبيعي نفسها!!

وليس أدلّ وأوضح على ما سبق لأختم به، غير تعليق الملحد الشهير دانيال دينيت على سر الصراع حامي الوطيس حول نظرية التطور، وفي ختام تعليقه رسالةٌ واضحةٌ لكل من يخدع نفسه أن العلم الطبيعي ليس فيه شيءٌ من الفلسفة والميتافيزيقا والمصادرة وما شابه.. يقول دانيال دينيت:

«حينما يكون الموضوع هو الداروينية، فإنّ حرارة الحوار ترتفع؛ لأنّ الرهان يكون على ما هو أكبر من الحقائق التجريبية المتعلقة بكيفية تطور الحياة على الأرض، وأكبر من المنطق الصحيح للنظرية التي تفسّر هذه الحقائق، إحدى أثمن الأمور التي يكون الرهان عليها هو الرؤية المتعلقة بمعنى سؤال «لماذا؟»

وجوابه، إنّ نظرة داروين الجديدة تقلب رأسًا على عقب العديد من افتراضاتنا التقليدية، وتقوّض أفكارنا المعتادة عما ينبغي أن يُعدّ جوابًا كافيًا لهذا السؤال القديم الذي لا يمكن الهروب منه، هنا تتداخل الفلسفة مع العلم الطبيعي تمامًا[١]، أحيانًا يخدع علماء الطبيعة أنفسهم بتصور أنّ الأفكار الفلسفية ليست ـ في أحسن أحوالها ـ إلّا زينةً أو تعليقاتٍ طفيليةً على انتصارات العلم الطبيعي الموضوعية الصلبة، وأنّهم أنفسهم محصنون من الالتباسات التي ينذر الفلاسفة حياتهم لحلّها، لكن لا وجود لشيءٍ اسمه علمٌ طبيعيٌّ خالٍ من الفلسفة، ليس هناك إلا علمٌ طبيعيٌّ يأخذ بضاعته الفلسفية على متنه دون فحص[٢]»[٣]!

---

(١) دينيت لا يفصل بين العلم الطبيعي وفلسفته، ويرى أن التركيب الفلسفي لزوميّ في أيّ طرحٍ علميّ طبيعيٍّ أو تجريبيٍّ، مشكلته ـ أي هذا التركيب ـ أنّه يكون عصيًّا على الالتقاطِ لخفائه أو لطول العهد به ليس إلا. . ويرى أنّ المشكل الرئيس وسبب اشتداد وتيرة الحوار عند نظرية التطور هو أنه يتعرض لفلسفة العلم الطبيعي نفسها!

(٢) «دون فحص»: أي أنّ المنطلقات الفلسفية للعلم الطبيعي ككون العالم قابلًا للفهم غير قابلة للفحص بطريقة العلم الطبيعي نفسها، وكلام دينيت يحمل على غياب الوعي بالأصول الفلسفية للعلم الطبيعي عند كثيرٍ من ممارسيه، إلا أنّ هذا لا يعني أنّ فلسفة العلم الطبيعي لا تمر ببحثٍ وأخذٍ وردٍّ بكافة تفاصيلها، والغرض من الوقوف على هذه الطبيعة في العلم الطبيعي ليس إنكار فائدة العلم الطبيعي وجدواه، أو زعم أن كافة متعلقاته الفلسفية مردودة لا تُقبل، بل المطلوب هو الاشتغال بالعلم الطبيعي، والاستفادة من ثمراته، مع الحذر من الجانب الفلسفي الميتافيزيقي الذي يتخلل أصول العلم الطبيعي وممارساته، الحذر منه بالوقوف عليه ومعرفته ووضعه في منزلته من حيث درجة الثبوت ورد الباطل منه.

(٣) Daniel Dennett. Darwin’s Dangerous Idea. p. 21.

الخندق!

دع العالم يحارب، أما النمسا السعيدة فتتزوج[1].. وهكذا! فقد خلق الله رجالًا للحرب ورجالًا للدّعة، رجالًا يهجون بكلماتٍ مؤنثة، ورجالًا يفرحون بابتسامةٍ متحفِّزة، رجالًا يرون في العقائد المضادة فرصةً للتزاوج، ورجالًا يرون فيها مادة حربٍ متأججة، رجالًا تُقارب، ورجالًا تحارب، رجالًا تعضلهم مجابهة مخالفٍ يعقل استحالة المزاوجة، ورجالًا يعضلهم إقناع المتزوجين أن الزواج ليس حرامًا، ولكنْ ثمّ وقتٌ للحرب ووقتٌ للمقاربة!

وشأن غالبيّة الملحدين مع العلم كشأن جمهور الشعراء مع الحرب؛ قولٌ بلا فعل، ودعوةٌ من غير تجربة، وحماسةٌ لا

(١) كان نجاح الأسرة الحاكمة في النمسا مبنيًّا على زواج الأمراء والأميرات ـ ولو في سن الطفولة ـ لملوك وأمراء وأميرات الدول والمقاطعات الأخرى، وعلى رأس الذين نجحوا في توطيد ملكهم بهذه الطريقة الإمبراطور ماكسيميليان الأول وفي عهده وصفت النمسا بهذا الوصف.

يصحبها خطر، أيدٍ ناعمة، ووجوهٌ لم تعرفها الشمس، وأقدامٌ لا تعرف السعي، وتصورهم الخيالي للعلم الطبيعي الذي يسوّغ إلحادهم؛ كتصور الشعراء للحرب التي تليق بالقارئ المتأنّق، وأكثرهم مقلدٌ تحدوه حماسة الجهّال، وقليلٌ منهم يعلم، وليس فيهم من علِمَ وتيقّن!

إنّ العلم الطبيعي لا يمثل بالنسبة لغالبية الملحدين أكثر من حفرةٍ يتخندقون فيها، فإن واجهتهم إشكالاتٌ فلسفيةٌ فسوف يمنّون أنفسهم أنّ العلم الطبيعي سيحلُها ولو بعد حين، وحتمًا سيأتي يومٌ يحل فيه العلم محل الإيمان، ويفك شفرة كافة الظواهر الخارقة للعادة والمخالفة لمجرى الطبائع، وطبعًا فهذه الروحانيات التي يشتاقون إليها ليست إلا مظهرًا من مظاهر ضعف أثر العلم الطبيعي في عقولهم، بل ربما تمنّوا لو أمكّنهم العلم من آلة تقضى على التديّن في قلوب المؤمنين!!

سترى في الملحدين من يدّعي الإلحاد بناءً على نظرياتٍ علميةٍ، وعندما تدعوه للحوار في هذه النظريات سيثير عجبك أنّه لا يعرف عنها شيئًا من الجهة العلمية، فضلًا عن أن يعرف كيفية الاستدلال بها فلسفيًّا على إلحاده، ولا تقف الحيلة النفسية عند حدّ رسم ملامح علاقة الملحد بالعلم الطبيعي، حتى يدعي ملء فراغه المعرفي بما لا يفهمه من النظريات العلمية، بل يمتد احتياله على نفسه ليملأ فراغه الروحيّ بالنظريات التي لا يفهمها، لتساعده في تمالك نفسه إزاء مصائب الحياة ومصيبة الموت!

في هذا السياق قام باستيان روتجنز وآخرون بعدة تجارب نفسيةٍ ميدانية، وجد من خلالها أن استشعار المرء التحكم في العالم من حوله، قد يكون داخليًّا بقدرته على التحكم في حياته، أو خارجيًّا بالركون لمؤسسات الدولة أو عن طريق الاعتقاد الديني، وجدَ باستيان ورفاقه أنّ هذا الشعور بالتحكم يمكن أن يولده العلم الطبيعي والاعتقاد بالتقدم كذلك، وذلك من خلال التصديق بنظرياتٍ تمنح العالم من حولنا صورةً من صور الترتيب المفهوم! كما وجد باستيان في مجموعةٍ أخرى من التجارب أنّ الخوف من الموت، والجزع أثناء المِحن يقلّ بالاعتقاد بالتقدم العلمي[1]!

إنّ التباين الفجّ المتكرر بين الموقف المتشكك للمتخصصين في العلم الطبيعي وموقف عامة الملحدين المتيقّن، يورثك يقينًا أنّ الرافد الأساسي في إلحاد هؤلاء هو العاطفة، تلك العاطفة التي أعمته عن ملاحظة التشكك الملازم لحديث علماء الطبيعة،

---

(١) هذه مجموعة من أبحاث باستيان روتجنز في العامل النفسي للاعتقاد بالتقدم العلمي ومتابعة النظريات العلمية:

Rutjens, B. T., van der Pligt, J., & van Harreveld,F. (2009). Things will get better: The anxiety-buffering qualities of progressive hope. *Personality and Social Psychology Bulletin,*35.535-543.

Rutjens, B. T., van Harreveld, F., & van der Pligt, J. (2010). Yes we can: Belief in progress as compensatory control. *Social Psychological and Personality Science,*1, 246-252.

Rutjens, B. T., van der Pligt, J., & van Harreveld, F. (2010). Deus or Darwin: Randomness and belief in theories about the origin of life. *Journal of Experimental Social Psychology,*, 46, 1078-1080.

Rutjens, B. T., van Harreveld, F., van der Pligt, J., Kreemers, L. M., & Noordewier, M. K. (2013). Steps, stages, and structure: Finding compensatory order in scientific theories. *Journal of Experimental Psychology: General,* 142, 313-318.

وحجبت عنه رؤية الفلسفة الكامنة في ثنايا العلم الطبيعي وأصوله، ومنعته من متابعة مواطن قوة النظريات وضعفها، وأورثته يقينًا جازمًا بالإلحاد بناءً على نظرياتٍ لا يملك واضعوها أنفسهم هذا اليقين تجاهها! هذا التباين الفجّ يجعل من دعوى وجود إلحادٍ علميٍّ خالصٍ طرحًا غير مقبول!

نعم أخي المسلم! على مستوى تجريد الأفكار ـ لمصلحة المُدارسة ـ يمكن تقسيم الإلحاد إلى عاطفيٍّ وعلمي(١)، لكن عند النزول لأرض الواقع ـ لمقام المُناصحة ـ فينبغي أن يُعلم أن تلقي الملحد للقضايا العلمية يسبقه استعدادٌ نفسي، ويؤكده قبولٌ عقليٌّ ونفسي، ولذلك فيجب الاستعداد لمُغالبة هذا الشق النفسي، ببيان الشق الفلسفي في تأصيل المسألة محل البحث، والجانب الخلافي في طرحها، والاحتراز بالشكّ اللازم في قبولها! ولذلك فالمقصود بمراعاة الجانب النفسي عند المتأثرين بالقضايا العلمية لا يمكن أن يتحقق دون الإحاطة بالنظرية العلمية وأصولها وطريقة عرضها، بالإضافة للنظر في الأسباب النفسية الأولية التي ساعدت على الوقوع في الإلحاد!

---

(١) في رسالةٍ بعنوان «خطة معرفية للعمل على ملف الإلحاد»، نُشرت كهدية مع العدد الرابع من مجلة حراس الشريعة الالكترونية، قلتُ: «يُمكن تقسيم الإلحاد من حيث دافعه إلى نوعين كبيرين، أولهما الإلحاد النفسي وثانيهما الإلحاد العلمي، وقد ينفرد الأول أما الثاني فلا ينفرد أبدًا، ولكلّ منهما طريقته في الطرح، وأسلوبٌ خاصٌّ في التعامل، وعليه فالتفريق بينهما مهم، وهو ـ مع قليلٍ من الخبرة والذكاء ـ سهلٌ يسير».
https://alhorras.wordpress.com/2013/06/11/4/
http://www.saaid.net/book/open.php?cat=105&book=11518

أمّا الملحد! فليجمع أمره، ولينظر في شأن نفسه، فهو أدرى الناس بها وبسرّها، وليسأل نفسه: أأنا حقًّا أعرف هذه النظرية العلمية؟! أأنا أعرف تاريخها وحاضرها؟! أأنا أعرف كيف بدأت وكيف تغيّرت وإلى أين يتجه البحث فيها؟! أأنا أعرف مواضع الإشكال والثغرات فيها؟! أأنا أعرف الفلسفة التي بُنيت عليها؟! أأنا أعرف درجتها من القوة والثبوت؟! أأنا رجلٌ صادقٌ يقول «لا أدري!» حيث لا أدري؟! أأنا رجلٌ منصفٌ يحكم بما يعلم دون ظلم وحيف؟! أأنا رجل حكيمٌ ـ كما أدعي ـ أبني إلحادي على العلم، أم أنا متهورٌ ـ كما يدّعون ـ يبني كفره على ظنٍّ لا علم له بحقيقته؟!! فلينظر وليصدق نفسه النصيحة، ولينظر كيف يرجع، كفورًا عنيدًا أم سائلًا متحيّرًا!!

ثقةٌ غير متبادلة!

«غالبًا ما تكون الموضوعية هي أول ضحيةٍ عند خوض العلماء التجريبيين معركةً متعلقةً بالقضايا الاجتماعية»

ويليام برود[١]

وضع ويليام أوكام قانونًا في التعامل مع الفرضيات العلمية، حاصله منع تعدد الفرضيات والمسلّمات والمقدمّات ما لم يكن لذلك داعٍ، وفي حال تساوت فرضيتان في قوة التأثير فإن الرجحان يكون لأخصرهما وأيسرهما، فيما عُرِف بعدَ ذلك باسم «شفرة أوكام» "Parsimony"[٢]، وخلافًا للسائد في عصره فإنّ أوكام رفض تأكيد معاصريه على أنّ الطبيعة تختار الطريق الأيسر، فإنّ الإلٰه يستطيع خلق ما يشاء ما لم يكن تناقضًا، ولذا فقد حصر أوكام إطار عمل شفرته في التعامل مع الترجيح بين النظريات التي تصف الطبيعة، دون أن يعني هذا الترجيح ـ عند أوكام نفسه ـ أن

---

(١) William Broad and Nicholas Wade. Betrayers of the truth. Simon & Schuster. New York. p. 220.

(٢) Gracia JJE, Noone TB. A Companion to Philosophy in the Middle Ages. Blackwell Companions to Philosophy. P: 696-712.

الطبيعة تعمل على هذه الطريقة بالضرورة[١]، ومن يقف على الصورة الكاملة لفكر أوكام يدرك مدى تهور الملحدين في استعمال «شفرته» في ترجيح أمورٍ والجزم بقضايا لم يكن أوكام نفسه ليرضاها!

اللطيف في شفرة أوكام هذه أنّها مرّت على كثيرٍ من العقول دون أن تبعث سؤالًا، سؤالًا عن سرّ قبول هذه الشفرة والموافقة على مضمونها، لماذا يجب أن تكون قلة الفرضيات قرينةً على الصواب؟! هل هذه الشفرة مرجعها في الحقيقة إلى «كون الإنسان ناقصًا ضعيفًا، كلما كثُرت فرضياته في إطار النظرية التفسيرية الواحدة، قلت احتمالية أن تصيب تلك الفرضياتُ الحقّ في مجموعها»[٢]؟! هل يرى العلماء أنّ من علامات الصواب أن يقل تدخل العقل البشري إلى الحدِّ الأدنى؟!

حلقةٌ أخرى من الحلقات المفقودة في علاقة الملحد بالعلم التجريبي، تتمثل في إدراك طريقة إدارة ونقل الأبحاث العلمية والدور الرئيس للعنصر البشري فيها، فالصورة الساذجة التي تجزم أنّها تستحوذ على عقل الملحدين من خلال الحوار معهم، هي صورةُ عالمٍ يخرج من معمله بالرداء الأبيض، ليعلن نتيجة بحثه للعالم، يحيط به جمعٌ من زملائه العلماء الذين صدّقوا وأمّنوا

---

(١) Losee J. A Historical Introduction to the philosophy of Science (Fourth edition). Oxford University Press. Page 30-34.

(٢) أبو الفداء ابن مسعود، آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين، دار الإمام مسلم: صفحة ٤٣.

على اكتشافه، وقاموا بإعادة تجربته عدة مراتٍ قبل أن يمنحوه الموافقة، صورةٌ ساذجةٌ لا ينساق وراءها إلا رجلٌ لا يربطه بالعلم التجريبي إلا أخبار الجرائد!!

تعتبر مراجعة الأقران Peer-review هي الآلية الأساسية في عملية البحث العلمي، فعندما ترسل بحثًا لأحد المجلات العلمية Scientific Journals يستقبل المحرر Editor بحثك الذي تم إرساله Submission، ويلقي عليه نظرةً مبدئيةً فإن وجد أنّه مناسبًا للمجلة أرسله للمراجعة Review، تتم مراجعة البحث بواسطة مراجعين غير معروفين لصاحب البحث، ويتم اختيار المراجعين عن طريق قدرتهم على تقييم موضوع البحث وفق سمعتهم العلمية أو الأبحاث التي قاموا بنشرها، يكون عدد المراجعين في الغالب اثنان أو ثلاثة وقد يقل العدد عن ذلك أو يزيد، يرسل المراجعون رأيهم في البحث على شقين، شقٌّ يُعرض على صاحب البحث Reply to the author يبين له نقاط الضعف في بحثه، وشقٌّ يرسل للمحرر Reply to the editor ولا يراه صاحب البحث، يبين له فيه رأيه في قيمة البحث وهل هو مقبول Accepted أو مرفوض Rejected أو يحتاج لمراجعة كبيرة Major Revision أو يحتاج لمراجعة بسيطة Minor Revision، يستقبل المحرر المراجعة من أكثر من مُراجِع، ويبني قراره على حسب اقتراحاتهم ومراجعاتهم، فينشر أو يرفض أو يطلب من صاحب البحث مراجعة البحث وتعديله، وفي حال تعديل البحث يُعرض مرةً أخرى على المراجعين ثم يُقبل أو يُرفض!

العملية الثانية: التي تظهر فيها مراجعة الأقران هي المؤتمرات العلمية Scientific Conferences، غالبًا ما تكون المؤتمرات العلمية منظمةً بواسطة جمعيةٍ علميةٍ Scientific Committee أو مجتمعٍ علميٍّ Scientific Society أو منظمةٍ علميةٍ Scientific Organization أو ما شابه، يستمد المؤتمر المنعقد قوته واسمه من قوة اسم الجمعية العلمية التي تنظمه، يُعلَن عن مكان المؤتمر وموعده، ويُعلَن عن قبول تقديم الملخصات البحثية Abstracts، يتم تقديم الأبحاث ويقوم المراجعون بتقويمها، فمنها ما يُقبل لتقديمه في صورةٍ شفويةٍ Oral presentation أو في صورةٍ مكتوبةٍ Poster!

المسألة الثالثة: التي تلعب مراجعة الأقران فيها دورًا رئيسًا هي تمويل المشروعات البحثية Research Projects Fund، تعلن هيئةٌ مانحةٌ ـ دوليةٌ أو محليةٌ ـ عن منحةٍ أو دعمٍ ماديٍّ لمشاريعَ بحثية، تحدد الهيئة المانحة متطلبات المشاريع البحثية المقدمة من جهة موضوعها وأهدافها وميزانيتها وإطارها الزمني وما شابه، يتقدم الباحثون بمشاريعهم البحثية للهيئة المانحة، يقوم المراجعون ـ كأفرادٍ أو كلجنةٍ علمية ـ بالنظر في هذه البحوث وتقويمها، ويتم اختيار المشروع أو المشاريع الفائزة بناءً على هذه المراجعة، هذه هي الأنشطة الثلاثة التي يتنافس فيها الباحثون العلميون بالإضافة للتدريس الأكاديمي، وهي أنشطة نشر الأبحاث العلمية والتقديم في المؤتمرات والحصول على منح تمويل المشاريع البحثية وكلها تعتمد على مراجعة الأقران، والأقران هم زملاء هذا الباحث

المتقدّم في المجال إلا أنّهم في الغالب أكبر منه سنًّا أو أقوى سمعة أو أكثر خبرة!

تبقى المسألة الأخيرة التي تعتمد على المراجعة والتقويم البشري وإن كان المراجع لجنةً من الباحثين، ألا وهي مسألة الاختيار للجوائز العلمية Scientific Awards، يطرح روبرت ميرتون مشكلة الكرسي رقم (٤١) بعد تحليلٍ للقاءاتٍ مع الحاصلين على جائزة نوبل وغيرها من المذكرات واليوميات والرسائل والسير الذاتية لغيرهم من العلماء، حيث كانت «الأكاديمية الفرنسية حددت أعضاءها بأربعين عضوًا وهؤلاء هم الذين تستحق أسماؤهم الخلود، هذا التحديد للأعداد جعل من المتحتم ـ بالطبع ـ استبعاد العديد من الأفراد الموهوبين الذين كتبوا خلود أسمائهم بأنفسهم، ومن الأسماء المشتهرة التي احتلت المقعد رقم ٤١ أسماء بوزن ديكارت وباسكال وموليير و. . . . إلخ»[١]!

ثم يذكر ميرتون أنّ مشكلة عدم تكريم من يستحق التكريم، ترجع إلى «الخطأ في الحكم بما يؤدي إلى اختيار أفرادٍ أقل موهبة واستبعاد أفرادٍ أكثر موهبة»، أو يرجع إلى «تحديد عددٍ محدودٍ في القمة ليُعترف بفضلهم»، ويرى أنّ نظام الجوائز الحالي لا يعتمد على متابعة الفائز بها، فقد يحوز الجائزة ولا ينتج بعدها شيئًا، ولكن طالما حصل على الجائزة مرة فهو حائزٌ عليها للأبد، كما يرى أنّ من عيوب نظام الجوائز الحالي أنّه يؤسس للطبقية في

---

(١) Merton RK. The Matthew Effect in Science: The reward and communication systems in science are considered. Science 1968; 159(3810): 56-63.

عدم تكافؤ الفرص؛ لأنه يتيح للفائزين بالجوائز فرصًا لا تتاح لغيرهم، كما أنّ الجوائز تكون غالبًا من نصيب المشاهير وتترك مغمورين لهم نفس الدور العلمي، أو كما يقول أحد الفائزين بنوبل: إن العالم يميل إلى «تشريف أولئك المشهورين بالفعل»![١]

ويحلو لي في هذا السياق أن أذكر قصة الطبيب إجاز مونيز Egas Moniz؛ كنموذج على إمكانية وقوع الخطأ في الاختيار للجوائز، حتى في أقوى الجوائز العلمية وأعلاها أثرًا في الوسط العلمي، عمل إجاز مونيز على علاج الاضطرابات السلوكية والعقلية بجراحات على الفص الأمامي من المخ frontal lobotomy، وادعى أنّ العلاجَ فعالٌ للغاية بناءً على شهاداتِ من تحسنت حالاتهم، وراجت طريقته العلاجية في الوسط الطبي كله، حتى حصل على جائزة نوبل في الطب وعلم وظائف الأعضاء سنة ١٩٤٩م، وعُولج بهذه الجراحات آلاف المرضى إلى سبعينات القرن الماضي، وكانت النتيجة الآلاف من العاهات والإعاقات دون تحسنٍ في اضطرابات العقل والسلوك، والآن يُطالب أقرباء هؤلاء الضحايا بسحب جائزة نوبل من هذا الطبيب المتعجِّل؟!

أخيرًا.. يعتمد تقويم المجلات العلمية على ما يعرف باسم معامل التأثير Impact factor، هذه هي الطريقة الأكثر شهرةً واستعمالًا لتقويم المجلات العلمية وترتيبها، ومعامل التأثير يعتمد

(١) السابق.

على عدد مرات الإحالة لمقالات المجلة والاستشهاد بها Citation في فترةٍ معينةٍ (أ) بالنسبة لعدد مقالات المجلة المنشورة في ذات الفترة (ب) بعد استبعاد الاستشهادات الواردة في مقالات المجلة نفسها Self citation؛ أي: أن معامل التأثير = (أ)/(ب)، فلو أن مجلةً نشرت مائة مقالة في سنة ٢٠١٥م مثلًا، وتم الاستشهاد بمقالاتها عشر مرات في ذات السنة، يكون معامل التأثير هو ٠,١، وكلما زاد معامل التأثير كانت المجلة أقوى!

يعد معامل التأثير هو أقوى وأشهر طرق تقويم المجلات العلمية، بالرغم مما توجهه إليه بعض الأصوات من انتقادات، وهو كما ترى يعتمد على الاستشهاد بالمقالات كقرينةٍ على قوة المادة العلمية، رغم أن كثرة الاستشهاد لا يلزم منها القوة وإنما يلزم منها الشهرة فحسب، وقد يتبع بعض المحررين في المجلات العلمية سياساتٍ تعمل على زيادة معامل التأثير، عن طريق قبول الأبحاث التي يغلب على الظن أنها تحدث أثرًا أكبر، وأن الاستشهاد بها سيكون أكثر، مع رفض الأبحاث التي لا يُتصور كثرة الاستشهاد بها مثل التقرير بحالة Case report فكثيرٌ من المجلات العلمية ترفض نشرها لعدة أمورٍ منها ضعفها في هرم الأدلة وبالتالي ضعف الاستشهاد بها!

من أجل هذا الخلل الناجم من تصنيف المجلات العلمية وفق معامل التأثير، والأثر الذي يتركه طلب علو معامل التأثير في سياسة النشر، فقد أعلن عالم الأحياء راندي شيكمان الحائز على جائزة نوبل في الطب وعلم وظائف الأعضاء لعام ٢٠١٣م،

مقاطعة معمله للنشر في المجلات العلمية الكبرى مثل Nature, Cell and Science لأنّها «تشوّه عملية البحث العلمي وتمثّل استبدادًا يجب كسره.. وأنّ الضغط للنشر فيها يدفع الباحثين لاختصار الوقت والجهد والبحث في المجالات العلمية الشائعة بدلًا من البحث في الموضوعات الأكثر أهمية.. وزادت المشكلة بالاستعانة بمحررين ليسوا علماء حقيقيين وإنّما محترفي تحريرٍ يفضلون الدراسات التي تُحدث إثارة»[١]!

بعد هذه النظرة السريعة لا بد أنّك وقفت على الدور الذي يلعبه العنصر البشري في المراجعة والاختيار، والدور الذي يلعبه العنصر البشري في رفع معامل تأثير المجلات، يقول أرنولد ريلمان: «يبدو أنّه من التناقض أن يعتمد البحث العلمي على الثقة الشخصية، في حين أنّه أكثر أنشطة الإنسان تساؤلًا وتشككًا من عدة أوجه، ولكن الحقيقة أنّه بدون هذه الثقة لا يمكن لمشروع البحث العلمي أن يعمل.. البحث العلمي هو نشاطٌ تعاونيٌّ يتطلب من ممارسيه أن يثقوا في نزاهة زملائهم»[٢]، نعم.. على محرر المجلة العلمية أن يثق في مراجعي المقالات، وعلى أصحاب المقالات أن يثقوا في المحررين، وعلى المراجعين الثقة فيما يدّعيه أصحاب الأبحاث والمقالات، حلقةٌ مفرغةٌ لا يكسرها إلا خطأٌ فجّ من أحد الأطراف، يؤول إلى فضيحةٍ في الوسط

(١) Nobel winner declares boycott of top science journals (visited on 14-2-2015). http://www.theguardian.com/science/2013/dec/09/nobel-winner-boycott-science-journals

(٢) John Hardwig. The role of trust in knowledge. The Journal of Philosophy 1991; 12: 693-708.

العلمي، وما عدا ذلك فغالب حاله أن يمر دون إشكال!

تخيّل أنك تعمل في مؤسسةٍ طبيةٍ ضخمة، وقمت باختلاق قاعدةِ بياناتٍ مختَرَعةٍ لمئاتٍ من المرضى، تشتمل على تفاصيلَ لأحوال المرضى قبل وأثناء وبعد نوعين من العلاج، ثمّ حصلتَ على موافقة الجامعة ـ من اللجنتين الأخلاقية والعلمية ـ التي تنتمي لها على جواز إجراء البحث، واستعنتَ بأحد المتخصصين ليجري لك الإحصاء الطبي لقاعدة البيانات، لتقف على نتيجة المقارنة بين العلاجين المزعومين، ثم كتبت مقالةً تصف فيها نتائج هذا «البحث»، وأرسلتها لإحدى المجلات مع التوقيع على نقل حقوق الملكية الفكرية Copy right transfer، والتأكيد على عدم وجود تضاربٍ في المصالح Conflict of interests، ثم قام محرر المجلة بإرسال مقالتك لأحد المراجعين، فراجع تصميم البحث والإحصاء وصياغة المقال، ثم طلب بعض التعديلات فراجعتَها، ثم قُبِلت المقالةُ ثم نُشرت. . تخيّل!!

تخيّل ثم اعلم أنّ هذا الذي ملأ عليك خيالك وأطرقت فيه عيناك ليس أمرًا مستحيل الحدوث، فإن يكن اختلاق قاعدة بيانات أمرًا نادرًا جدًّا فإنّ تعديل قاعدة البيانات لشتى الأغراض قد يقع، وكذلك التلاعب الإحصائي للحصول على ما يتماشى مع النتائج المتوقعة مشهود، وموافقة لجنة الأخلاقيات وعدم تضارب المصالح قد يكون ادعاءً لا حقيقة وراءه، وهذا المُراجِع قد يرفض بحثك وهو أقوى كثيرًا من بحثٍ سابق قد وافق على نشره لأسبابٍ عرقية أو عنصرية أو هوًى عارض، وهذا المحرر قد

يرسل بحثك لمراجِعٍ يُعلم منه تعنته وتشدده بينما يرسل أبحاث أبناء بلده للمراجعين المتساهلين، يعلم هذا من مارس نشر المقالات العلمية بنفسه، أو تابعَ ما يجري في هذا المجال من وضع مؤلفين بعينهم على قائمة الممنوعين من النشر، أو سحب بحوث منشورة "Retraction" لخللٍ يظهر بعد النشر كالانتحال Plagiarism أو لتزوير موافقة لجنة الأخلاقيات أو لإرسال البحث إلى مجلتين معًا Double submission أو غيرها من أسباب سحب البحث بعد نشره، بما يدل على عدم الموثوقية المطلقة في عملية النشر نفسها.. وكثيرًا ما أقارن بين نظام النشر العلمي ونظام قبول الأخبار في علم الحديث فيصيبني العجب ممن يزعمون أفضلية الأول على الثاني، بل منهم من يسخر من اهتمام علماء الحديث بالعنعنة والإسناد!

وُفِّقتُ لنشر بحثٍ عن خبرة مركز جراحة الجهاز الهضمي بجامعة المنصورة مع أكياس القنوات المرارية في المجلة العالمية لأمراض الجهاز الهضمي(١)، وهي مجلةٌ ذات معامل تأثير عالٍ نسبيًّا بالنسبة للمجلات المختصة بالجراحة وأمراض الجهاز الهضمي، بعد فترةٍ قصيرةٍ فوجئت بعدة مجلاتٍ تراسلني على بريدي الإلكتروني تطلب منّي مراجعة عدة أبحاث عن أكياس الكبد والقنوات المرارية، وبالفعل قمتُ بمراجعة هذه الأبحاث وإبداء الرأي فيها، لكن التساؤل الذي راودني: ما علم هؤلاء

(١) Gadelhak N, Shehta A, Hamed H. Diagnosis and management of choledochal cyst: 20 years of single center Experience. World J Gastroenterol 2014 June 14; 20(22): 6701-7078.

المحررين بي إلا بريدي الإلكتروني الموجود على البحث المنشور؟! ماذا لو كنت مدعيًا متعالمًا عنصريًّا لا أصلح لمراجعة هذه الأبحاث؟! ألا يحتاج عالم النشر العلمي هذا إلى شيءٍ يشبه «علم الرجال» عند المسلمين يرصد الضعفاء والمجروحين ومتروكي الرواية؟!

تجتاحني رغبةٌ عارمة في دعوة أحد الملحدين إلى حضور أحد المحاضرات التي تشرح أحد كتب السُّنَّة النبوية، ليس طمعًا في هدايته بالدرجة الأولى ولكن ليقف بنفسه على الدقة المتناهية في تناول رجال الإسناد وأجزاء المتن، فهذا الراوي ثقةٌ ولكنه لم يعاصر ذاك الذي روى عنه فالسند ـ إذن ـ فيه انقطاعٌ وضعف، أما فلانٌ فاختلط بعد أن حُرقت كتبه وهذا الحديث مما رَوى بعد الاختلاط، وذلك مدلسٌ ولم يصرّح بالسماع، وهذا شيعيّ والمتن في فضائل أهل البيت فتضعُف روايته «لتضارب المصالح» ما لم يعضدها راوٍ غير متهم، هذا بعيدًا عن استقصاء الروايات والحكم عليها مجتمعة؟!

يرى ويليام برود ونيكولاس واد أن الغايتين اللتين يعمل من أجلهما العلماء التجريبيون، هما الوصول للحقيقة وإثبات دورهم في الوصول لتلك الحقيقة، «ولكن في بعض الأحيان يحصل نزاعٌ بين الغايتين، عندما لا تتطابق نتيجةُ تجربةٍ مع المتوقع منها، وعندما تفشل نظريةٌ ما في الفوز بالقبول العام، سيُقابل العالِم مجموعةً من الإغراءات تتراوح بين تحسين النتائج المستقاة من بيانات عمله بشتى الطرق وصولًا إلى الغش الصريح، وبعض

أولئك الذين يلجؤون للغش يفعلون ذلك لإقناع زملائهم المعارضين بنظريةٍ يرون أنها صحيحة، تلاعبَ نيوتن بمعامل التصحيح لكي يرد على منتقدي نظريته عن الجاذبية، وإحصائيات مندل عن نسب نبات البازلاء مناسبة أكثر من اللازم بما يشكك في صحتها، ميليكان كانَ فجَّ الانتقائية في اختيار المعلومات ليصف شحنة الإلكترون، لو أن التاريخ كان متسامحًا مع أمثال هؤلاء العلماء، فليس ذلك إلا لأنّه قد اتضح أنّ نظرياتهم صحيحة، ولكن من الناحية الأخلاقية فلا فرق بين إسحاق نيوتن الذي كذب من أجل الحقيقة واتضح أنّه مصيب، وكيرلس بورت الذي كذب من أجل الحقيقة واتضح أنّه مخطئ»[1].

يقول نيل تايسون: «وشأن كافة مساعي التقدم البشري، يعمل المنهج العلمي على نحوٍ نظريٍّ أفضل من التطبيق العملي، فلا يتشكك جميع العلماء في بعضهم البعض بالفعالية المطلوبة، ويمكن للحاجة لإثارة إعجاب العلماء الذين يشغلون مناصبَ مؤثرةً ـ والذين قد يقعون أحيانًا تحت تأثير عوامل بعينها تغيب عن إدراكهم ـ أن تعيق قدرة العلم على التقويم الذاتي لكن على المدى البعيد لا يمكن للأخطاء أن تستمر؛ لأن علماء آخرين سوف يكتشفونها ويستفيدون من كشف هذه الأخطاء في رفع شأنهم كعلماء»[2]!. . فماذا لو أنّ هذه القضية التي تدّعي أنها

(١) William Broad and Nicholas Wade. Betrayers of the truth. Simon & Schuster. New York. p. 212-213.

(٢) نيل تايسون ودونالد سميث: البدايات، ١٤ مليار عام من تطور الكون، ترجمة: محمد فتحي خضر، صفحة ١٣ ـ ١٤.

سبب إلحادك، ستكون سببًا في رفعة شأن أحد العلماء حين يكشف خطأها بعد موتك بقليل؟! ماذا لو بنيتَ إلحادك على «إنسان بلتداون» ثم اتضح بعد موتك أنّه كان كذبةً وفضيحةً في الوسط العلمي؟!

الأدهى من تأخر اكتشاف خطأ نظريةٍ ما لما بعد موتك، هو أنّ هذا الاكتشاف غالبًا ما يكون وليد الصدفة وليس نتاجًا لآليات العملية العلمية التجريبية نفسها، «إنّ الغش وخديعة النفس تخلقان معلوماتٍ غير صحيحة، تمثل تحديًا لآليات التصحيح الذاتي في العلم التجريبي، وخصوصًا في التأكد من النتائج العلمية، وفي كثير من حالات الغش التي ذكرناها فإنّ إعادة إنتاج التجربة لا يُلجأ إليه إلا كملاذٍ أخير، وغالبًا ما يكون لتأكيد شكوك أثارتها أسبابٌ أخرى، إعادة إنتاج التجارب ليس جزءًا منتظمًا في العملية العلمية، والسبب بسيط: ليس هناك شهرةٌ تُكتسب من إعادة إنتاج تجربة شخصٍ آخر»[1]، إنّ العلم الطبيعي تفعيل ضوابط قبول الأخبار للتحقق من «سند البحث» كما يحتاج تفعيلًا أكثر لإعادة إنتاج التجارب Reproducibility للتحقق من «متن البحث»!!

إن الانحياز والخطأ الذي يعتري العملية العلمية أمرٌ لازمٌ يدركه كلُّ ممارسٍ لهذا العلم، إنّه أمرٌ داخليٌّ لازم، أن يبحث العالم في مهنته عما يحقق الاتساق مع معتقداته الاجتماعية والدينية وغيرها، حتى ولو لم يتعمد الكذب والغش والخداع، يقول

---

(١) William Broad and Nicholas Wade. Betrayers of the truth. Simon & Schuster. New York. p. 215.

التطوري المعروف ستيفين جاولد: «إن طرق تعلّمنا عن العالم تتأثر بقوةٍ بأفكارنا الاجتماعية المسبّقة، وبطرق التفكير المنحازة التي لا بد أن يطبقها كل عالمٍ على أية مشكلة، إن الصورة النمطية للطريقة العلمية الموضوعية تامة العقلانية يتعاطاها أفرادُ العلماءِ كماكيناتٍ آليةٍ منطقيةٍ ليس إلا أسطورةً لخدمة المصالح الذاتية»(١)!

إنّ هذا الهامش من الانحياز والخطأ اللازم في العلم الطبيعي، يتضاعف عندما يتدخل العلماء الطبيعيون في قضايا خارج اختصاصهم، ليتدخل أحدهم محاولًا نفي وجود الخالق ﷻ من خلال نظرياته وفرضياته عن أصل الكون، أو لينفي التصميم في الخلق بناءً على ملاحظاته الشخصية، وتكون الموضوعية هي أول ضحيةٍ بالفعل!

إن تغلغل الاعتماد على الثقة في العنصر البشري في العلم التجريبي أمرٌ حتميّ اللزوم، في كافة مراحل التقعيد والتنظير والتجربة والنشر والعرض، يدخل هذا ما يدخل كافة الأنشطة البشرية من غلبات الهوى ونزوات الشهوة والشهرة، فمن أين لك ـ أيها الملحد ـ أن تجزم أنّ هذه المجموعة من العلماء لا تركن إلى الباطل في هذه الفترة من الزمان أو في كافة الأزمان؟! أليس هذا من التعصب الأعمى الذي تدّعي أنك تحاربه؟! ولو أنّك وعيتَ وصدقتَ لعلمتَ مدى الجرأة في ادعاء قطعية العلم الطبيعي!! ولو أنك وعيتَ وأنصفتَ لكنتَ متشككًا لا تدري على أيِّ شيءٍ تبني إلحادك المزعوم؟!

---

(١) S.J. Gould, Natural History 103(2):14,1994.

بمكيالين!

حاورتُ يومًا أحد المدافعين عن نظرية التطور، ولما وقفتُ على عدمِ فهمِه طبيعةَ الأدلة وقواعدَ الترجيح، أردتُ أن أبيّنَ له هذا الخللَ، فكان من حوارنا الآتي:

ـ ما الدليل على أنك ابن أبيك الذي نُسبتَ إليه؟!

ـ هذا يأتي باختبار الحامض النووي والتشابه بيني وبين والدي!

ـ هل كل من تشابه مع والدك في الملامح يكون أخًا لك وابنًا لأبيك؟!

ـ لا!

ـ فهل قمتَ باختبار الحامض النووي؟ هل قام به والداك بعد ولادتك وأطلعوك على نتيجته؟!

ـ لا!

ـ إذن ما هو الدليل الذي تتصرف من خلاله وتعلن أنك ابن أبيك الذي نُسبت إليه؟!

ـ . . . .

ليس هذا هو الوحيدُ الذي تصدَّرَ لنشرِ نظريةِ التطور، زاعمًا أنه يملكُ الأدلة العديدةَ على نسبةِ الإنسان الأول للقرود، بينما هو لا يعرف السبيلَ في إثبات نسب نفسه، ويعجز عن ذكر دليلٍ واحدٍ يعتمد عليه في نسبِه لأبيه!

وقد طالبتُ أحدَهم بتعريف البديهة، فذكرَ أنها «مسلمةٌ غير مبرهَنةٍ يُعتمد عليها في الاستنتاجات»، ولما ناقشتُه في هذا التعريف قليلًا، كيف نسلّم بشيءٍ لم تتم برهنتُه؟ وكيف نعتمد على مسلمةٍ غيرِ مبرهنة؟ وما الفرقُ بين البديهة والفرض في هذا التعريف؟ بل ما الفرق بينها وبين الخرافة، فالخرافة مسلمةٌ لا دليل عليها يعتمد عليها المخرِّفون في استنتاجاتهم، فأي فرقٍ عندك؟ حينئذٍ ساد صمتُه أرجاء المكان!

وهذا حدثتُه عن الإيمان، فأخذَ يبينُ لي أن هناك فرقًا بين الرأي والحقيقة المطلقة، وبالاسترسال معه ظهرَ أن الشيءَ الوحيد الذي يراه حقيقةً، هو أنّ الواحدَ والواحدَ يساويان اثنين، وذاك يخبرني أن الفيلم ـ وذكر فيلمًا أمريكيًّا نسيتُ اسمه ـ أثبتَ بما لا يدع مجالًا للشك أن هذا الوجود خالٍ من أية حقيقةٍ مادية! وأعجب شيءٍ في هذا كلِّه أنه قد دار بيني وبين إحدى الملاحدة حوارٌ عجزت فيه عن إثباتِ وجودِ نفسها من خلال مصادر العلم التي ارتضتها لنفسها ولغيرها، عجزت وانسحبت من الحوار[1]!

---

(١) حوار مع ملحدةٍ سمّت نفسها «باحثة عن الحقيقة» ووضعت موضوعًا في منتدى التوحيد بعنوان «الله لا موجدَ له»، وعندما سألتها عن مصادر العلم التي ترضاها لإثبات قضيةٍ من القضايا، شككت في البديهيات والحسيات والوجدانيات كمصادر =

قد يرى القارئ أنه يحسن بي أن أربطَ هؤلاء بالسفسطة، أو أنقلَ بعض أقوال الشكَّاكين عبر القرون، لأردَّ الإلحاد إلى أصله، وأَصِلَ أذيال الإلحاد برؤوس السفسطة، لكنّي أعتذر للقارئ عن فعل ذلك، فإنّ الإلحادَ لا أصلَ له ولو كان من سفسطة، بل هو كبقعةِ زيتٍ على سطح البحر المحيط، والملحد كذبابةٍ وقعت في هذا البقعة، وظلت كذلك عُمُرَها، حتى هلكت وهي تحسب المحيطَ كلَّه بهذا السواد، فإن لم يكنْ كذلك فإنّه ينبغي له ذلك، على الأقل إرضاءً لغرور الذبابة!

إنّ الإلحادَ كمذهبٍ لا تصحُ نسبتُه للسفسطة، فالسفسطةُ على الأقل تلتمسُ تبريرًا لموقفها، وتحاول أن تسير على نهجٍ واحدٍ ولو نظريًّا، وهاهو بروتاغوراس أشهر المسفسطة القدامى، يقول «أما بالنسبة للآلهة فلا أستطيعُ أن أعلمَ ما إذا كانت موجودةً أم لا»! فهل الإلحاد يعترف أنه مجردُ جاهلٍ لا يدري، عاجزٍ لا يستطيع أن يعلم؟!

وإن كنتُ أنفي أُبُوّة السفسطة للإلحاد، فإني لا أراه بحالٍ ربيبَ المنهج التجريبي، إذ الإلحادُ لم يقُم على ملاحظةٍ أثبتت عدمَ وجودِ إله، واللادينية لم تقُل بإلهٍ لم يرسلْ رسلًا بناءً على

= للعلم، تحسب أنّها بذلك ستقطع الطريق عليّ لإثبات وجود الله تعالى، ولكنّها فوجئت أنّها بذلك تعجز عن إثبات وجود نفسها، وانسحبت من الحوار بعد أن عجزت عن إثبات وجود نفسها، وهذا رابط الحوار بمنتدى التوحيد:

http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?9718-%C7%E1%E1%E5-%E1%C7-%E3%E6%CC%CF-%E1%E5

تجربةٍ سابقة، فالمنهج التجريبي يعجز عن تناول هذه القضايا، فهي لا تقع في مجالِ رؤيتِه المباشرة، ومن اعتمد عليه في ذلك، فهو كمن يريدُ أن يرى بأذنِه، أو أن يمشيَ على عينيه، ولذلك فالمنهج التجريبي يقف هنا ليقول «لا أستطيع أن أعلم!»، فهل الإلحادُ يعترف أنه لا يستطيع أن يعلم؟!

وإن انتقلنا من الإلحاد إلى تناول معتنقيه، فسنجد من شأنهم عجبًا، فالملحد يأخذ بمصادرَ للعلم دون شعور، في حين لا يدري كنهَ تلك التي يعتمد عليها المسلم، أما المصادر التي يعلنُ هو أنه يركنُ إليها، فعند التمحيصِ يظهر أنه لا يعرفُ عن حقيقتها شيئًا، وأنه مشدوهٌ أمامَ الأضواءِ البراقة، مثل فراشةٍ تجذبها شعاليل النيران، وأنه مغيبٌ عن وعيِه مأخوذٌ بالمظهر؛ كطاغيةٍ يوصي أن تصحبه الحاشية إلى قبره، وإنّ جميعَ القرائن والشواهد قائمةٌ على أنّ الملحدَ لا يتصورُ طبيعة العلم الطبيعي، فظنّ فيه ظنًّا عريضًا، وبنى عليه يقينًا لا يفهم أساسه ومبناه!

الملحدُ ـ مثلًا ـ يعتمدُ خبرَ الآحادِ الصادقَ الذي تحفه القرائن، ويبني عليه يقينًا يكاد يفتك بمن يخالفُه فيه، فهو يجزمُ يقينًا أنّه ابن أبيه الذي نُسِب إليه، بناءً على خبرٍ صادقٍ من أمه، حفَّته قرائنُ كعفةِ الأم والشبهِ بالوالد وغير ذلك، وهو كذلك يكتسب ظنّا غالبًا من خبرِ مَنْ لم تتوفر لديه الدواعي للكذب؛ كمثل حاله حين يسألُ أحدَ المارة عن الطريق الذي لا يعرفه، وتراه يعتمد مبدأَ السببيةِ دون تردد، حين يكتشف أن نقودَه قد اختفت، فيجزم بأنها قد سُرقت وإن لم يعرف السارق!

والواقع أنّ تتبعَ مصادرِ العلم التي يأخذُ بها الملحدُ وهو لا يشعر، أمرٌ يطولُ جدًّا لكنّه ـ وهذا عُذرِي ـ يتضح بأدنى تأمل، سواءً لملحدٍ يسعى صادقًا لمعرفةِ الحقيقة، أو لمسلمٍ يسعى لإقامة الحجة عليه، فكم مرةٍ ستجد الملحد يعتمد الأخبارَ أدلةً، سواءً المتواترُ منها والآحاد، وستراه يتبع الفطرة مرارًا، فيمدح الأمانة وإن كان فيها الفقر، ويرى في الصدقِ فضيلةً وإن كانت عاقبتُه الأذى العاجل، وستجده يعتمد على البديهيات دون تردد، ولا يناقش فيها إلا حين يتطرق الأمرُ للتوحيد، وغير ذلك من أمورٍ يسهُل الوقوفُ عليها بقليلٍ من النظر والتأمل!

أما المفارقةُ في موقف الملحد، وتجاهله ما يكتنف العلوم التي يرضاها من ثغراتٍ عديدة، هي أضعافُ ما يتوهمه في علوم المسلمين، لجهلٍ بحقيقة هذه وتلك العلوم جميعًا، هذه المفارقةُ هي التي تستدعي الوقوف عندها، والإطالة في الإشارة لأنواعها، ليتبين لهؤلاء أين هَوَت بهم ظنونُهم، وفي أيةِ هاويةٍ حطَّتهم الأهواءُ الفاسدة!

عن جهلٍ بمعنى التواتر، ودوره في إفادة العلم الضروري، تجدهم يرفضون إيمانَ المسلمِ بقطعيةِ ثبوتِ القرآن؛ بينما يسلّم أحدهم أذنَه طواعيةً لخبرٍ قرأه في مجلةٍ، تنقلُ عن دارسين للأحياءِ يحكُون عن اكتشافِهم حفرية، هذه الحفريةُ قد تساهم في دعم نظريةِ التطور، رغم أنه لم يرَ الحفرية بعينه، فهو يصدّق نقلَ المجلة ويرى أنه لا يتطرقُ إليها جرح، ويعتمد خبرَ الدارسين ويرى أن صدقهم فوق مستوى الشبهات، لكنّه لا يقبل التواتر!

يُنغِض الملحد إليكَ رأسَه استهزاءً، إن سمعكَ تقرأ السُّنَّةَ بالإسناد، فهو لا يعرفُ أهميةَ الإسناد ولا معنى «العنعنة»، ويرى ذلك أخذًا للمعرفةِ من أفواهِ الرجال، ثمّ تراه يفخرُ بما أحرزَه في علومٍ، توافد عليها الرجال تأسيسًا وتنظيرًا ونقلًا، يقول د. جلال أمين وهو متبحرٌ في علم الاقتصاد، يقول: «أعتقدُ أنّ علمَ الاقتصاد منذ نشأتِه وحتّى الآن، تأثرت الفروضُ التي يتخذها كمسلمات، ومن ثمّ النتائجُ التي يستخلصُها من هذه المسلمات، بنظرةٍ معينةٍ للحياة، ورؤيةٍ خاصةٍ أو متحيزةٍ للأمور»! وانظر تفصيل ذلك في كتابه «فلسفة علم الاقتصاد.. بحثٌ في تحيزات الاقتصاديين، وفي الأسس غير العلمية لعلم الاقتصاد»!

وفي الوقت الذي ينسى فيه علومَ الجرحِ والتَّعديل، واهتمامَ المسلمين بتوثيقِ الرواية وتأصيلِ الدراية، يكشفُ الملحدُ جهلَه بكتب التاريخ الإسلامي، فيدّعي أن «التاريخ يكتبه المنتصر»، ناسيًا ـ في الوقتِ نفسِه ـ أن تاريخ «العلم الحديث» قد يبرُق فيه الزيف، ويلمع فيه نجمُ الكاذبين، وربما استأثر المغرضون بكتابته، فهاهي حفريةُ إنسان بلتداون Piltdown man، تظلّ حوالي أربعين سنةً معتمدةً (١٩١٢ ـ ١٩٥٣م)، على أنّها الدليلُ الأقوى على تطور الإنسان، والحلقةُ المفقودةُ بين الإنسانِ والقرد، إذ الجمجمة لإنسانٍ والفكّ لقرد، حتّى تبين أن الأمر ما هو إلا خدعة، وأن الجمجمة لإنسانٍ دُفن منذ عدةِ سنين، والفكّ لقردٍ هلك منذ آلاف السنين، وما كانا ليلتقيان إلا بفعل «عالِمٍ» تطوُّريّ

مُزيِّف، هذا مثالٌ وغيره كثير[1]!

وتجد الملحدَ يقفزُ على المقدمات، ليعترضَ على النتائج، متناسيًا عصمةَ الأنبياء، وعصمةَ مجموعِ الأمة من الاجتماع على ضلالة، ذلك من فضل الله وبقدرته، فيعترض على اعتمادِ المسلم على الرصيدِ العلميِّ المتراكم عبرَ قرونِ الإسلام، وذلك لاحتماليةِ تدخلِ الأهواءِ والميول، مكتفيًا بالاحتمال دون أن يُثبتَ حقيقةَ الوقوع، متجاهلًا بديهة العقول أنه ليس كلُّ ما جوّزَ العقلُ وقوعه كان واقعًا، بل يتجاهل أنّ العلمَ التجريبيَّ لا يخلو من هذه الاحتمالية، مع ثبوتِ وقوعِها مرارًا وتكرارًا، فهاهو الأمريكي روبرت جالُّو يريد أن يحوز السبق في عزل فيروس الإيدز، فيعتمد على سلالات أتته من معهد منافسه الفرنسي لوك مونتانييه، ويظل السبق في عزل الفيروس قسمةً بينهما، حتى ذكرت إحدى زميلات جالُّو الحقيقة، وحُوّل جالُّو للتحقيق، وانتهى التحقيق ببراءته من تهمة السرقة، وانتهى النزاع سنة ١٩٨٧م بتدخل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ورئيس وزراء فرنسا لإعلان شراكة البلدين في الاكتشاف[2]! هذا مثالٌ وغيره كثير!

---

(١) للاستزادة في شأن إنسان بلتداون يمكن الرجوع إلى:
- William Broad and Nicholas Wade. Betrayers of the truth. Simon & Schuster. New York. p. 83, p. 119.
- Adrienne Mayor. The first fossils hunters: Paleontology in Greek and Roman Times. Princeton University Press. p. 233.

(٢) الغرض المقصود أن النزاع قد يقع، والاتهامات بالسرقة قد تحدث، وتدخل السياسيون قد ينهي الصراع، وانظر في هذه المقالات:
- Was Robert Gallo robbed of the Nobel Prize¢
http://www.newscientist.com/article/dn14881-was-robert-gallo-robbed-of-the-nobel-prize.html#.VN6eROaUe60
=

يأخذ الملحدُ على المسلم تقديمَه ما ثبتَ عنده باليقين، من خبرِ ربّ العالمين عن خلقِ الإنسان، يأخذ عليه تقديمَه ذلك على نظريةِ التطور، وهو إذ يفعل ذلك فهو ـ بيقينٍ ـ لا يعلم معنى كلمة «نظرية»، ولا يفهم وزنها بين الحقائق، ومن باب أولى فلا يعرف شيئًا عن أصول الترجيح!

وترى أحدَهم ينبذُ الأديان والمذاهب على سواء، احتجاجًا بأن بينها من الاختلاف ما بلغ التناقض! ولا يفكر يومًا في نبذ الطّب، لما فيه من اختلافٍ بلغ التناقض، خذ مثلًا كتاب Controversies in laparoscopic surgery؛ أي: «مواضع الجدل في جراحة المناظير»، فهو كتابٌ يعرضُ مؤلفوه اختلافاتِ الجرّاحين في الإجراءات الجراحية أثناء جراحات المناظير، من أبسط الأمور وحتى أعقدها، ويبين حجة كل رأيٍ وأحيانًا يرجح ما يراه صوابًا، وحين تقرؤه تظنّ أنهم استقَوا الفكرةَ من كتبِ المقارنة بين الأديانِ والمذاهب!

وفي حين يرمي أشقاهم المسلمَ بأنّ سبب إسلامه هو تأثرُه بالبيئةِ التي وُلد فيها فحسب، تراه يحتجُّ في اقتناعه بأمرٍ ما، بأنّ هذا الأمر مقبولٌ جدّا بين علماء الغرب، ومتداولٌ في جامعاتِ أمريكا وأوروبا، وهذا لا يدل ـ فحسب ـ على شعورٍ متأصلٍ بالدونية، بل يدل ـ كذلك ـ على فصامٍ غريبٍ في مداركِ الوعي،

=- Dispute behind Nobel Prize for HIV research.
http://www.nbcnews.com/id/27049812/ns/health-second_opinion/t/dispute-behind-nobel-prize-hiv-research/#.VN6eKuaUe60

إذ يستأنس بالتوجه الجمعي مرةً، ويطعن فيه مرةً أخرى بحسب الهوى!

ثم تراه يشكك في استدلالِ الموحد بالسببية كدليلٍ على وجودِ الخالق، بحجةِ أنّ السببية مبنيةٌ على الاستقراء، وهذا الاستقراء قد يثبت في يومٍ ما أنه ناقص، رغم أنّ السببية بديهة أوليّة، ليست مبنية على الاستقراء كما زعم، بل يكفي في الجزم بها تصورُ طرفيها، ورغم أنّ الملحد نفسه يدعي الثقة العمياء بالمعامل، ولا يقبل إلا بنتائج التجارب، والتجارب أساسًا مبنية على الاستقراءِ الناقص أو الأغلبي وليس الكامل، ورغم أنّ التجربة تتكرر بالاساس لرصد العلاقة السببية واستبعاد أن تكون العلاقة ناجمة عن اقترانٍ فحسب!

هل يعرف الملحد مثلًا أنه في العلاج التجريبي empirical therapy، يتم وصف الدواء للمريض، دون أن يكون هناك معرفة بكيفية وأثر الدواء في علاج المرض تحديدًا، وإنما يوصف لغلبة الظن أن هذا الدواء سينفع بناءً على تجربته قبل ذلك؟! هل يعلم الإجراءات المتبعة ليتم اعتماد المادة الكيميائية لتستعمل كدواء؟! وهل يعلم متى وكيف خضع دواءٌ بشهرة «الأسبرين» لهذه الإجراءات؟!

هل يدركُ الملحدُ احتمالَ الخطأِ في التجربة، سواءً في مرحلةِ الملاحظة، وما تتطلبه من سلامةِ الآلة، ودقةِ النقل، والتحلي بالموضوعية، أو في مرحلةِ إنشاء الفرضية، وما تتطلبه

من توافقٍ مع باقي المعلومات، وحسنِ الصياغة ووضوحِها، واتساقِ المنطق، والتأسيسِ على ملاحظةٍ تناسبها، أو في مرحلة التجربة، وما تتطلبه من ثبات المقدمات، وإدراك الظروفِ المحيطة والعوامل المؤثرة، والتأكد من استيعاب جميع المخرجات، أو مرحلة صياغة القانون العلمي، وما يتطلبه من دقةِ لفظ، ووضوحِ معنى، وصلةٍ واضحةٍ بالتجربة السابقة؟!

وبعدُ.. فإني لا أسعى مما سبق إلى الطعن في العلم التجريبي، فنحن ـ المسلمين ـ نعرف طبيعته، ونقدر دوره، ونفهم حدوده ومداه، ونأخذ منه ما فيه النفع، دون غلوٍّ فيه، ولا نرفعه فوق حقيقته وغايته، ولا نُعجزه بتكليفه ما لا دخل له فيه، وإنما أسعى إلى بيان أنّ المخالفين للإسلام، والمتصدرين للطعن فيه، والمتمسحين «بالعلم الحديث!»، لا يعرفون شيئًا عن علوم المسلمين، ولا يعرفون حقيقة العلوم التي يُظهرون الاقتناع بها، وبيان أن الإلحاد بأنواعه والملحدين بفئاتهم، لا ينتمون إلى منهجٍ علميّ شامل، ولا طريقةٍ فكريةٍ ثابتة، ولو كانت طريقة السفسطة!

وأجمعوا...!

«الحقيقة لا علاقة لها أساسًا بالإجماع، ففردٌ واحدٌ يمكن أن يكون على صوابٍ بينما الجميع سواه على خطأ»[1]

سام هاريس

يأبى الباطل إلا أن يتفنن في الخفاء، فيحتال بمظهرٍ يشتبه بأدلة أهل الحق، ويتكلم بلسانٍ يشبه استدلال المستيقنين، ويستكثر برجالٍ تعجبك أجسامهم وتسمع لقولهم، يخدع الناس فينخدعون له، ويغرُّهم فيغترون به، يتخذونه سيدًا مطاعًا، ويذعنون له اتّباعًا، فإن قلتَ «احذروا!» لم يصدقوك، وإن صِحتَ «انظروا!» انصرفوا وتركوك، وإن كان امتحان القلب يقع في الحب، فإنّ فتنة العقل تكون بهذا الباطل المستتر!

ومن ذلك أن يأتي باطلٌ في صورةٍ تشبه صورة العلم، ومن ذا الذي يقدر أن يردّ العلم المثبت إذ أتاه؟! وأي شيءٍ يكون علمًا إن لم يكن (إجماع العلماء)؟! ومن الذي يجرؤ أن يقف في وجه

(١) Sam Harris. The moral landscape: How science can determine human values? Free Press. P 26.

فرعٍ كاملٍ من فروع العلم الطبيعي؟! إن أحسن حالاتك إن لم تؤثر الانصياع لمضمون الإجماع العلمي، أن تكتم في نفسك ما تعتقده كتمان الأسير الضعيف مكبّلًا بين الأعداء!!

وغالب الحال أن يخلو الملحد من سلاحٍ معرفيّ إلا من دعوى الإجماع، يُشهره في وجهك حين تبدي رغبتك في مناقشته في الأسباب العلمية المدّعاة التي بنى عليها إلحاده، بدلًا من أن يناقشك في ثبوت وحجية القضية العلمية يصول ويجول بادعاء الإجماع عليها، فهو في الغالب ـ على الحقيقة التامة ـ لا يدري شيئًا عن تفاصيل تلك القضية وطريقة إثباتها، كل الذي يدريه عنها أنّهم ـ أي: العلماء ـ قالوا شيئًا فقال مثله، مقلدٌ لا يحسن النقاش والمناظرة، لكنّه يحسن أن يدّعي يقينه وطمأنينته لإلحاده من وحي هذا التقليد!

أشهر القضايا التي يحاول الملحد حسم الخلاف فيها بواسطة الإجماع هي نظرية التطور، يبادر بحجز الكلمة الأولى ليدير دفة الحوار نحو الإجماع، فيستفزك بالتحدي أن تأتيه باسم عالمٍ واحدٍ يخالف نظرية التطور، أو ورقةٍ بحثيةٍ منشورةٍ في مجلةٍ علميةٍ ترفض مفهوم التطور، أو جامعةٍ واحدةٍ على مستوى العالم أجمع تدرس لطلابها الخلق أو التصميم الذكي في مناهج الأحياء، يمكنك أن تبدأ في سرد ما تقف عليه من أسماء العلماء أو المنشورات أو الجامعات، لكنّك تكون ـ حينئذٍ ـ وقعتَ في الفخ، وصارت قضيتك مرتبطةً بقلة عدد هؤلاء العلماء وخمول ذكرهم، مقابل كثرة المؤيدين للتطور وبالغ شهرتهم، ويدور

الجدل حول هذا الأمر، بدلًا من أن يدور حول ضعف الملحد علميًّا، وعدم قدرته على الدفاع عن معتقده!

الذي يتبادر إلى الذهن أن «إجماع» علماء الطبيعة يعني اتفاقهم جميعًا دون أن يتخلف منهم أحد، والصواب أنّه عندما يُطلق علماء الطبيعة أنفسُهم لفظَ الإجماع Consensus فإنّهم لا ينفون بذلك وجودَ الخلاف، وأكثر ما يتردد بشأنه الإجماع يتعلق بالاحتباس الحراري، وأولئك الذين يقرّون بوجود الإجماع على قضية الاحتباس الحراري؛ يبنون دعواهم على استقراءٍ للأبحاث المنشورة عرفوا به أن ٩٧٪ من العلماء يؤيدون الاحتباس الحراري[١]، فوجود الخلاف عند ٣٪ من العلماء لم يُبطل دعوى الإجماع حتى عند ناقله!

يقول الملحد الشهير سام هاريس «إنّ الإجماع المطلق كغاية للعلم الطبيعي لا توجد إلا كنهايةٍ نظريةٍ مفترضةٍ للبحث»[٢]، وهكذا فإنّ كلمة Consensus تُستعمل في حال وجود خلافٍ يسير خلافًا للفظ Unanimity التي تقضي بعدم وجود مخالف، والإجماع الذي يتردد في أدبيات العلم الطبيعي يشبه ـ من حيث العددية ـ مصطلح «قول الجمهور» أو «قول الأكثر» في أصول

---

(١) انظر هذه المصادر على سبيل المثال:

Oreskes N. Beyond the Ivory Tower: The Scientific Consensus on Climate Change. Science 2004; 306 (5702), p. 1686.

- Anderegg WRL. Expert Credibility in Climate Change. Proceedings of the National Academy of Sciences 2010; 107 (27): 12107-12109.

(٢) Sam Harris. The moral landscape. How science can determine human values? Free Press. P 48.

الفقه الإسلامي، وعليه فينبغي أن يُعلم أن الإجماع الطبيعي لا يتفق في المعنى مع الإجماع الشرعي وما يصحبه من مدلولات تُشعر المستمع المسلم بالحُجية الملزمة!

ولا يلزم أن يكون الصواب في إجماع علماء الطبيعة أو إجماع أية طائفةٍ كانت، وثم فرقٌ بين الإجماع التشريعي في أحكام الشرع والإجماع الصناعي الذي يعني إجماع أهل صنعةٍ على أمر؛ كإجماع أهل الطب أو الاقتصاد أو الاجتماع أو الفيزياء أو غيرها من مباحث العلم وفروعه، فالإجماع الصناعي لا دليل على حجيته من الكتاب ولا السُّنَّة ولا العقل ولا الواقع، والإجماع التشريعي حجة بالدليل من الكتاب والسُّنَّة، وليس العقل من أدلة حجية الإجماع، كما قال أبو بكر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعرفة حجية الإجماع من طريق السمع، فأما العقل فإنّه لم يكن يمنع وقوع الإجماع من أمتنا على خطأ»، وقال أبو إسحاق الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رد الاحتجاج للإجماع بالعقل: «العقل لا يمنع اجتماع الخلق الكثير على الخطأ»[1].

والذي دلّ على حجية إجماع مجتهدي أمة الإسلام هو النص من الكتاب والسُّنَّة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء: ١١٥] فعصمة مجموع العلماء من الخطأ إنما هي منحةٌ ربانية ووعدٌ إلهيّ، دلّ عليها النص

(١) يعقوب بن عبد الوهاب الباحسين، الإجماع، مكتبة الرشد، صفحة ٢٥٩.

الشرعي عند المسلمين، أما من عدا مجتهدي أمة الإسلام فلا ضمانة ولا عصمة لصحة إجماعهم، ولم تكن المسألة يومًا مسألةَ عددٍ وجمعٍ فحسب؛ إذ المتأمل للنصوص الشرعية يجد أن «الأكثرية» وردت مورد الذم، وأن أهل الحق في غربةٍ ممن حولهم من الملأ والناس، وقد أجمع اليهود والنصارى على قتل المسيح عليه السلام وليس بصحيح، كما أجمع علماء الطبيعة في كثيرٍ من المسائل على أحكامٍ وتصوراتٍ واتضح في النهاية خطؤها بعد انقراض عصرهم!

الغريب ـ حقًّا! ـ أن تجد من طوائف المتعالمين من يستدل ببيان رابطةٍ أو مؤسسةٍ أو أكاديميةٍ علمية، يحتج به كأنّه قولُ معصومٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مع أنّه لا دليل على عصمة إجماع مجتمع العلم الطبيعي كلّه، ولو أنّ «المجمع الفقهي» أو أية رابطةٍ من كبار العلماء المسلمين اجتهدت فأدّاها اجتهادها إلى حكم، لم يكن قول هذا المجمع أو هذه الرابطة بذاته إجماعًا لا يجوز الخروج عنه، فهل الملحدين صاروا ملكيين أكثر من الملك؟! ومع ماذا؟! مع مجتمع العلم الطبيعي الذي وقع منه الإجماع على صواب تصوراتٍ، ثمّ أجمع بعدها على صواب نقيضها، هذا في شأن مجتمع العلم الطبيعي كلّه، فكيف برابطةٍ أو أكاديميةٍ مفردةٍ مهما بلغ عدد أعضائها؟! ألا يستحضر أحدهم القول الذي اشتهرت نسبته لجاليليو «في أسئلة العلم الطبيعي، فإنّ سلطة ألفٍ لا تساوي حجّة فرد»[1]؟!

---

(١) Misner, CW, Thorne KS, Wheeler JA (1973). Gravitation. San Francisco, CA: W. H. Freeman. P 38.

وعلى ذكر الغرابة فمالي لا أحدثكم عن حادثة اكتشاف الفيزيائي الفرنسي رينيه بلوندلو ـ العضو المبرّز في أكاديمية العلوم الفرنسية ـ لآشعة N-rays؟! وذلك أثناء دراسته لطبيعة آشعة X-rays، وقام عددٌ من الفيزيائيين الفرنسيين بتكرار التجربة، وجميعهم أكّد صدق الاكتشاف، حتى أنّ بعض الفيزيائيين ادّعى أسبقيته في الاكتشاف، وحصل رينيه على جائزةٍ تقديريةٍ من أكاديمية العلوم الفرنسية سنة ١٩٠٤م عرفانًا بأهمية الإنجاز!

الشاهد على الغرابة ما اتضح فيما بعد من أنّ آشعة N-rays ليس لها وجودٌ أصلًا، وأنّها ليست إلا وهمًا توهمه جميع الفيزيائيين الذين أجروا تلك التجربة، يقول جين روستاند «الجزء المدهش في الموضوع هو العدد غير الاعتيادي للعلماء الذين خُدعوا، إن هؤلاء الرجال لم يكونوا علماء مزيفين أو مشعوذين أو حالمين ولا قريبًا من هذا، وإنما كانوا بحقّ رجالَ علمٍ محايدين محترمين متمرسين على الطريقة المعملية، رجالًا بعقولٍ رزينةٍ وحسٍّ سليم، بلغوا هذه الدرجة بإنجازاتهم كأساتذة جامعيين واستشاريين ومحاضرين»[١]!!

يقول ألفن بلانتيجا: «وبالطبع فنحن جميعًا نعلم عن النظريات العلمية التي حظيت في وقتٍ ما بالإجماع ثم نُبِذت، مثل نظرية السيّال الحراري، والنظريات التساقطية

---

(١) Jean Rostand (1960). Error and deception in science. Basic Books, New York. p. 28.

Effluvial theories[1] في الكهرباء والمغناطيسية، والنظريات المتعلقة بوجود اللاهوب Phlogiston، والقوى الحيوية في علم وظائف الأعضاء، ونظريات التولد التلقائي للحياة، والأثير الناقل للضوء... إلخ»[2]، فمثل هذه النظريات كانت جميعًا محلَ إجماعٍ من علماء العصر، ومع الوقت صار من يعتقد بصحتها محل تندّر من المنتسبين للعلم! هذا في حالة الإجماع التام لعلماء وعوام العصر، فكيف لو كان الأمر ليس إلا اتفاق مئات أو آلاف العلماء المتخصصين في فروع العلم الطبيعي ليس إلّا؟!

يقول سام هاريس: «النسبيون والنفعيون يعتقدون أن الحقيقة ليست إلا مسألة إجماع، وأظنّه واضحًا أنّ إجماع العقول المتشابهة قد يشكّل الحكم النهائي على الحقيقة ولكنّه لا يحددها، ومن الممكن أن نتصور أنه قد يتفق الجميع على طريقة سير العالم وهم على خطأ، ومن الممكن كذلك تصور أن شخصًا واحدًا قد يعارضه جميع الناس وهو مصيب، فمن وجهة نظرٍ واقعيةٍ فإنّ شخصًا واحدًا أو ثقافةً واحدةً قد تحتكر الحقيقة في شأنها كله»[3].

ثمّ فضلًا عن قيام الدليل على عدم لزوم الصواب لإجماع العلماء الطبيعيين، فإن الظنّ والانحياز يدخل هذا «الإجماع» من

---

(١) لستُ على يقينٍ من صحة ترجمة Effluvial إلى «تساقطية».

(٢) Robert T. Pennock. Intelligent Design Creationism and Its Critics Philosophical, Theological, and Scientific Perspectives. A Bradford Book, The MIT Press. p. 785.

(٣) Sam Harris. The end of faith. Religion, Terror, and the Future of Reason. W. W. Norton & Company, Inc. p. 181-182.

جهة طريقة الوقوف عليه أيضًا، حيث إنّ السبيل للوقوف على ذلك يكون من خلال المؤتمرات والدوريات والمشاريع البحثية العلمية، وكافة الأعمال التي تنشر أو تقبل في هذه الثلاثة تكون من خلال مراجعة الأقران Peer review، لكي تنشر بحثًا أو تقدمه في مؤتمر أو تطلب به منحةً لمشروعٍ بحثّي، لا بد أن يمر بحثك على أحد الباحثين ليُراجعه دون أن يُعلم من هو، فإما يرفضه أو يقبله أو يراجعك فيه، وغالبًا ما يكون النموذج السائد في الوسط العلمي Paradigm هو المعيار في قبول البحث من عدمه[1]! أيّ أن «الإجماع» يلعب دورًا في قبول المقالات والمؤتمرات والمشاريع، وفي نفس الوقت يكون تحديد الإجماع من خلال استقراء المقالات والمؤتمرات والمشاريع البحثية!!

من العمليات الجراحية التي كانت تُجرى لعلاج حصوات القناة المرارية، عملية توصيل القناة المرارية بالاثنى عشر Choledochoduodenostomy، منذ فترة والأبحاث العلمية تنصح بتوصيل القناة المرارية بالصائم من الأمعاء الدقيقة Choledochojejunostomy، بدعوى أنّ العملية الأولى تؤدي إلى

(١) وتاريخ العلم الطبيعي شاهدٌ على حدوث التغير في النموذج السائد Paradigm Shift في كافة فروع العلم الطبيعي، مثل التحول من الميكانيكا الآرسطية Aristotelian Mechanics إلى فيزياء نيوتن الكلاسيكية Classic Physics إلى فيزياء الكم على المستوى الميكروسكوبي Quantum Mechanics ونسبية آينشتين Einsteinian Relativity على المستوى الكوني، وما زال السعي مستمرًا للجمع بين ميكانيكا الكم والنسبية Theories of Quantum Gravity، والأمثلة على التغير في النموذج السائد كثيرةٌ في فروع العلم الطبيعي المختلفة.

زيادة احتمال حدوث سرطان القناة المرارية بالإضافة إلى آثارٍ جانبيةٍ أخرى، قمنا في مركز جراحة الجهاز الهضمي التابع لجامعة المنصورة بجمع المعلومات عن الحالات التي أجريت لها العملية الأولى، ولا أقول إنّ عدد الحالات التي حدث فيها السرطان قليل بعد توصيل القناة المرارية بالاثنى عشر، بل أقول إنّه لا توجد حالةٌ واحدةٌ حدث فيها هذا السرطان، قمنا بجمع هذه المعلومات وكتابة مقالةٍ بحثيةٍ محكمةٍ عن الأمر، وحتى الآن - ديسمبر ٢٠١٤م - لا توجد مجلةٌ علميةٌ جراحيةٌ توافق على نشر المقالة، بحجة أنّها خلاف السائد في المقالات هذه الأيام، وهو ما يعرف في الوسط العلمي باسم التحيّز في النشر والاستشهاد Publication bias and Citation bias برفض النشر والاستشهاد بالأبحاث العلمية التي تعرض نتائجَ غير مرغوبةٍ أو غريبة!

في إحدى افتتاحيات مجلة التصوير والبيولوجيا الجزيئية Molecular Imaging and Biology يقول جورج باريو تحت عنوان «العلم المبني على الإجماع ومراجعة الأقران» Consensus science and the peer review: «إنني متأكد أن معظمنا قد واجه مفهوم العلم الطبيعي المبني على الإجماع وعواقبه، في الحقيقة إنّ مراجعي المقالات العلمية في المجلات والتقديم للمنح البحثية غالبًا ما يستعمل عبارة (هذا إجماع في المجال. . .) كوسيلةٍ لتسويغ الحجر على الأفكار التي لا توافق ما يعتقدونه»[١]، وهو

(١) Barrio JR. Consensus Science and the Peer Review. Mol Imaging Biol 2009; 11:293.

كذلك فعلًا في كثيرٍ من الأحيان، فالإجماع من الأبحاث، والأبحاث من الإجماع، وهكذا في حلقةٍ مفرغةٍ تقتل البحث العلمي!

القضية الأخرى التي تفرّق بين الإجماع الشرعي و«الإجماع» في العلم الطبيعي تتمثل في طبيعة المُجمعين أو أهل الإجماع، يوجه جون كروسنيك ـ أستاذ الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ـ سؤالًا لمن يدعي الإجماع العلمي في قضية الاحتباس الحراري قائلًا: «كيف تحدّد من هو مؤهلٌ ليُضم رأيه في مسح الآراء ممن ليس مؤهلًا ليشمله الاستقراء؟!»(١)، كان هذا السؤال وما زال بلا جواب!

أضف إلى العجز عن الجواب أنّ كثيرًا من قضايا العلم ـ التي تمثل جدلًا مجتمعيًّا ـ تمتد أطرافها إلى علومٍ شتى، لقد أصبح التداخل بين مباحث العلوم Interdisciplinarity وتكوين فرقٍ بحثيةٍ لتحقيق الثمرة المرجوة من البحث العلمي أمرًا لا يُنكر، ولذلك فتحرير الإجماع المزعوم عسيرٌ جدًّا ونقضه يسيرٌ جدًّا بمقدار تعدد المشتغلين بالعلوم المتداخلة والذين قد يصلون إلى مئات الآلاف أو أكثر!

خذ مثلًا نظرية التطور، فهي ترتبط بعلوم الأحياء والإحاثة والجيولوجيا والوراثة والتشريح ووظائف الأعضاء وغير ذلك من

---

(١) **Gayathri Vaidyanathan**. How to Determine the Scientific Consensus on Global Warming. Visited on 14-2-2015.
http://www.scientificamerican.com/article/how-to-determine-the-scientific-consensus-on-global-warming/

فروع العلم، فهل قام من يدّعي الإجماع على هذه النظرية باستقراء آراء كافة العلماء في هذه التخصصات جميعًا؟! وهل سيدخل الطلبة الدارسين والمثقفين القارئين في هذا الإجماع؟! ثمّ ما المعيار الذي يميّز به العالم من غير العالم في هذه الفروع؟! وكيف الفصل بين العالم المجتهد صاحب الرأي والمقلد المشتهر بالعلم؟! إنّ من مارس العلم التجريبي واختلط بأفراده يدرك جيدًا عسر الوصول لجواب هذه الأسئلة على أرض الواقع في فرعٍ واحدٍ من فروع العلم الطبيعي، فضلًا عن كل الفروع!

في سؤال لموقع Edge عن الفكرة العلمية التي تتوقع أن تتقاعد وتنتهي، أجابت باحثة الدكتوراة كايت ميلز أنّها تعتقد أن فكرة أن «العلماء وحدهم هم الذين يمكنهم القيام بمهام العلم الطبيعي»، هي فكرةٌ في طريقها للتقاعد، وأنّ المواطن الذي يتم تدريبه على طرق العلم الطبيعي خارج المسار الأكاديمي يمكنه ممارسة العلم الطبيعي، وترى أنّ دور هذا «المواطن العالم» Citizen scientist ـ على حد قولها ـ ينبغي أن يتخطى جمع البيانات Data collection، ليقوم بتصميم البحث Study design وتحليل البيانات Data analysis وطرح الأسئلة البحثية Formulating research questions، فإن هناك أطفالًا في سن الثامنة شاركوا في تقارير علمية Scientific reports، وهناك مراهقين قاموا باكتشافاتٍ تتعلق بالصحة، وتقترح محاولة تنظيم الأمر من الناحية الأخلاقية والبحثية ليتم الاستفادة من أطروحات هؤلاء «المواطنين العلماء» خصوصًا بعد أن أصبح تحليل البيانات

أسهل وأقرب من ذي قبل[1]!

إن هناك فرقًا بين الطريقة العلمية التجريبية وممارسيها، فالطريقة التجريبية نفسها ربما كانت أفضل الطرق لدراسة العالم المنظور، ولكن العلماء أنفسهم يرد عليهم ما يرد على سائر البشر، وربما كان تعرضهم لفتن الشهرة والمال والجاه أكثر من غيرهم، مع ضعف المانع من الانسياق وراء هذه الزخارف في الوسط العلمي بصورته الحالية، فما بالنا ننسى هذا الفرق ونخلط الأمور خلطًا، ليصير الأشخاص حجةً يحرم ممارسة الطريقة العلمية على غير هدي نتائجهم؟!

وقد سبقني فوكس داي إلى هذا المعنى بقوله: «بينما الطريقة العلمية التجريبية تؤدي في الغالب إلى فهمٍ أدق للعالم المادي، فالمثل ليس صحيحًا بالنسبة للعلماء الذين يمارسونها، إنّ مهنة العلم الطبيعي تزداد اختلاطًا بالسلطة والسياسة كما هو مشهودٌ من معاملة أولئك الذين لا يسبحون مع تيار الإجماع العلمي على مسائل لم يقم عليها الدليل بعد مثل قضية الاحتباس الحراري»[2]!

القضية الفارقة ـ أيضًا ـ بين الإجماع الشرعي والإجماع في العلم الطبيعي تتمثل في طبيعة المجمَع عليه، فالإجماع الشرعي

---

(١) Kate Mills. Only "Scientists" Can Do Science. Visited on 14-2-2015. http://edge.org/responses/what-scientific-idea-is-ready-for-retirement

(٢) Vox Day. The irrational atheist. Dissecting the Unholy Trinity of Dawkins, Harris, and Hitchens. Benbella Books inc. p. 59.

يقع من مجتهدين متشربين لأصول الشريعة وثوابتها، بخصوص صورةٍ ثابتةٍ لحادثةٍ أو نازلةٍ، في حين أنّ العلم الطبيعي لا يشبه ذلك في شيء، ومثل الإلزام بالإجماع في العلم الطبيعي كمثل الإلزام به في الفن، أرأيت إلى رجلٍ استقرأ أن كافة الأدباء والرواة والمتفنين أجمعوا على أن الكائنات الفضائية لا تشبه الإنسان وأنها ستغزونا لتدمر الأرض، ثمّ أتى هذا الرجل ليرفض إحدى اللوحات أو الروايات التي تقدم كائنات الفضاء في صورةٍ تشبه الإنسان أو جعلت الإنسان هو الذي يغزو الكائنات الفضائية بحجة أنها خالفت الإجماع؟! ألا يُعد هذا الرجل في عُرف أهل الفنّ فاسد الذوق؟! ألا يعد جامد الفكر لا يرى في التجديد والإبداع إلا مخالفة الإجماع؟! هل يستوي الإجماع في الدين الذي مبناه على اليقين والظن الغالب والثوابت بالإجماع في العلم الطبيعي الذي حياته بالتغيير ومبناه على التشكك؟!

والإجماع الشرعي يقع من علماء مستيقنين من دينهم، مؤمنين بأصوله ولا يتشككون فيها، أما رجال العلم الطبيعي فسيماهم التشكك في المسلمات التي يتعاملون معها، وكائنًا ما كان يقينهم بمقدماتهم فلا بد أن تُترك مساحةً من الشك، تتيح لهم طريقًا للرجعة وفسحةً لتغيير التصور، ولو تمتّع علماء الطبيعة بيقين علماء الشريعة لفقدوا كثيرًا من قدرتهم على البحث والنظر، فكيف يكون إجماع أولئك الذين يحملون درجةً من التشكك في استنتاجاتهم نفسها ملزمًا بذاته؟! وكيف يكون إجماع أولئك الطامحين لنقش اسمهم في سجل التاريخ ـ بالبرهنة على خطأ

المعتقد السائد ـ معتقدًا سائدًا لا يجوز البرهنة على خطئه؟! كيف تأخذ قول من يعتقد أن النظرية العلمية يشترط فيها الاتساق ولا يشترط فيها أن توافق الحقيقة لتجعل من قوله حقيقةً لا تنتقد؟! أي سفاهةٍ تلك؟!

ولعل أظهر الفروق بين الإجماع الشرعي والإجماع في العلم الطبيعي، أنّ الأول دليلٌ مستقلٌّ يقطع الاختلاف، ويدلل على سبيل عبادة الله على بصيرة، والجهل به يُزري بالمتكلم وربما أوقعه في أفحش الأغاليط، بينما الثاني يقضي على روح العلم الطبيعي وحيويته، والالتزام به يكبّل العالم ويمنعه من النظر، وربما فوّت عليه أحد الفتوح المعرفية أو أجبره أن يغض الطرف عنها، ومن أمثلة أثر الاعتقاد بالإجماع في العلم الطبيعي والجزم بما توصل إليه ما حكاه برايان آبليارد عن جون تراوبريدج ـ رئيس قسم الفيزياء بجامعة هارفارد في ثمانينات القرن التاسع عشر ـ إذ يخبر تلامذته أنّه «لم يعد التخصص في الفيزياء أمرًا يستحق العناء، فقد تم التوصل لكلّ المكتشفات المهمة في هذا العلم»[1]!! فأين فيزياء اليوم من فيزياء ذلك اليوم الغابر؟!!

قد وضع المجلس القومي للبحث العلمي بالولايات المتحدة عام ١٩٩٦م «المعايير القومية لتعليم العلوم» كتوجيهاتٍ لتدريس العلوم في المدارس الابتدائية والثانوية في الولايات المتحدة، وجاء فيها: «يقوم العلماء بصياغة واختبار تفسيراتهم للطبيعة عن

---

(١) **Bryan Appleyard** (1992). Understanding the Present: Science and the Soul of Modern Man. New York: Doubleday. p. 110.

طريق الملاحظة والتجارب والنماذج النظرية والرياضية، بالرغم من أن كل الأفكار العلمية مؤقتةٌ وعرضةٌ للتغيّر والتحسّن بالأساس فإن معظم الأفكار العلمية الأساسية في العلم الطبيعي مؤكدةٌ بالكثير من التجارب والملاحظات، هذه الأفكار لا يبدو أنّه من المحتمل ـ قلتُ: هكذا دون جزمٍ وادعاء حجية هذه الأفكار الأساسية ـ أن تتغير بشدةٍ في المستقبل، قام العلماء ويقومون بتغيير أفكارهم عن الطبيعة عندما يجدون أدلةً تجريبيةً جديدةً لا تتطابق مع التفسيرات الموجودة»[١].

يقول الكاتب مايكل كريتون في محاضرةٍ ألقاها في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا: «إنني أعد العلم الطبيعي المبني على الإجماع تطورًا في غاية الخُبث ينبغي أن يُجمّد مكانه، تاريخيًّا فإن دعوى الإجماع كانت الملاذ الأول للأوغاد لتجنب النقاش بزعم أن الأمر محسوم. . . . لنكن واضحين، ليس للعلم الطبيعي علاقةٌ بالإجماع، الإجماع شأن السياسة، أما العلم الطبيعي فعلى العكس، لا يتطلب أكثر من باحثٍ واحدٍ على صواب، بمعنى أنّ معه أو معها نتائج يمكن إثبات صحتها بالرجوع إلى العالم الواقعي، لا علاقة للإجماع بموضوع العلم الطبيعي، ما له قيمةٌ حقًّا هو النتائج التي يمكن إعادة إنتاجها، أعظم علماء الطبيعة في التاريخ تكمن عظمتهم تحديدًا في قدرتهم على كسر الإجماع، ليس هناك شيءٌ اسمه الإجماع في العلم الطبيعي، لو كان إجماعًا

(١) National Science Education Standards (NSES), National Academy Press, Washington, D.C., 1996. p. 171.

لم يكن علمًا تجريبيًّا، ولو كان علمًا تجريبيًّا لم يكن إجماعًا.»[1]!

إن غالب دعوى الإجماع في الوسط العلمي الطبيعي تكون إرهابًا لإسكات المخالفين، يقول اللاأدري الشهير ستيفين جاولد عن آفة الإجماع أنّه يُسكت الكثير من المتشككين، ثم ينقل قول الإحاثي إيفرت أولسون: «يوجد كذلك مجموعةٌ صامتةٌ في العموم من الطلبة الذين يدرسون علوم الأحياء، يميلون لرفض الكثير من الفكر المعاصر ولكن يقولون ويكتبون القليل، ربما يكون رأيهم خطأً أو صوابًا ولكنّ وجوده مهم، ولا يمكن تجاهله أو محوه للإجبار على دراسة التطور»[2]! ويقول الفيزيائي الملحد ريتشارد فايمان: «إنّ تقييد المتشككين يعيق العلم الطبيعي، ولو أردنا حلَّ مشكلةٍ لم يسبق لنا حلّها، فيجب أن نترك الباب مفتوحًا لما لا نعلمه... إنّ الشك لا يُخشى ولكن يُرحب به ويُناقش»[3].

وبعدُ.. فالإجماع في العلم الطبيعي لا يشبه الإجماع الشرعي إلا في لفظ «الإجماع» ليس إلا، فهو لفظٌ مستعمل في أدبيات العلم الطبيعي حتى مع وجود المخالف، وليس هناك

---

(١) Michael Crichton. Aliens Cause Global Warming. Caltech Michelin Lecture on January 17,2003. On:
http://www.sepp.org/NewSEPP/GW-Aliens-Crichton.htm

(٢) Stephen J. Gould (2002). The Structure Of Evolutionary Theory. The Belknap Press of Harvard University Press. p. 575.

(٣) Richard Feyman. The value of science.
http://thehangedman.com/teaching-files/stv/feynman-valueofscience.pdf

تحديدٌ واضح لأهل الإجماع، ومن يدخل في الإجماع ومن لا يدخل، ومن ينخرم الإجماع بمخالفته ومن لا، ولا دليل على حجية هذا الإجماع من علماء الطبيعة، وطريقة الوقوف على هذا الإجماع تعتمد على استقراء المقالات والموافقة على المقالات غالبًا ما ترتبط بمدى موافقتها للإجماع!! والواقع شاهدٌ على وقوع إجماع العلماء التجريبين على الخطأ، وشاهدٌ كذلك على الإجماع على أمرٍ ثم الإجماع على خطأ ذات الأمر، وحقيقة الإجماع مخالِفةٌ لحقيقة العلم الطبيعي وصفات علمائه، فهو إذن «إجماع» بلا «إجماع»! ولو أردنا الاقتراب من الدقة في رصد نظير «الإجماع» في العلم الطبيعي من الفقه الإسلامي، فإنّه أشبه بالعُرف منه بالإجماع! ولعله من نصيحة الخلق وضبط الكلم أن يُقال في المشتهر بين علماء الطبيعة أنّه «عُرفهم» لا «إجماعهم»!

إنّ الوقوف على المتعارف عليه بين المتخصصين ـ وهي خطوةٌ لازمةٌ قبل أي بحثٍ علمي Review of literature ـ في علمٍ ما أمرٌ لازمٌ لكل باحث، خصوصًا فيما يخص موضوع بحثه أو مقالته أو محاضرته، ليقف بذلك على ما انتهى إليه الآخرون، ويضع يده على الفجوات المعرفية التي تحتاج لمن يوليها اهتمامه، ويعرف المواطن التي خالف فيه العرف مما وافقه فيه، ويضع تفسيره لهذه المخالفة أو الموافقة، فالإجماع ـ أو العرف ـ في العلم الطبيعي «ليس إلا مرشدًا

لاكتشاف ما يجري في العالم، هذا كل ما يمثله الإجماع، وجوده من عدمه لا يحدد ما هو حقيقيٌّ مما ليس كذلك»[1]!

وأخيرًا.. فإنّي أدعو ـ بصدقٍ ـ كلَّ ملحدٍ أن يخلو بنفسه، ويقف معها وقفة مصارحةٍ ومحاسبة، يرصد مسائل العلم الطبيعي التي ألحد بسببها كما يزعم، ويقف على مقدار علمه بها، ليجد أنّ غاية ما يستدل به في كثيرٍ من هذه المسائل هو «الإجماع»، وقد وقفتَ على حقيقة الإجماع من كلام العلماء التجريبيين ورؤوس الملحدين في العالم، وعلمتَ من شأنه أنّه لا ينفعك في الدنيا، ولن ينفعك في الآخرة يوم تقف وحدك تحاسب عند ربّك، فدع عنك ذاك الكبر، واحرص على ما ينفعك، وراجع موقفك بعد أن تفرغ رأسك من حجية الإجماع المزعوم، لتقف على حجم المصيبة التي ابتليت بها في دينك المفقود! أيها الملحد! لقد أخبرني ربي عن قومٍ لما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، لكنّك لستَ من هؤلاء كما تعلم، إنّما أنت من هؤلاء الذين اتبعوا سادتهم وكبراءهم فأضلوهم السبيل، وآثروا الهوى على الهدى من غير سلطانٍ أتاهم، فارفق بنفسك قبل أن تقف بين يدي ربي وربك!

---

(١) Sam Harris. The moral landscape. How science can determine human values? Free Press. p. 26-27.

جدول (١): تلخيص الفروق بين الإجماع في الشرع والإجماع في العلم الطبيعي من خلال ما سبق تفصيله:

	الإجماع في الشرع[١]	الإجماع في العلم التجريبي
التعريف	«اتفاق علماء العصر من أمة محمد ﷺ على أمرٍ من أمور الدين»[٢]	لا يلزم فيه اتفاق كل أفراد التخصص على أمرٍ من أموره، بل يوجد المخالف ويطلق لفظ الإجماع Consensus
حجيته	حجة بدلالة النصوص من الكتاب والسُّنَّة[٣]	لا دليل على حجيته شرعًا ولا عقلًا ولا واقعًا

---

(١) اعتمدت بالأساس على كتاب الدكتور يعقوب بن عبد الوهاب الباحسين المسمّى «الإجماع: حقيقته، أركانه، شروطه، إمكانه، حجيته، بعض أحكامه»، مكتبة الرشد.

(٢) ابن قدامة المقدسي، روضة الناظر، صفحة ١٣٠.

(٣) يقسم أحد الباحثين المسلمين الأفاضل الإجماع في العلم الطبيعي إلى نوعين، أحدهما بالإجماع المؤقت Temporary Consensus والآخر هو الإجماع النهائي Final Consensus، أمّا الأول فهو القابل للزوال، فهو ما انعقد على قبول نظريةٍ تفسيريةٍ معينةٍ لظاهرةٍ من الظواهر أو للعلاقة بين ظاهرتين طبيعيتين أو أكثر استنادًا إلى القرائن الحسية والتجريبية التي ترجحها، أو هو ما انعقد على قبول نموذجٍ رياضيٍّ معينٍ لقبول نظام الكون وآلياته كله أو بعضه، وحجيته أنه ليس قاطعًا للنزاع وإنما غايتها أن تكون بمنزلة أقوى الظنون المطروحة، أما الثاني النهائي فلا يُقبل النزول عنه أو افتراض إمكان انخرامه، وهو ما انعقد على صحة نظرية ثبتت حقيقتها بالتجريب المباشر والحس الصريح.

وبقطع النظر عن واقع أن الإجماع على ما ثبت بالتجريب المباشر ـ ودلالة التجريب ظنيةٌ سواءً وُصف بالمباشرة أو بعدمها ـ قد ظهر خطأ بعضه بعد مدة، فإنّ الإجماع على ما ثبت بالحس الصريح يستمد قطعيته من الحس لا من الإجماع، وتكون قطعيته في حق الواقف عليه بحسه، بينما يقطع به من لم يقف عليه بنفسه بمعيار درجة حجية الأخبار والتي قد تصل للقطع إن بلغت حد التواتر، ولذلك فالذي يظهر لي أن هذا =

الوقوف عليه	باستقراء أقوال أهل العلم في المسألة	بمتابعة المجلات والمؤتمرات العلمية التي يلعب فيها النموذج السائد في الوسط العلمي دورًا في قبول الأبحاث والمقالات فيها. أيّ: أن «الإجماع» يلعب دورًا في قبول المقالات والمؤتمرات والمشاريع، وفي نفس الوقت بتحديد الإجماع يكون من خلال استقراء المقالات والمؤتمرات والمشاريع البحثية!! مع وجود ما يعرف بالتحيز في النشر والاستشهاد في الوسط العلمي Publication bias or Citation bias

= التقسيم لا يفيد لعدة أمور، أظهرها أنّه لا يستدل بالإجماع من حيث هو إجماع، وإنما يستدل بالإجماع من حيث مستنده، فما كان مستنده نظريةً أو نموذجًا رياضيًّا لم يكن قطعيًا، وما كان مستنده التجريب المباشر والحس الصريح كان قطعيًّا نهائيًّا، ولا يشترط أهل الأصول في حجية الإجماع الوقوف على مستند الإجماع، نعم.. هناك خلافٌ في وجوب وجود مستندٍ من النص للإجماع، لكن اشتراط الوقوف على المستند للاحتجاج بالإجماع ليس قولًا لأحد من القائلين بحجية الإجماع، وهذا التقسيم السابق لا شك ليس قولًا بحجية الإجماع في العلم الطبيعي وإن كان يوهم التقسيم بذلك، وهو قولٌ يشبه حجية الإجماع في الشرع عند الإمامية الاثنا عشرية، فالإجماع عندهم لا قيمة له ما لم يكن كاشفًا عن قول المعصوم.

أثره	يلزم الوقوف عليه إذ يشترط للتأهل للتصدي للحكم أو الكلام في مبحثٍ معين أن يكو المرء ملمًّا بمواطن الإجماع فيه، والعمل به يقطع الخلاف ويقلل الجدال ويوفر الجهد للعمل.	من فوائد الوقوف عليه: ـ الوقوف على ما انتهى إليه الآخرون. ـ وضع يده على الفجوات المعرفية. ـ الوقوف على المواطن التي يخالف فيها والتي يوافق فيها بحثه المتعارف عليه. أما الاحتجاج به واعتباره حجة فآثاره: ـ يقتل الحيوية في روح البحث العلمي. ـ يؤدي إلى إسكات المتشككين. ـ قد يستعمل كوسيلةٍ للحجر على الأفكار الجديدة. ـ قد يؤدي إلى رفض تصحيح خطأٍ شائع.

أهل الإجماع	المجتهدون في أمة محمد ﷺ في عصر من العصور، والمجتهد قد يكون مجتهدًا مطلقًا إن استكمل الآلة اللازمة للحكم من المعرفة بنصوص الشرع وأصوله وقواعده، وقد يتجزأ الاجتهاد ليكون المرء مستكملًا لآلة الاجتهاد في مسألةٍ بعينها بقدرته على حسن تصورها والإحاطة بالنصوص والأصول المتعلقة بالمسالة محل البحث.	لا يوجد تحدد واضح لأهل الإجماع المزعوم في العلم الطبيعي، لا سيما مع: ـ التداخل بين مباحث العلم الطبيعي المختلفة Interdisciplinarity ـ عدم وضوح تعريف المؤهل لإبداء الرأي وهل يدخل فيه كل من استحضر التصور اللازم لإبداء الرأي دون دراسة أكاديمية مثل: الطلبة والمثقفين والمواطنين المتعلمين. ـ تعذّر التمييز بين المجتهد المستقل برأيه والمقلد لغيره، فقد يكون ثمّ ألفًا مؤيدين لقولٍ ما ليس فيهم إلا ثلاثة مستقلين برأيهم مجتهدين في النظر يقابلهم أربعة يرفضون هذا القول فيكون الأربعة المجتهدين أكثر من الألف الذين أكثرهم مقلدين.

المجمع عليه	الحكم في نازلةٍ أو حادثةٍ ثابتة الصورة، يُحكم فيها بعد تصورها بالنصوص الثابتة من الشريعة أو بالقياس عليها أو غيرها من طرق الاستنباط وأدلة الأحكام المعروفة.	لا يتصور وقوعه في العلم الطبيعي الذي مبناه على التشكك ولا يلتزم بأحكام الماضي، ومثل الإلزام بالإجماع في العلم الطبيعي كمثل الإلزام به في الفن. فكيف يكون إجماع أولئك الذين يحملون درجةً من التشكك في استنتاجاتهم نفسها ملزمًا بذاته؟! وكيف يكون إجماع أولئك الطامحين لنقش اسمهم في سجل التاريخ ـ بالبرهنة على خطأ المعتقد السائد ـ معتقدًا سائدًا لا يجوز البرهنة على خطئه؟! كيف تأخذ قول من يعتقد أن النظرية العلمية يشترط فيها الاتساق ولا يشترط فيها أن توافق الحقيقة لتجعل من قوله حقيقةً لا تنتقد؟!
نظيره	نظيره في العلم الطبيعي ما يعبر عنه بكلمة Unanimity وهي تعني الاتفاق الذي لا مخالف فيه، وهو إن وقع ليس بحجةٍ في العلم الطبيعي لما سبق بيانه في شأن الإجماع الذي يعبرون عنه بقولهم Consensus.	نظيره في الشرع «العرف»، ولذلك فالأدق أن يُقال في المشتهر بين علماء الطبيعة أنّه «عُرفهم» لا «إجماعهم».

نفسٌ خائنة!

وما يصف نفسية الملحد العربي من الإسلام إن لم يشملها وصف الخيانة؟! وثمّ فرقٌ بين الصدود والخيانة[1]، فالصدود هجرٌ ورفض، من قبولٍ لا يُرتجى، وسوء انطباعٍ عند النظر، والخيانة عهدٌ يُنقض، وودٌّ ينسى، وجميلٌ يُقابله البطَر، وما يصف نفسيته كمثل سلوك الزوجة الخائنة؟! امرأةٌ قليلة التجربة كأنّ عهدها بالحياة أمس، انساقت وراء لحظة ضعف، وانخدعت في ريعان الشباب، تحس بالذنب، وتسأل نسوة المدينة عن الحل!

ثم طال بها عهد الخيانة حتى نسيت قبح الخيانة، وجعلت الخائن رجلَها، رجلها الذي تحفظ ودّه، وتراعي خاطره، وتسمع كلمته، وودت لو قطّعت النسوة أيديهن، ثم طال العهد وتولّدت

---

(١) وعامة الباحثين في علم النفس والاجتماع على التفرقة بين الصدود Rejection والخيانة Betrayal، والأساس النفسي للخيانة أن يفضل المرء محابه ورغباته على علاقته بالطرف الآخر وإن لم يكن له مبغضًا أو رافضًا! والصدود يشبه موقف الملحد غير العربي من الإسلام، أما الملحد العربي فموقفه أشبه بالخيانة!

من الخيانة نيرانُ العداوة، فانقلب الزوج قبحًا يمشي على قدمين، وتبدّلت خلسة الخيانة جرأة، والهرب منها طلبًا، وحرقة الذنب تلذذًا، تلذذًا بإغاظة الحبيب الأول، تغشى بخيانتها أماكن اللقاء الأولى، وتدنس فراشه، وتفشي سره، ولا تبالي بنسوة المدينة.. هكذا! وسرعة الترقي ـ أو قل التردي ـ في هذه المراحل يكون بحسب أمورٍ شتى، ليس أعظمها صدق المحبة الأولى، ولا أحطها خسة النفس الخائنة!

إنّ للباطل في أول اللقاء به دهشةً تحيّر، تعمل تلك الدهشة عملَها في النفس الجاهلة، التي ينقصها خبرة التعامل مع الباطل، والاعتبار بحكايات الذين وقعوا في براثنه ثم ندموا أو عادوا، يراود الباطل تلك النفس عن إيمانها، يُمنّيها بمجد العلماء، ويخبّبها على دين الآباء، وتُقدِم تلك النفس وتُحجم، تطلب المعونة من أهل الخير أو لا تطلب، تبغي الحق أو لا تهتم، بحسب ما عوّدها صاحبها ورُبّيت عليه!

هنا يجب على أهل الحقّ المبادرة بالبيان، والوقوف على موطن الفتنة، والتحذير بفطنة، والإنقاذ بعلم، يعرضون الباطل المتبرج بلبوس العلم الطبيعي، ويكشفون الزيف المتخفي في المعاطف البيضاء، يقفون بالنفس المخدوعة على مواطن الضعف، ونقط الإشكال، ومواضع التفلسف، يرفوعن التعارض المتوهم، ويعوّضون النفس المتحيّرة، ويدفعون الوسواس المتلبّس برسوم المعامل!

والواجب على تلك النفس الحيرى أن تكف عن التعرض لما لا تحسنه، وأن ترد متشابه الأمور لمحكمها، وتستدل بما

تعلم على ما غاب عنها، الواجب عليها أن تثبُت، وتمتنع من الانسياق، وتصبر على ذل السؤال، حتى تعلم لتستطيع أن تحكم، وسينكشف لها بالصبر والثبات أي هوةٍ كانت على وشك السقوط فيها، وأي نيرانٍ كادت أن تصلاها، يجب عليها أن تمسك الزمام، وتكف عن الاغترار، وتعلم أن العقد السابق ملزمٌ، وعند كافة العقلاء أنّ اليقين لا يزول بالشك!

ثمّ طال العهد.. واستسلمت تلك النفس، استسلمت ولم تُقاوم حقّ المقاومة، استسلمت واستسلامها جريمةٌ متكاملة، استسلمت تخدع نفسها أنّها معذورة، وأنّها ضحية الجماعة الظالمة، استسلمت وحسبها إثمًا أنّها أمست خائنة، استسلمت وقد كفرت العشير، فلم تذكر له حسنةً واحدة، استسلمت وقد نقضت العهد، فلم تستحضر قبلَه ابتسامةً واحدة، استسلمت خائنة!

استسلمت وصار الباطل رجلها، رجلها الذي له تسمع، وعليه تغار[1]، فلا تطيع إلا كلمته، ولا تنصاع إلا لقوله، بل

---

(١) كثيرًا ما تستشعر في كلام الملحد أنّه يرفض نسبة أيّ فضلٍ للدين، ولا يرضى بالاستئناس بقوله ولو كان مما يعضده العلم الطبيعي، لا يحبون أن يكونوا في هذا المشهد التمثيلي:

«في هذه اللحظة يبدو كما لو أنّ العلم لن يتمكن أبدًا من أن يرفع الستار عن غموض الخلق، فبالنسبة للعالم الذي عاش بإيمانه بقوة العقل والمنطق، تنتهي القصة مثل الكابوس، فقد تسلق جبل الجهل، وبينما هو على وشك أن يقهر أعلى قمة، وإذ يجذب نفسه على آخر صخرة، يلتقي بجماعةٍ من اللاهوتيين الذين كانوا يجلسون قبله هناك منذ قرون»!

Jastrow R (1992). God and the Astronomers. New York: W. W. Norton, p.107. Via: Collins FS (2007). The language of God. Simon and Schuster. London, p. 66.
=

جعلته بطلها، بطلها الذي لا ترى في الناس غيره، تنسب له أفضالًا من رأسها، وتخترع له أقوالًا من وحي غيّها، تمامًا كما يصنع الأطفال في أبطال الوهم، ونسيت حبيبها الأول، وتحاشت ذكراه، ولا ترى في دنيا الناس إلا بطلها المزعوم، ونسيت حقيقة شأنه الذي كانت تعرفه، أنّ فيه من نقص البشريةٍ ما يعتري كلّ أحد، بله الشأن الذي لم تكن تعرفه، أنّه باطلٌ لا خيرَ فيه!

وعودة هذه النفس تستلزم الدخول عليها من كلِّ باب، لتتذكر فضل الحبيب الأول، وكيف كانت تطمئن إليه، وترضى في جنابه، وتنام قريرة العين، لا يعتريها ضنك، ولا يعكرها ذنب، ولا تهرب من أعين الناس، ولتقف على حقيقة الباطل الخادع، وكيف أن في عسله سم، وفي وده دخَن، وفي حقيقة حبه خيانة، وفي مودته إثم.. يدخلون عليها من كل باب، ولا تعود إلا أن يأذن الرب، وهي التي بدأت الهجر أول مرة!

ثمّ طال العهد.. وغدت تلك النفس مُباعةً بالتراضي للهلاك، تلعن الحبيب الأول، وتجهر بالبغض، وغدت بالتراضي ألعوبةً في يد الخائن، تحمل غُرمه، وتبارك جرمه، وتنشر ذكره، وتداري ضعفه، آلتها الحيلة، وسلاحها التخييل، بخفة اليد، وسحر القول، وقلب الحقائق، لا تفيق إلّا بقولٍ فصل، ينفي بطلها المزعوم، ويفضح حقائقها المتتابعة، فتغدو عاريةً بالإكراه، لا يستتر منها شيء، عسى أن تعود سيرتها الأولى.. والله أعلم!

= والترجمة من كتاب: «من خلق الله؟ البحث في نظرية كل شيء» لإدكار أندروز ـ ترجمة ومراجعة: هدى بهيج وسامي مورغان، صفحة ١٤.

قاصر..!

«ولو كان السجل الوحيد ذو المغزى للفكر البشري سيُكتب،
فإنّه يجب أن يكون تاريخ أسفه المتعاقب ولا قدرته»[١]

ألبر كامو

يُتقن بعض الناس ترويج السلع واختراع الأبطال، وتحويل إنسان العادة إلى مراقي السادة، ورفع بضاعة الكساد إلى مطالب الاستزادة، فمن هؤلاء فريقٌ يفعل ذلك احترافًا، فهم يعلمون حقيقة هذا المنفوخ، ولكنّهم يهوّلون أو يغيّرون حقيقته مراعاةً لمصلحةٍ ما، من رواج سلعةٍ أو فكرةٍ أو شهرة شخص، حيث يعود ذلك عليهم بفائدةٍ من جهةٍ ما، ومن هؤلاء كذلك هؤلاء المشاهدون الذين لم يُمكنهم الشراء، ترى أحدهم يرفع من شأن سلعةٍ ما كأنّه صاحبها، ويروّج لها كأنّ ربح البيع سيؤول إلى يده، ولا ينقلب رزينًا يعرف العيوب والمميزات، إلا بعد أن يخالط ويجرّب ليقف على الحقيقة!

علاقة الملحدين بالعلم الطبيعي ـ في الغالب الأعم ـ هي

(١) ألبير كامو، أسطورة سيزيف، صفحة ٢٧.

علاقة المشاهد الذي لم يجرّب، أمّا علاقة كبراؤهم فهي علاقة المحترف المستفيد، يعلم رؤوس الملحدين ما يعتري العلم الطبيعي من قصورٍ لا يُرجى له التئام، يظهر ذلك في أبحاثهم العلمية المنشورة، وفي تشككهم تجاه القضايا المطروحة، وفي مؤتمراتهم واجتماعهم بالمتخصصين في الفروع العلمية، لكنّهم حين يوجّهون حديثهم للعوام يُظهرون ثقةً كاملةٌ في قدرات العلم الطبيعي، وطبيعته الخارقة ويعدون بتفسير كل ظواهر الطبيعة، بل يؤكدون أنّنا في الطريق للسيطرة على الطبيعة!

يقول الفيزيائي ريتشارد فايمان في محاضرته بمعهد كاليفورنيا التقني سنة ١٩٧٤م عن العلم الطبيعي: «أحبّ أن أضيف شيئًا ليس ضروريًّا في العلم الطبيعي، ولكنّه شيءٌ أعتقد فيه إلى حدّ ما ألّا وهو أنّه لا ينبغي لك أن تخدع الرجل العادي عندما تتحدث بصفتك العلمية»[١]، وصدقَ فايمان في قوله إنّ هذه النزاهة ليست ضروريةً في العلم الطبيعي، فكثيرٌ من ملاحدة العلماء الطبيعيين يمارسون ذلك باحترافيةٍ شديدة، يلبس أحدهم قناع التشكك والتحفظ في كلامه الذي ينشر للمجلات العلمية، في حين يضع قناع اليقين والإطلاق الجازم في كلامه مع العامة!

يدرك العلماء جميعًا أن أهمّ القيود التي تحد من مجال العلم الطبيعي تتمثل في الإمكانات المادية، لا بد من الدعم

---

(١) R. Feynman, "Cargo Cult Science," adapted in Surely You're Joking, Mr. Feynman! from Richard Feynman's 1974 Caltech commencement address. The entire text is available on line at many locations including:
http://www.uky.edu/~holler/msc/roles/cargcult.html.

المالي الكافي لكي يستمر البحث العلمي، وكلمّا تعرض السؤال البحثي للبحث في التراكيب الأساسية والقوانين الكلية زادت النفقة التي نحتاج إليها، مثل الدراسات الجينية والوراثية في العموم، والتجارب الفيزيائية التي تبحث في علاقة القوى الفيزيائية الأربعة، والأبحاث التي تتعلق بالفضاء وأجرامه، والمحاولات التي تسعى لرصد حياة خارج الأرض!

تحتاج دراسة فيزياء الجسيمات إلى مجالات عالية من الطاقة، وكذلك البحث عن نظرية تجمع القوى الفيزيائية الأساسية (النووية الضعيفة والقوية والكهرومغناطيسية والجاذبية فيما اشتُهر باسم «نظرية كل شيء») تحتاج للعمل في مجالاتٍ عاليةٍ من الطاقة لم نصل إليها على كوكب الأرض بعد، وتوليد هذه الطاقة العالية يحتاج معامل خاصة، أشهرها وأقواها مصادم الهادرونات الكبير (LHC) *Large Hadron Collider* التابع للمنظمة الأوروبية للأبحاث النووية European Organization for Nuclear Research (المعروفة باسم سيرن CERN كذلك)، ومثل هذه المعامل وما يتم إجراؤه فيها من تجارب تتكلف الكثير، وقد قدّرت مجلة الفوربس أن تكلفة التوصل لبوزون هيغز Higgs Boson وصلت إلى حوالي ١٣ بليون دولار[١]!

دافع الضرائب الأمريكي لا يوافق على توجيه أمواله لهذه

---

(١) How Much Does It Cost To Find A Higgs Boson?
http://www.forbes.com/sites/alexknapp/2012/07/05/how-much-does-it-cost-to-find-a-higgs-boson/

المشاريع العلمية التي لا تتضح ثمرتها العملية، فهو على حد تعبير أحدهم لن يأكل الجسيمات الفزيائية[1]؟! ولذلك فأكبر المصادمات الجزيئية لا توجد في الولايات المتحدة، المواطن هناك لا يمانع أن يسافر الفيزيائي الأمريكي لأوروبا ليجري تجاربه بدلًا من أن ينفق أمواله على اكتشافاتٍ لن تغير من حياته شيئًا، ولذلك أيضًا فقد أوقف الكونجرس الأمريكي الدعم المالي لأبحاث وكالة ناسا NASA المتعلقة بالبحث عن حياةٍ ذكيةٍ خارج الأرض سنة ١٩٩٣م[2]!

الأمر يتخطى النفقات التي يحتاجها العلم، والتي قد تصل حدًّا يصعب توفيره أو يستحيل، خصوصًا إذا كان البحث من أجل المعرفة وحسب، دون أن يكون لتلك المعرفة مردودٌ يشعر به الناس، أقول إن محدودية العلم الطبيعي وقصوره تتخطى قضية النفقات تلك، لتتعلق بالأسئلة البحثية التي نطرحها نفسها، هل نحن نسير على الطريق الصحيح؟!

بعض المنجزات العلمية لم تكن تحتاج التطور التكنولوجي الذي نشعر به، بل بعض الفروع المعرفية كالطب مثلًا لم يتقدم نتيجة تراكم المعارف عبر القرون، وإنما نتيجة ثورةٍ في الخط المعرفي الذي كان يسير عليه الأطباء القدامى، من أين لنا أن

---

(١) Let them eat particles: The real crisis in American physics.
http://www.trincoll.edu/~silverma/reviews_commentary/physics_crisis.html

(٢) Garber SJ. Searching for good science: the cancellation of NASA's SETI program. Journal of The British Interplanetary Society 1999; 52:3-12.

نجزم أنّنا نسير في الطريق الصحيح؟! ما الذي أعمى القدماء عن الجواب السديد أو السؤال الموجِّه؟! ومن يدرينا أنّ الذي أعماهم لا يغشى أبصارنا تجاه بعض الأفكار؟! من يدرينا أنّ التغير الحاصل في العلم لن يقودنا نحو أسئلةٍ أخرى أقرب للطريق وأرجى للوصول للحقيقة؟! إن من أكثر ما يهز ثقتنا فيما بين أيدينا من العلم هو إدراك الحقيقة في قول عميد الطب بجامعة هارفارد تشارلز بورويل (١٩٣٥ ـ ١٩٤٩م) وهو يخاطب تلامذته: «نصف ما سنعلّمكم إيّاه خطأ، والنصف الثاني صواب، المشكلة أنّنا لا نعرف أيّ نصفٍ هو الخطأ وأيّه الصواب!!»[١]؟

إنّ الدوافع التي توجّهنا في اتجاه نوعٍ ما من الأسئلة البحثية تتفاوت بين الوضوح الشديد والخفاء المُلغز، فمن الدوافع الواضحة محاولة ملء الفراغ والجواب على مواطن الجدال في النموذج العلمي الشائع Paradigm، ومن الدوافع الخفية ذلك الأثر النفسي الذي تتركه ممارسة العلم الطبيعي في النفس، فالفيزيائيّ مثلًا قد يتوجه نحو عدة أمور تأثرًا بالفيزياء نفسها، مثل الولع باختزال الظواهر إلى مكوناتٍ أساسية، والرغبة في الوصول إلى قوى تربط هذه المكونات، ثمّ السعي وراء قانونٍ عامٍ يربط هذه القوى، ثم تعميم مخرجات هذه الدراسات على الظاهرة المركبة! فكثرة النظر والعمل في الفيزياء يولّد مثل هذه الميول

---

(١) في موقع جامعة هارفارد الذي يؤرخ للذين توافدوا على عمادة كلية الطب بجامعة هارفارد، ذكرت هذه الجملة في ترجمة تشارلز بورويل:

http://hms.harvard.edu/about-hms/facts-figures/past-deans-faculty-medicine

نحو أسئلةٍ بحثيةٍ ومشاريعَ علميةٍ بعينها وكثيرًا جدًّا ما تخفى أثر هذه الميول ولا يتضح مسلكها في التأثير!

وإن تركنا الأسئلة التي لم نسألها، والوجهات التي لم نستقبلها، فإنّنا نعلم أنّه ليس في استطاعتنا الجواب على كافة الأسئلة البحثية التي تخطر ببالنا، كما نعلم أن هناك بعض الأسئلة البحثية التي لا نستطيع جوابها بالطريقة العلمية التجريبية المُثلى، يقول ستيفين جاولد في التمثيل لبعضٍ من هذه الأسئلة البحثية «على سبيل المثال ـ وحتى هذه اللحظة على الأقل ـ فإننا لا نعرف طريقةً لصياغة سؤالٍ علميّ حول ما حدث قبل الانفجار العظيم.. وشبيهٌ بذلك أننا نعلم أنّ هناك العديد من الأحداث التطورية النوعية لم تترك أثرًا تجريبيّا وبالتالي لا نستطيع صياغة سؤالٍ علميّ حولها»(١)!

وإن كنّا صادقين مع أنفسنا واتبعنا نصيحة تشارلز بيرس: «دعنا لا نتظاهر بأننا نتشكك فلسفيًّا فيما لا نشك فيه داخل قلوبنا»(٢)، فإنّنا نعلم في قرارة أنفسنا استحالة إحاطتنا بالقوانين الحاكمة لجميع الكون، ونعلم امتناع النفس البشرية وأسرارها على الانصياع لمراودة الباحثين، ونعلم قصور أدواتنا البحثية عن قياس الكثير من الأمور المعنوية أثناء البحث، إن لسان حالنا جميعًا هو قول توماس كارليل «أنا لا أتظاهر أنني أفهم الكون،

---

(١) Stephen J. Gould. The Structure Of Evolutionary Theory. The Belknap Press of Harvard University Press. p. 790.

(٢) Charles S. Peirce. Selected Writings. New York: Dover, 1966. p. 40.

إنه أمرٌ أكبر مني بكثير»[١]، هذا شعورٌ يلازمنا ونعرفه، ومن جرّب ممارسة العلم التجريبيّ علم أنّ هذا الشعور لا يرتفع، بل يتأكد يومًا بعد يوم!

نعم. . الكون أكبر منّا بكثير، وكذلك النفس البشرية بما فيها من تعقيدات، الإحاطة بهذه النفس وبعض خصائصها إحاطةً تامة أكبر منا بكثير، يقول ستيفين واينبرغ: «إن من بين كل العلوم الاختبارية التي نحاول ربطها بمبادئ الفيزياء بوساطة أسهم التفسير، نذكر أن الإدراك الواعي هو الذي نعاني فيه كبرى الصعوبات، فنحن نعرف أشياء عن أفكارنا الواعية مباشرةً دون تدخل الحواس، فكيف إذن يمكن إدخال الوعي في نطاق الفيزياء أو الكيمياء؟ وقد أوضح الفيزيائي برايان بيبارد الذي آل إليه كرسي مكسويل كأستاذٍ في جامعة كمبردج بقوله: «المستحيل بالتأكيد هو أن يُطلب من فيزيائي نظري، مسلّح بحاسوبٍ ذي قدرةٍ غير محددة، أن يستنتج من قوانين الفيزياء أن بنيةً معقدة ما، هي بنيةٌ تعي وجودها»، أعترف أنني أجد في هذا الموضوع بالغ الصعوبة وليس عندي خبرة بأمثاله، لكنني أعتقد أنني على خلاف مع بيبارد وسواه ممن يتخذون الموقف نفسه»[٢]!

يتضح المزيد من القيود على رقاب العلم الطبيعي بمجرد

---

(١) John D. Barrow. Impossibility: the limits of science and the science of limits. Oxford university Press. p. 170.

(٢) ستيفين واينبرغ، أحلام الفيزيائيين بالعثور على نظرية نهائية جامعة شاملة، ترجمة أدهم السمان، مكتبة دار طلاس، صفحة ٤٥.

التوجه للبحث عن جوابٍ الأسئلة البحثية، فلا توجد ضمانةٌ حقيقيةٌ بعزل مؤثرات البيئة تمامًا عن مجال البحث، لا يتوقف الأمر على ما يعتري التجارب من أخطاء البشر، فهذه يمكن الوقوف عليها وتلافيها مع المراقبة والتكرار، ولكن يصل إلى حدّ وجود هامشٍ من الخطأ لا بد من وضعه في الحسبان، مثل أن تكون العلاقة السببية بين حدثٍ ما وأحد المؤثرات مردُّها إلى عنصرٍ آخر غير معلوم يربط السبب بالحدث Confounding bias، مثل أن يكون أحد المؤثرات موجودًا بنسبة لا تتمكن من رصدها أدوات القياس Censored data to the left، هذه وأمثالها من أنواع التحيزات العلمية Scientific bias والبيانات المفقودة Missing Data تجعل وجود هامشٍ من الخطأ أمرًا حتميًّا ينبغي أن يراعي، وكلما زادت المتغيرات والتراكيب التي يتعامل معها الفرع العلمي زاد هذا الهامش من الخطأ!

وتطبيقًا لوجود هذا الهامش من الخطأ فإن القيمة الاحتمالية P value إذا كانت أقل من القيمة المعنوية á level فإننا نرفض النظرية التي تنفي العلاقة بين متغيرين Null hypothesis ونقبل النظرية البديلة Alternative Hypothesis التي تثبت هذه العلاقة، وتختلف القيمة المعنوية á level باختلاف طبيعة الفرع العلمي، كلما قلّت المتغيرات التي يتعامل معها العلم قلّت القيمة المعنوية، فقيمتها في علم النفس أكبر منها في علوم الأحياء أكبر منها في علم الفيزياء، في البحث الطبي مثلًا إذا كانت القيمة الاحتمالية أقل من ٠,٠٥٪ ترفض نظرية العدم، وتثبت العلاقة بين متغيرين

ويستبعد احتمال الصدفة في العلاقة بينهما، لكن هل تحديد هذا الرقم قطعي؟! وهل لو زادت القيمة الاحتمالية عن هذه النسبة تنتفي العلاقة السببية قولًا واحدًا؟! وهل لو قلت القيمة الاحتمالية عن هذه النسبة لا يكون هناك مجالٌ للصدفة؟! كلّ تلك الأسئلة جوابها بالنفي!

ثمّ إن تطبيق الحكمة التجارية «الوسطاء يمتنعون» لا يمكن تطبيقها هنا، مع أنّ وجود الوسيط يحمل في طياته قيدًا على نتائج العملية البحثية، حتى لو كان الوسيط بينك وبين ملاحظة الطبيعة نموذجًا رياضيًّا للتوصيف، لا بد أن يكون في الحسبان أنّ هذا النموذج بدوره هو وسيطٌ في العملية البحثية، ربما وضع على تناولك للقضية البحثية قيودًا غير مطلوبة، أو يعمل على توجيهك في البحث وجهةً لا تلزم، أو يكون هو ذاته تام الاتساق الداخلي متكامل الأجزاء يصف الواقع ويتوقعه ومع ذلك لا يوافق حقيقة الواقع، وقد كان نموذج بطليموس الذي يجعل الأرض مركز المجموعة الشمسية ونموذج كوبرنيكس الذي يجعل الشمس مركزها نموذجان رياضيان يصفان الواقع ويتوقعانه بذات الدقة حتى زمان كوبرنيكس، وقد كان ترجيح كوبرنيكس لنموذجه بسبب ما أسماه التكامل المفاهيمي[١]، ثم أتى بعده زمان كان الترجيح بسبب بساطة نموذج كوبرنيكس مقارنةً بنموذج بطليموس وفقًا لشفرة أوكام التي ترجّح التفسير الأقل تعقيدًا في حال تساوى تفسيران في دقة الوصف والتعليل!

---

(١) Losee J. A Historical Introduction to the philosophy of Science (Fourth edition). Oxford University Press. p. 40.

من المعلوم أنّه عند التوجه لجواب السؤال البحثي، تزيد احتمالية الخطأ كلّما زاد عدد الوسطاء بينك وبين مباشرة البحث، عندما يدخل بينك وبين مباشرة البحث حاسوب أو فردٌ يجمع المعلومات فإنّ احتمالية الخطأ تزيد، فإن صار الفردُ فردين أو ثلاثة زادت أكثر، وهكذا.. لنفرض أنّك استغنيت عن كل هؤلاء جميعًا وباشرت العمل بنفسك، فأنت نفسك في أول الأمر وآخره لست إلا «وسيطٌ» في البحث العلمي، حتى وإن مارسته وحدك فأنت وسيطٌ بين المدخلات والمخرجات، تحمل بنفسك احتمالية الخطأ كما تحملها البيئة المحيطة بالبحث، وعلى من يتلقى النتائج التي تذكرها أن يعاملك هذه المعاملة، فيقوم بإعادة إنتاج التجربة Reproducibility ليتأكد من النتائج، ليكون بدوره وسيطًا آخر، ويقل احتمال الخطأ شيئًا فشيئًا لكنه لا ينعدم أبدًا، إذ لا يمتنع أن يكون هناك انسياقٌ خفيٌّ وراء توقعٍ داخل العقل الجمعي للباحثين Mass self-deception[(١)]!

العقل البشري نفسه ـ حتى وإن أجمعوا على حكمه في قضيةٍ ما ـ ليس وسيطًا موثوقًا إن كنتَ ممن يؤمنون بنظرية التطور الباطلة، فالعقل الذي نتج عن التطور نتج عن عمليةٍ عشوائيةٍ لم يكن الإنسان في حسبانها، ولذا فنتاج هذه العملية موصوفٌ بقول سيدني برينر: «أيُّ شيءٍ نتج من التطور فهو مرتبطٌ بشكلٍ من

(١) انظر على سبيل المثال حكاية حادثة اكتشاف الفيزيائي الفرنسي رينيه بلوندلو لآشعة N-rays في مقال «وأجمعوا».

الفوضى»[١]، ويبيّن جون بارو هذه المعضلة بقوله: «لو كانت عقولنا تطورت ابتداءً للتعامل مع تعاقب البيئات المعقدة التي واجهت آباءنا الأقدمين لملايين السنين، فبالتالي ستؤثر هذه العملية في عقولنا بانحيازاتٍ معينةٍ كانت مناسبةً للتعامل مع المشاكل التي واجهتها، هذه المشاكل لم تكن تشتمل اجتياز ورقة الامتحان في فيزياء الجسيمات أو توضيح رياضيات التناظر، ولكن ربما تكون هذه الأشياء المخصوصة قد ظهرت كنتيجةٍ ثانويةٍ لشيءٍ أساسيٍّ في تحقق الانتخاب»[٢]، وبالتالي: «ليس هناك سببٌ معقولٌ لنتوقع أنّ المخ البشري هو أفضل أداةٍ ممكنةٍ للتفكير[٣]»، ولذلك يرى ريتشارد رورتي أن العلم الطبيعي نفسه هو مشروعٌ إنسانيٌّ للتكيف مع العالم وليس بحثًا أو سعيا لمعرفة الحقيقة.. وبالتالي يكون العلم الطبيعي نفسه منتجًا تطوريًّا تدخله الفوضى[٤]!

حتى لو لم تكن تؤمن بنظرية التطور، فإنّه لا يوجد أحد إلّا ويسّلم أن العقل حين يتناول ظاهرةً أو قضيةً، فإنّه يتناولها على مستوى معيّن من الاختزال أو التركيب، لتكون دراسته لصورةٍ معينةٍ أو مستوى معينٍ من الظاهرة، لا يمكن أن يدرس الظاهرة

(١) Via: Lewin R. Why is development so illogical? Science 1984;, 224: 1327..

(٢) John D. Barrow. Impossibility: the limits of science and the science of limits. Oxford university Press. p. 89.

(٣) John D. Barrow. Impossibility: the limits of science and the science of limits. Oxford university Press. p. 90.

(٤) John D. Barrow. Impossibility: the limits of science and the science of limits. Oxford university Press. p. 90.

في كل المستويات وفي كل البيئات، وأن يحيط بجميع ما لها من علاقات ومؤثرات، أنت تستطيع أن تراقب سلوك فردٍ ما، لكنّك لن تستطيع أن تراقبه في كل الأوقات، وفي كل الأحوال، وفي كل الخطرات، وإن راقبته وحده فلن تستطيع رصد تفاعلاته مع الآخرين، سواءً من يحبهم ومن يبغضهم، من يحترمهم ومن يحتقرهم، لا بد حين تدرس شخصٍ ما أن تلتقطه في إطارٍ معينٍ، كذلك العقل حين يتعرض لدراسة ظاهرةٍ أو قضيةٍ يتناولها بصورة معينةٍ من الاختزال، لا يمكن أن يدرس النفس البشرية ككل، ولا العالم ككل!

يقول كافكا فيما يوضح المقصود من استحالة الإحاطة بكافة صور الظاهرة محل الدراسة ومستوياتها علاقتها بكافة الظواهر: «من غير الممكن على الإطلاق ملاحظة كل الظروف المؤثرة في مزاج اللحظة وتقييمها، كما أنه من غير الممكن العمل في إطارها أو في تقييمها»[1]، ويقول ستيفن واينبرغ في المشكلات التي تواجه التوصل إلى قوانين نهائية: «التعقيد الذي يمنعنا من أن نكون قادرين بالفعل على تفسير كل شيء، حتى عندما نقصر اهتمامنا على العالميات»، ثم يبني عليها مشكلةً أخرى: «ويوجد مسألةٌ أخرى لا بد من مواجهتها، مسألةٌ ذات صلة بالكلمة الطنانة «انبثاق»، فعندما نتطلع إلى الطبيعة في مستوياتٍ أكثر فأكثر تعقيدًا نرى ظواهر تنبثق دون أن يكون لها ما يقابلها في المستويات

(١) فرانتس كافكا. يوميات فرانتس كافكا ١٩١٠ ـ ١٩٢٣م. تحرير ماكس برود، ترجمة وتقديم خليل الشيخ، صفحة ٢٨٢.

الأبسط، وأقلها جميعًا مستوى الجسيمات العنصرية، إذ لا يوجد مثلًا في مستوى الخلايا الحية الإفرادية أي شيءٍ يشبه الذكاء، ولا أي شيءٍ يشبه الحياة في مستوى الذرات والجزيئات، وقد أدرك الفيزيائي فيليب أندرسون بشكلٍ جيد فكرة الانبثاق في عنوان مقالةٍ نشرت عام ١٩٧٢م بعنوان «الأكثر مختلف»، إن انبثاق ظواهر جديدة في مستويات عالية من التعقيد يحدث بأكبر وضوح في البيولوجيا وعلم السلوك، ولكن من المهم الاعتراف بأن مثل هذا الانبثاق لا يمثل شيئًا خاصًا في مجال الحياة وشؤون البشر، فهو يحدث أيضًا ضمن الفيزياء نفسها»[١].

كذلك تناول العلوم التي فيها شقٌّ تاريخي كالأحياء Biology ودراسة طبقات الأرض Geology وعلم الكونيات cosmology، تناول هذه العلوم بما فيها من شقّ تاريخيٍّ يحمل في طياته إشكالًا يوضحه ستيفين واينبرغ بقوله: «إن تسلل الطوارئ التاريخية إلى قلب العلوم يعني أيضًا أننا يجب أن ننتبه إلى نوع التفسيرات التي نتوخاها من قوانيننا النهائية، فعندما بدأ نيوتن مثلًا باقتراح قوانينه الحركية والثقالية، واجه اعتراضًا يقول بأن هذه القوانين لا تفسر ما نراه من استقرارٍ في سلوك المنظومة الشمسية؛ أي: سبب دوران الكواكب كلها حول الشمس باتجاهٍ واحد، ولكننا نعلم اليوم أن السبب تاريخي. . . . فاستقلال القوانين عن التاريخ قضيةٌ مركبةٌ من القضايا التي نواظب على تعلّم كيفية التعامل معها. . . .

(١) ستيفين واينبرغ، أحلام الفيزيائيين بالعثور على نظرية نهائية جامعة شاملة، ترجمة أدهم السمان، مكتبة دار طلاس، صفحة ٤١ ـ ٤٢.

وليس من الممكن فحسب أن يكون ما نعتبره كظروفٍ بدئيةٍ اعتباطيةٍ قابلًا لأن يُستنتج في نهاية الأمر من قوانينَ عالميةِ الشمول، بل وعلى العكس من ذلك قد يتبين في النهاية أن المبادئ التي نعتبرها اليوم قوانين عالمية هي طوارئ تاريخية»[1].

الأمر الآخر الذي يرتبط بمحدودية قدراتنا العقلية على الرغم من الموثوقية بكافة أحكامها، ومع التسليم بوصولنا لدراسة الظواهر والقضايا على كافة المستويات وبجميع العلاقات، والوصول إلى القوانين الحاكمة لهذه الظواهر محل الدراسة، فإنّه لا يمكن الوصول إلى كافة مخرجات هذه القوانين، والآثار المترتبة على هذه القوانين، كيف ستصل إلى كافة المخرجات في عالمٍ يُقال فيه إنّ طيران فراشةٍ في أقصى شرق العالم قد يؤدي إلى إعصار في غربيّه Butterfly effect!

وكذلك تبرز محدودية العقل البشري ـ والعلم الطبيعي الذي هو أحد منتجاته من باب أولى ـ من عدم قدرته على إنتاج منظومةٍ مغلقةٍ تامّة البرهان، هناك مسلّماتٌ يُبنى عليها العلم الطبيعي كلُّه، بل يُبنى عليها الوثوق في الفكر الإنساني عمومًا، أن كل فرعٍ من فروع العلم الطبيعي لا بد أن يبنى على الحد الأدنى من المسلّمات غير المبرهنة، وتمتنع البرهنة على كل مقدمةٍ لأن البرهان يعتمد على مقدمةٍ للمقدمة، وهكذا تفتقر كلّ مقدمةٍ إلى مقدمةٍ تبرهنها إلى ما لانهاية، وهذا من التسلسل الممتنع! وقد

(١) السابق، صفحة ٤١.

برهن الرياضي المنطقي ذلك كورت جودل في نظرياته عن عدم الاكتمال Incompleteness theories، ليثبت أنّه لا يمكن استنتاج كافة معطيات علم الحساب من خلال لغة الحساب وحدها، المنظومة لا تُثبت من داخلها، لا يوجد نظام استنتاج مغلق تام الإثبات، لا بد من إثباتٍ خارجيٍّ يدعم المنظومة، كذلك منظومة العلم الطبيعي لا يمكن أن تكون تامة البرهان على كافة مقدماته ونتائجها!

وبعدُ فهذا القصور اللازم للعلم الطبيعي في رجاله ودوافعهم، وأسئلته والأمل في جوابها، وآلته وطريقته، ووسطائه ومتطلباته المادية، واختزال الظواهر محل دراسته وتعقيدها، ودراسة الماضي والإحاطة بأحداثه، وبرهنة مقدماته واستقصاء مخرجاته، يجعل من المعتمد عليه وحده متشككًا مضطربًا وإن ادعى ما شاء من اليقين الجازم، وكيف يستشعر النبل من يشك في نسبه لآبائه؟!

تناقض..!!

بقدر ما ظلمنا النعام اغترَّ بعضنا بمُلْحِدة الزمان فظلمهم، وطالما حدثونا ـ وكذبوا ـ أنّ النعام يدفن رأسه في الرمال ظنًّا منه أنه طالما لا يري صائدَه فإنّ صائدَه لا يراه، أيها السادة! النعام لا يفعل ذلك!! لكنَّ هناك من يعيش في عالمٍ من نسج خياله، لا.. بل دفنَ رأسه في أوحاله، فإن تكلم عنْ الوجود والسببية دَفَنَ رأسه في وحلٍ ضيق المسام كثير الأسقام، فإن أراد أن يحي حي عن بينةٍ من أمره في كل ما أراد، وسار رافعًا رأسه معملًا فكره.. فبينا هو يسير إذ سأله سائلٌ عن مبدأ الأمر وآخره، فاستأذنه ثم دفن رأسه، وأتانا بما «يصمُّ السميع ويعمي البصير، ويُسْأَل من مثله العافية»!!

أيها السادة! عن الملحد أحدثكم.. الملحد يفعل ذلك!! ويشقي الإنسان إن زاد اسمه عن حقيقته، فمن ظنّ في الملحدين غير ذلك فقد ظلمهم، علّك تقول: رويدك رويدك!! فما برهان هذا الذمّ! قلتُ: خلاك ذمٌّ!!

قال: ففصِّل ما أوجزت!

قلتُ: الناس أشكالٌ وطبائع، وأخلاق تكتسب وأخري جبلية، وفي الدنيا مصائبُ تذر الديار بلاقع، فعلي قدر اختلاف الناس في صفاتهم يختلفون في مواجهة المصائب المتتالية، بل يختلف سلوك الإنسان ذاته بين مشكلةٍ وأختها، فواحدةٌ تحل بحقها، وأخري تُرْجَي إلي حين لعلّها تقضي نحبها، وأخري معلقة، فمن الناس من يحاول إقناع نفسه بأنه لا مشكلة، وهذه المحاولات هي الحيل الدفاعية، أليس كذلك يا أخي؟!

قال: ويح الشيطان!! أشترط عليك شرطًا عزمت عليك ألا تنقضه، أقسمتُ عليك أن تدع المقدمات وتلج إلى الباب، علنا نبلغ المنزل، وعن سؤالك أقول: بلي هو كذلك!

قلتُ ململمًا شتات الحوار: لك ذلك! فالملحد رأي نفسه في مشكلة!

كيف!؟

قلتُ: يتبع منهجًا لا يُثْبِتُه، وإن تحدث لا يُنْصِفُه، وإن جادل لا يَنْصُرُه، وإن انفرد لا يركن إليه! فماذا فعل؟! أَسَرَّ في نفسه ألا يدخلنها اليوم عليكم عاقلٌ فضلا عن مجادل، فعاش بمبادئ غير المبادئ وبني لنفسه عالمًا غير العالم! لا يعرفه إلا هو ومن على شاكلته! وأكثر من ذلك، صار هو نفسه يعيش في هذا العالم المتوهم إن كان الأمر متعلقًا بإلحاده.. فإن كان الأمر متعلقًا بعمله أو بماله أو بأهله، أو بأيِّ شيءٍ غير إلحاده، ترك

عالمه الوحليّ ذاك، وعاد يسير رافعًا رأسه معملًا فكره؛ كأنّه من الناس والناس منه، فإن أثير ما يقترب من نقض الإلحاد ولو من بعيد، عاد إلي دفن الرأس في الوحل ضيق المسام كثير الأسقام!

قال: الكلام جميل، فقل لي أين الدليل قبل أن ينفد صبري الجميل؟

قلت: الدليل يطول، وبالمثال يتضح المقال، فسأحدثك حتى ترضي!

قال: ويح الشيطان!! أنساني أن أسألك عن اسم الحيلة الدفاعية التي يعيش صاحبها في عالمٍ غير العالم، حتى يظن أنّه ليس ثَمَّ مشكلة!

قلت: سمِّها ما شئت! الأحلام المَرَضية في اليقظة، الهروب المَرَضي إلي الخيال، وأفضل من ذلك «حيلةٌ استنكف النعام عن فعلها»!

قال: فهات ما عندك.

المثال الأول: الملحد في مختبره أو معمله:

المشهد الأول من عالم الأحياء:

هذا الملحد دأب علي دراسة الكائن المسبب لمرضٍ من الأمراض، وهذا المرض المعروف عنه أن سببه غير معروف حتي الآن "Idiopathic"، ولكن الملحد يعمل واصلًا ليله بنهاره لأنه يعلم أن هذه الأعراض أعراض عدوي بكتيرية في الغالب، وأن وسيلة انتشار المرض توحي بأنه نوعٌ من البكتريا التي تنتشر عن

طريق الطعام مثلًا، وذلك يجعله في همٍّ دائم «متي سأصل إلي الكائن المسبب لهذا المرض»؟!

المشهد الثاني من عالم الأوحال:

هذا الملحد بعينه وَقَفَه شخصٌ مسلمٌ، سأله عن رأيه في السببية كوسيلةٍ لإثبات وجود الخالق، فحكّ الملحد لَحْيَيَه، وقال ـ وليته سكت ـ: «لعل الكون هو الشيء الوحيد الذي لا سبب له»!

ولم ذا؟! لماذا لم يخطر في قلب الملحد ولا لمع أمام عينيه خاطرٌ ـ وهو في معمله ـ ليقول في نفسه «لعل هذا المرض هو الشيء الوحيد الذي لا سبب له»؟! لماذا وهو في المعمل لا يدفن رأسه في الوحل كما أجاب المسلم؟!

المثال الثاني: الملحد في متجره:

المشهد الأول من عالم الأحياء:

التاجر الذكي هو الذي يختار المنهج الذي يكون به فائزًا على أية حال، هذه هي الحكمة التي يزن بها الملحد صفقاته قبل البتِّ في الإقدام عليها من عدمه!

المشهد الثاني من عالم الأوحال:

هذا التاجر نفسه أمامه طريقان: «الإيمان: إن صح فاز وربح وإن أخطأ ما خسر» أو «الإلحاد: إن صح فلا بأس وإن أخطأ خسر واشتد عليه البأس»، ولو كانت المقارنة هكذا مجردةً لأمكن للعاقل أن يجزم باختيار الإيمان، فكيف والإلحاد عورةٌ

فكرية؟! فكيف والإيمان نورٌ وبرهان؟!! فكيف والإيمان خيرٌ كله والإلحاد لا خير فيه؟! ولكن هذا التاجر اختار الإلحاد.

ولا تعقيب..!

المثال الثالث: الملحد وسط تلامذته:

المشهد الأول من عالم الأحياء:

وقف رافعًا رأسه معملًا فكره، وقال: «وهكذا أيّها الأعزاء! فإنّ من القواعد التي تعينك في مسايرة الحياة واتخاذ القرارات أن اليقين لا ينتقل عنه للشك، وكلّه بالعقل، معيار الحكم عندنا هو العقل وحسب!»... كانت هذه آخر الكلمات قبل أن يدع طلبته ويلملم أوراقه ليخرج مارًّا بالشارع إلي بيته!

المشهد الثاني من عالم الأوحال:

بينا هو في الشارع مرّ به صديقٌ من أيام الصبا، فسأله بعد التحية والمقدمات: «أما آن لك أن ترجع إلي سابق عهدك، أعني ترجع كما كنت قبل أن تلحد ويهجرك كل من عرف بشأن إلحادك!»، أجاب: «لا! لم يئن بعد!» وابتسم ابتسامةً حاول أن يجمع فيها ما يمكن جمعه من ثقةٍ في ابتسامة، قال المسلم: «فحدثني هل مازلت على إنكارك لوجود الله، أم أنك وصلت لمنحدرٍ جديد؟!!»، فأجاب: «لا! أنا الآن لا أثبت ولا أنفي؛ لأني بتُّ أشك في قدرة العقل على إثبات وجود الإلٰه والبرهنة عليه!»

فأنت تري الملحد كان علي يقينٍ من أمره في دينه، والآن صار «لا يثبت ولا ينفي»؛ أي: صار «متوقفًا» بعد أن كان علي

يقينٍ أو علي الأقل على ظنٍّ غالب، فلم ترك اليقين إلي المحال وهو الإلحاد الذي ينفي وجود الإلٰه ـ ولا يمكن أن يثبت ذلك ـ ثم إلي الشك وهو اللاأدرية؟! ولم تخلّى عن قدرة العقل مع أنّه الزاعم أنّ «كله بالعقل»؟!

وهكذا . .

هكذا يمتاز الملحد بالفصام بين القول والفعل فهو صوفيٌّ عند الشدائد، راديكاليٌّ عند اختيار الزوجة، متديّنٌ حين تواجهه معضلات الأخلاق. . ولكنه بالنهاية ملحد! وهذا تناقض! يرفض إثبات موافقة القرآن لحقائق العلم بحجة تغير العلم، ولكنه يلحد بسبب مخالفة نظريات العلم للقرآن! وهذا تناقض! يكفر بالله لوجود الشر في العالم ثم يعظّم العقل البشري! وهذا تناقض! يرفض رهان باسكال لأنه لم يبني «إيمانه» على شك، ولكنه لا يمانع أن يكفر بالله تقليدًا! وهذا تناقض! يرفض الحديث المتواتر إذ يسرده المتدين، ويرضى بخبر الآحاد يلقيه إليه «الباحث» وفق «شروطه»! وهذا تناقض! يدعي التمسك بعلوم وليدة كالجينالوجي في إثبات الأنساب، ولكنه يكتفي بالقسم بشرف أمِّه على نسبته لأبيه! وهذا تناقض! يحدثك عن كثرة الاختلافات ليدلل على غموض الأصل، ويتشبث بالفلسفة التي ما اجتمع أهلها على شيء ولو يسيرًا! وهذا تناقض! يأخذ على المؤمن يقينه بما تعلم من آبائه، ويتعصب لمقالةٍ في مجلةٍ لا يعلم عن قواعد النشر فيها شيئًا! وهذا تناقض! يدعي إمكانية عدم وجوده شخصيًّا مخالفةً للبديهة، ولكنه قد يفتعل معركةً من أجل بضعة جنيهاتٍ وضعها ولم يجدها! وهذا تناقض!

نظرية..!

«لكي تتحدث عن طبيعة الكون وتناقش أسئلةً تتعلق ببدايته ونهايته، يجب أن يكون معنى النظرية العلمية واضحًا لديك»

ستيفين هوكنج(١)

مكعب، مكعبان، أربعة مكعبات، . . . (وضعها أحد الناس، بجوار كومة من المكعبات وانصرف).

وصفك لما تراه من عدد المكعبات المصفوفة بناءً على المشاهدة الحسية يمثّل (حقيقة)، خصوصًا إذا تأكدت مشاهدتك بمشاهدة غيرك الذي لا يتهم في حسه وعقله، أما لو حاولت تفسير هذه الطريقة في وضع المكعبات بدون الرجوع إلى الشخص الذي وضعها فإن تلك المحاولة تسمى (النظرية)، من خلال وصولك لتفسير ما تشاهده يمكنك أن «تتوقع» عدد المكعبات في المجموعة التالية منها، هذا هو مثال للفرق بين (الحقيقة العلمية) و(النظرية العلمية).

(١) Stephen Hawking (1988). A brief history of time: From the big bang to black holes. New York: Bantam. p. 9.

يمكن أن يكون تفسيرك لعدد المكعبات أن كل مجموعة تساوي ضعف عدد المجموعة التي تسبقها، فتكون المصفوفة كالتالي (١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٨)؛ أي: أن المجموعة التالية ستحتوي على ثمان مكعبات، أو يمكنك أن تفسر عدد المكعبات أن المجموعة الثانية تساوي المجموعة الأولى + ١، وأن المجموعة الثالثة تساوي المجموعة الثانية + ٢، وأن المجموعة الرابعة تساوي المجموعة الثالثة + ٣، فتكون المصفوفة هكذا (١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٧).. وهكذا! فهذا تفسيران للمشاهد من ترتيب المكعبات، كلاهما صحيح في تفسير المشهود، وكلاهما يتوقع نتيجةً مختلفة! كلا التفسيرين يصلح أن يكون مثالًا على (الفرضية العلمية)!

إذا أردتَ الترجيح بين هذين التفسيرين، فيمكن ذلك بالتجربة مثلًا، فعلى جانب قد تذهب لتجد أن كومة المكعبات المتبقية لا تحتوي أكثر من سبعة مكعبات، عندها تكون الفرضية الأولى التي تتوقع أن العدد الرابع هو ثمانية خطأ لأن المكعبات المتبقية سبعة، ولا نقول إنه يثبت بذلك صحة الفرضية الثانية، ولكنها تبقى النظرية الأكثر قبولًا، ربما يكون هناك ما سيثبت خطأها في المستقبل.. وعلى الجانب الآخر قد تذهب فتجد كومة المكعبات بها ثمانية مكعبات، فيمكن عندها أن ترجّح الفرضية الأولى لأنها أقل تعقيدًا من الفرضية الثانية، لكن هذا لا يجعلك تجزم أن الفرضية الأولى كانت هي المقصودة من الشخص الذي وضع المكعبات.. هذا تمثيل للترجيح بين النظريات أو الفرضيات عن طريق التجربة التي تثبت خطأ الفرضية، أو عن طريق شفرة أوكام!

هذا تمثيلٌ ميسرٌ لبيان الفرق بين الحقيقة والفرضية والنظرية في العلم الطبيعي، كل هذا ينبني بالأصل على الملاحظة التجريبية للطبيعة من حولنا، وكلّ هذا لا بأس به وفيه من النفع الكثير، وقد تحققت منه الفائدة في علوم الطب والزراعة والصناعة وغيرها، لكنّ الذي يؤذينا من هذا أن يأتي أحد العقلاء ليزعم أن الشخص الذي وضع المكعبات غير موجود؛ لأنّه يمكن استنتاج تفسير ما يراه بدون الحاجة للرجوع لهذا الشخص!! ولنستوعب هذا المثال جيدًا؛ لأننا سنحتاجه فيما نستقبل من الكلام..

إنّ المعنى المقصود من النظرية العلمية لا يساوي الحدس أو الظن أو التخرص، النظرية هي جواب سؤال «كيف تسير الأمور؟» بالطريقة العلمية، اعتمادًا على المشاهدات وجمعًا بين الحقائق والمعلومات، من خلالها يمكن تفسير ما حدث وتوقع ما سيحدث، تتوالى المشاهدات وتتحقق التنبؤات فتدعم النظرية، أو بالعكس تناقضها المشاهدات وتتخلف تنبؤاتها فتضعف النظرية أو ترفض بالكلية، ولذلك فالنظرية العلمية تعد أكثر أهميةً من الحقيقة العلمية من جهة أنها تبعث الحيوية والحراك والنشاط العلمي، لا من جهة قوة ثبوتها مقارنةً بالحقيقة العلمية كما يشغّب بعض من لا علم له بالعلم!

لا بد أن تراعي النظرية العلمية المشاهدات والحقائق حين وضعها، وكمثال على عدم وضع المشاهدات والحقائق المنظورة في الحسبان حين صياغة النظرية، نأخذ موقف نظرية الداروينية من السجل الأحفوري، فقد كان المفترض وفقًا لنظرية داروين أن

يكون السجل الأحفوري شاهدًا على الحلقات الوسيطة المنقرضة، ولكنّه لم يكن كذلك، ولم يغيّر داروين نظريته، وإنما اتهم السجل الأحفوري بالنقص في الفصل العاشر من كتابه أصل الأنواع، وظلّ السجل الأحفوري ناقصًا حتى الآن[١]، لا يعطي أي دعمٍ للتطور عن طريق الانتخاب الطبيعي والتغيرات التدريجية الطفيفة التي تعزو لها الداروينية نشوء الأنواع، حتى تبنى جاولد وإلدردج ومن قبلهما جولدشميدت حدوث التطور في صورة قفزاتٍ وليس في صورة تدريجية[٢]!

ونحن أمام موقفين لا ينبغي لنا الرضا بهما تجاه النظرية العلمية، الموقف الأول وهو الموقف الذي يجعل من النظرية العلمية مجرد «حدس» شخصيٍّ لا قيمة له، وهذا موقف من لا يعرف مباحث العلم الطبيعي ومبانيها، خذ مثالًا على ذلك النظرية التي وضعها العالم الفرنسي لويس باستور Louis Pasteur عن دور الميكروبات في الأمراض The germ theory of disease، فالحقائق المتاحة أن عندنا مريضًا ومرضًا وميكروبًا تم فصله من جسد المريض، وأن هذا الميكروب حين حُقِنَ بجسد حيوانٍ سليمٍ أصابه المرض، والذي نفسر به هذه المشاهدات هو أن هذا الميكروب بعينه يسبب هذا المرض بعينه، تبقى هذه النظرية في غاية القوة وعليها مبنى كثيرٍ من مباحث الطب وتطبيقاته، ولكن

(١) George Gaylord Simpson (1944). Tempo and Mode in Evolution. New York, Columbia University Press. P. 107.

(٢) Stephen J. Gould. The Structure Of Evolutionary Theory. The Belknap Press of Harvard University Press.

أليس من الممكن أن يكون هناك أمرٌ آخر مصاحب للميكروب هو السبب في المرض Confounding bias؟! ممكن.. لكن حتى الآن هذه النظرية صحيحة، وتتوقع حدوث المرض ونقله، وتساعد في منعه والحد من نشره! فمن الذي يقلل من قدر النظرية العلمية بعد هذا المثال؟!

على الجانب الآخر تقع مظاهر خيانة العلم الطبيعي والهوس به، بمحاولة وأد التشكك الذي يقوم به العلم الطبيعي، حين يدّعي أحدهم أن النظرية العلمية ـ عمومًا ـ أكثر أهمية من الحقيقة العلمية من جهة ثبوتها، لا من جهة التحدي العقلي الذي يبعث الحيوية في مجال العلم الطبيعي، أو حين يدّعي أحدهم أنّ نظريةً بعينها قد صارت حقيقةً علمية، مع أنّه يعلم أنّها ليست إلا تفسيرًا للظواهر المشهودة، لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تتحول إلى حقيقة!

خذ مثالًا من وحي رياضيات فيثاغورس، في سنة ١٧٧٢م افترض يوهان تيتيوس وابن بلده وسميّه يوهان بود أنّ المسافة بين كواكب المجموعة الشمسية والشمس يمكن تمثيله واستنتاجه بمتواليةٍ هندسيةٍ على الصورة (٣، ٦، ١٢، ٢٤، ٤٨، ... إلخ)، حيث يضاف أربعة لكل رقم من هذه المتوالية ثم تتم قسمته على ١٠ مضروبًا في الوحدة الفلكية Astronomical Units (AU) (الوحدة الفلكية: هي متوسط المسافة بين الأرض ومركز الشمس؛ أي: حوالي ٩٣ مليون ميلًا)[١]، فمثلًا المسافة بين

(١) Robert E. Krebs. Encyclopedia of Scientific Principles, Laws, and Theories (Volume 1: A-K). p. 59-60.

الزهرة ـ ثاني الكواكب ـ ومركز الشمس ستكون (٣+٤)/ ١٠ وحدة فلكية؛ يعني: ٠,٧ وحدة فلكية.

عرف هذا القانون باسم بود Bode's Law، كان هذا القانون يسري على عطارد والزهرة والأرض والمريخ، وكان يسري على المشترى وزحل باعتبارهما الكوكب السادس والكوكب السابع، وكأن هناك كوكبًا مفقودًا بين المريخ والمشترى، ولم يكن له كبير أثرٍ في أوساط الفلكيين، حتى سنة ١٧٨١م حين اكتُشِفَ كوكبٌ جديدٌ بعد زحل على نفس المسافة التي يتوقعها قانون بود تقريبًا، حتى قيل إن بود هو الذي أسماه باسم إلٰه السماء عند الإغريق «أورانوس»، ثم اكتُشِف الكوكب المفقود باكتشاف كويكب سيريس Ceres، وبذلك صدق قانون بود في وصف ستة كواكب من المجموعة الشمسية، وفي توقع مكان كوكبين من كواكب المجموعة.. فهل بذلك يمكن الاطمئنان إلى صدق القانون ونقله من إطار النظرية أو القانون إلى إطار الحقيقة؟!

في سنة ١٨٦٤م اكتشف الفلكي يوهان جاللي كوكب نبتون، وقد كان ينبغي أن يكون على بعد ٣٨٨ وحدة فلكية وفقًا لقانون بود، ولكنّ متوسط المسافة بينه وبين مركز الشمس كانت ٣٠٠ وحدة فلكية، بهذا الاكتشاف فقد قانون بود أهميته ولم يعد متسقًا في وصف مواقع كواكب المجموعة الشمسية ولا في توقع مواقعها، رغم أنّه أصاب مرارًا إلا أن ثبوت تخطئته مرةً واحدة كان كفيلًا بطرح القانون!

ومن نظائر هذا المثال الرياضي وأشباهه، فإنّ جمهور فلاسفة العلم الطبيعي على تقرير أنّ النظرية العلمية لا يمكن إثبات صحتها وإنما يمكن إثبات خطئها Falsifiablity، وكان كارل بوبر وإرنست ناجل على رأس هؤلاء الفلاسفة[١]، يقول بوبر إنه بعد صياغة النظرية وما يشتق منها من نتائج «نبحث عن قرارٍ بمقارنتها بنتائج التطبيقات العملية والتجارب، فإن كان هذا القرار إيجابيًا ـ ذلك بأن يكون هذا الاستنتاج المفرد مقبولًا أو ثبتت صحته فتكون النظرية ـ حتى الوقت الراهن ـ نجحت في الاختبار وليس عندنا سببٌ لطرحها، بينما إن كان القرار سلبيًّا أو بمعنى آخر حين يثبت خطأ هذا الاستنتاج فإن خطؤه يثبت خطأ النظرية التي استُنتج منها منطقيّا، يجب ملاحظة أن القرار الإيجابي يستطيع دعم النظرية مؤقتًا، بينما القرارات السلبية تُسقط النظرية دائمًا»[٢].

لا يمكن أن تصل إلى يقينٍ مطلقٍ بشأن النظرية العلمية، نعم.. قد تصل إلى نتيجةٍ مفادها أنّها أفضل التفسيرات، وأنّها تتسق مع كافة المشاهدات والحقائق، لكن لن تستطيع يومًا أن تجعل من هذا التفسير «حقيقةً علمية»، لا يمكن أن تجزم أن صاحب المكعبات كان يريد تلك الطريقة بعينها، ربما كان صاحب المكعبات يضعها خبط عشواء بغير نظامٍ أصلًا، فمن أين

(١) Popper, K (1959). The logic of scientific discovery. New York: Harper & Row.
- Nagel, E (1961). The structure of science: Problems in the logic of scientific explanation. New York: Harcourt, Brace and World.

(٢) Popper K (1959). The logic of scientific discovery. New York: Harper & Row. P. 10

تجزم؟! ولذلك.. ولذلك يتضح مدى التهور الذي يقدم عليه التطوريون حين يقولون إن نظرية التطور لم تعد نظرية، «بل هي أبعد بكثيرٍ من أن تكون نظرية.. التطور حقيقة»[1]!

الأمر الآخر الذي يجب أن تكون عليه أية نظرية في العلم التجريبي، هو أن تخلو من أية إشارةٍ لقوى غير طبيعية أو لما وراء الطبيعة، لا يُسمح لك أن تسأل واضع المكعبات عن غرضه من وضعها، ليس لك إلّا أن تحاول تفسير سبب وضع المكعبات على هذه الصورة، دون أن تطلب من واضعها أن يفصح عن مراده، وهذا الشرط في النظرية العلمية يمنع من رد كثيرٍ من الفجوات العلمية لقوى خارقة، وهو ما يؤدي إلى إيقاف البحث العلمي لو سُمح به، ومرد هذه الشرط يرجع إلى كون ما وراء الطبيعة لا يمكن إخضاعه للتجربة وإثبات صحته أو خطئه!

هذا القيد الموضوع كسياج للعلم الطبيعي، هو الذي يمنع من تداول المقالات المتحدثة عن وجود الخالق في المجلات العلمية، وهذا أمرٌ مفهوم تمامًا كما أنّ عدم تداول المقالات الطبية في المجلات الهندسية أمرٌ مفهوم؛ لأنّها خارجة عن موضوع تلك المجلات، دون أن ينتقص ذلك من قيمة المقالات الطبية، لكن الخطأ يقع حين يبني أحدهم عدم وجود الخالق على كون المقالات العلمية لا تذكر ذلك.. أن يدعي أحدهم أن واضع المكعبات غير موجود لمجرد أنّه لا يُسمح له أن يسأله أو

---

(١) Coyne JA. Why evolution is true? Oxford University Press. p. 13.

يسمع منه، فهذه مصادرةٌ مبناها أن العلم الطبيعي لا يسمح بدراسة ما وراء الطبيعة كوجود الخالق، وإذن فالخالق غير موجود لأنّه لا يوجد في منتجات العلم الطبيعي ما يشير إليه؟! أي دائرةٍ مفرغةٍ تصطاد الغافلين تلك؟!

ثم إنّ من اللوازم التي لا ينفك عنها العلم الطبيعي، أنّه برغم محاولة رفض أي عنصرٍ غيبيٍّ لا يمكن إخضاعه للتخطئة، إلا أنّه لا بد من وجود هذا العنصر الغيبي في مبنى العلم الطبيعي، فالأمر كما يقرر ريتشارد ريتشاردز ـ المتخصص في فلسفة العلم الطبيعي ـ وهو يتعرض لمشكلة تعريف النوع في نظرية التطور «إن كل فرع من فروع العلم الطبيعي له مسائله الغيبية»[1]، أو كما يقول كابلان: «نحتاج المفاهيم المناسبة لصياغة نظريةٍ جيدة، ولكن نحتاج نظريةً جيدةً للوصول للمفاهيم المناسبة»[2]! ومثل هذا السلوك الحتمي بقبول بعض القواعد الغيبية غير المبرهنة كأساسٍ للعلم الطبيعي ورفض دخول غيرها من الغيبيات، يمكن تفهمه في إطار تحديد مباحث علمٍ ما، ولكن يكون هذا السلوك علامة من علامات التناقض حين يصاحبه إنكار كافة المسائل الغيبية التي لم تدخل كأصول للعلم الطبيعي. . وبالمثال يتضح المقال!

يقول بول ليركوين وليندا ستون في كتابهما المعنون «التطور

(١) Richard A. Richards. The Species Problem: A Philosophical Analysis. Cambridge University Press. p. 147.

(٢) Kaplan, A (1964). The conduct of inquiry. San Francisco: Chandler. p. 53.

وخرافات الخلق الدينية.. كيف يرد علماء الطبيعة؟»[1] والذي يتضح من عنوانه توجه الكاتبين، يرفضان التصميم الذكي ويرون أنّه ليس من مادة العلم الطبيعي لأنّه يُبنى على وجود الإله، والإلٰه لا يمكن إخضاعه للتجربة وبالتالي يرفضانه، وفي ذات الصفحة يقولان نصًّا «العلم الطبيعي كذلك مبنيّ على بعض الافتراضات، إحدى هذه الافتراضات المهمة أنّ قوانين الطبيعة كانت نفسها في الماضي السحيق ـ منذ بلايين السنين ـ كما هي اليوم، وبالفعل لا توجد طريقة لمعرفة صحة هذه النقطة في تاريخنا ولكن لو كانت هذه القوانين مختلفة فإن بعضًا من العلم الطبيعي سيحتاج للمراجعة، وحتى الآن فإن الشك في صحة هذا الافتراض لا يلاقي دعمًا في المجتمع العلمي، ولكن من المتفق عليه المسكوت عنه أنّ العلم الطبيعي يقوم على أقل عددٍ ممكنٍ من مثل هذه الافتراضات، وهو كذلك»... هكذا في الموضع ذاته، يقبل كون العلم الطبيعي يقوم على ما لا يمكن إثباته بالتجربة ولا بالعقل، وفي الوقت ذاته يرفض إثبات الخالق لأن وجوده لا يمكن إثباته بطريق العلم الطبيعي.. هذا هو التناقض الذي نعنيه!!

يقول جايمس بوزويل: «وهكذا لو سمح بوضع افتراضاتٍ خارجة عن الطبيعة، فإن التفسير «بالخلق» سيكون متسقًا مع الحقائق، واحدة من الافتراضات في التطور ـ على سبيل المثال ـ أن التشابه؛ يعني: الصلة الوراثية، ولكن مع افتراض وجود قوى

(١) Lurquin PF, Stone L. Evolution and religious creation myths: how scientists respond? Oxford University Press 2007. p. 10-11.

فوق الطبيعة يكون على نفس المستوى من العقلانية أن نفترض أن التشابه؛ يعني: وحدة الخالق»[1]. . فالقضية كلها في رفض علماء الطبيعة لجملةٍ معينةٍ من الافتراضات الغيبية غير المبرهنة، لو رُفع هذا الرفض الذي لا برهان عليه لكان الخلق عقلانيًّا تمامًا دون إشكال!

وبعد بيان معنى النظرية العلمية وقيمتها واستحالة إثبات صحتها وموقفها من المسلّمات الغيبية، فلننظر في بعض النظريات التي تتمتع بخصيصةٍ لا تقع لكثيرٍ من النظريات، إنّ بعض النظريات تتميز بكونها لا بديل لها، ولا يوجد ما ينافسها من التفسيرات، هذه النظريات يكون قبولها أزمةً في الوسط العلمي، خصوصًا لو لم يكن لها نصيبٌ كافٍ من الدقة في الوصف والتوقع، مثل هذه النظريات يصدق فيها قول الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في وحي القلم: «أشد سجون الحياة قسوة. . فكرةٌ بائسة، يسجن المرء منّا نفسه بداخلها!»، أو كما يقول إميل شارتيه: «لا شيء أخطر من فكرة حين تكون هي الوحيدة التي لدينا»[2].

ومثال تلك النظريات نظرية الأوتار الفائقة Super String Theory، تلك النظرية التي تعمل في وجود عشرة أبعاد مكانية وبعد زمانيٍّ واحد، وتفترض أن خيوطًا من الطاقة (الأوتار) تمثل الوحدة الأصغر غير القابلة للانقسام في كل الموجودات، تتركب

(١) Buswell JO. Is there an alternative to organic evolution? Gordon Review 1959; 5:2-13.

(٢) Kenneth M. Cramer. Six Criteria of a Viable Theory: Putting Reversal Theory to the Test. Journal of Motivation, Emotion, and Personality 2013; 1(1):9-16.

منها أصغر الجسيمات كالالكترونات والكواركات، وتتركب منها كذلك أصغر الجسيمات الموجية كالفوتونات والغرافيتونات، تهتز هذه الأوتار بطرقٍ مختلفة، وتحدد كل طريقةٍ منها طبيعة الجسيمات من حولنا، فهي تمثل وصفًا موحدًا شاملًا لكافة القوى الفيزيائية أو ما يمكن تسميته بنظرية كل شيء!

يرى ريتشارد داويد Richard Dawid أنّ نظرية الأوتار الفائقة يمكن إثبات صحتها ببراهين فلسفية واحتمالية دون الحاجة لاشتراط البرهان التجريبي[١]، يريد داويد أن يقرر أنّ تأكيد النظرية يكون بزيادة احتمالية مناسبتها للحقائق محل الدراسة، ويجيبه جورج إليس وجو سيلك بأنّ كون أحدًا لم يطرح بديلًا للنظرية لا يعني صحتها، وأنّ ذلك يعد بمثابة تغيير موضع قوائم المرمى من أجل احتساب هدف، وأنّ عديد من النظريات الجميلة البسيطة المثبتة رياضيًّا قد أثبتت التجربة خطأها؛ كنظرية التوحد الكبرى لفيزياء الجسيمات Grand Unified Theory of particle physics، كما أنّنا لا نعلم إن كان هناك نظريةٌ أخرى بديلةٌ لم نكتشفها بعد أو لا، كما أن افتراض أن جميع الجسيمات والجسيمات الموجية قابلة للاختزال إلى وحداتٍ أصغر قد يكون مقدمة غير صحيحة في حد ذاتها[٢]!

مثل هذه الحيلة التي وقع فيها داويد يقع فيها كثيرٌ من

---

(١) Dawid R. Succession from the Perspectives of String Theory. Philosophy of Science 2006; 73(3): 298-322.

(٢) George Ellis & Joe Silk. Scientific method: Defend the integrity of physics. Nature 2014; 516: 321-323.

الملحدين في موقفهم من نظرية التطور، يغيرون موضع قوائم المرمى من أجل احتساب هدف، يعلمون أنّه لا بديل عن نظرية التطور في تصورهم الإلحادي، أو كما يقول دوكنز «إنني لا أريد أن أقنع القارئ أن النظرة الداروينية للعالم صحيحةٌ فحسب، بل إنها النظرية الوحيدة المعروفة التي تستطيع ـ بالأساس ـ أن تحل معضلة وجودنا»(١)، وفي الحقيقة فهذا هو سبب استماتة الملحدين في الدفاع عن نظرية التطور، فهي عندهم مرتبطة بإلحادهم، وهذا فوق كونه سجنًا وخطرًا بحسب وصف الرافعي وشارتيه، فهو مناقضٌ للطريقة العلمية كما سبق بيانه في الرد على داويد!

إذن. . لو اتبع الملحدون الطريقة العلمية فسيتخلون عن التمسك بنظرية التطور بحجة أنّها الخيار الوحيد (مغالطةٌ منطقيةٌ اسمها: مغالطة فقد البديل المكافئ)، كما أنّ نظرتهم للتطور على أنّه المخلص الوحيد فهذا يفقدها الصفة العلمية في حقهم، إذ النظرية التي تكون بذاتها «دوغمائية، مطلقة، ولا تخضع للمراجعة ليست نظرية علمية» بحد وصف التطورية إيوجين سكوت(٢)، لا مانع أن يترك الملحد نظرية التطور إن ثبت له أنّها لا تقدم الدليل الكافي، ويكون لا أدريًّا، لا مانع إلا التعصب الأعمى!

وإذا تركنا تعريف النظرية العلمية وقيمتها ومبناها الغيبي واستحالة إثباتها، وانتقلنا إلى الصفات التي يجب أن تتوفر في

---

(١) Dawkins R. The Blind Watchmaker: Why the evidence of evolution reveals a universe without design. Preface XIV.

(٢) Eugene Scott. Evolution vs. creationism: An introduction. P. 198.

النظرية العلمية، سنجد أن أكثر المواصفات أهمية هو كون النظرية العلمية قابلة للتخطئة بالطرق التجريبية[١] Falsifiable، ولو أردنا التعبير بلغة الفقه فإنّ هذه الصفة تعد ركنًا من أركان النظرية العلمية، إذ يلزم من وجودها الوجود ويلزم من عدمها العدم، فما يُدّعى أنّه نظريةٌ علميةٌ مما ليس فيه هذه الصفة لا يُعدّ نظريةً علمية!

وقد عُدّت هذه الصفة Falsifiability مما يحل مشكلة التفرقة بين العلم الطبيعي من غيره Demarcation problem، وبها قرر بوبر أن النظرية الماركسية والتحليل النفسي لفرويد ليست من العلم الطبيعي science، ذلك أنّها لا تعطي استنتاجاتٍ يمكن اختبارها تجريبيًّا! كانت هذه الصفة من أركان العلم التجريبي، وبها يُرفض دخول أي عنصرٍ غيبيٍّ ميتافيزيقي في العلم الطبيعي، لعدم قابليته للتخطئة عن طريق التجربة!

قد كان مذهب كارل بوبر الأول ـ وقد تغيّر بعدُ ـ بخصوص الانتخاب الطبيعي ـ المكوّن الرئيس للداروينية ـ أنّه مفهومٌ غير قابل للاختبار والتخطئة[٢]، فتحديد الأصلح الذي تبقى في قولهم «البقاء للأصلح» سيكون من خلال وصف المتبقي الذي هو

---

(١) انظر هذه المصادر على سبيل المثال:

- Popper, K. (1959) The logic of scientific discovery. New York: Harper & Row.
- Hempel, C. (1965) Aspects of scientific explanation. New York: Free Press.
- Nagel, E. (1961) The structure of science: Problems in the logic of scientific explanation. New York: Harcourt, Brace and World.

(٢) Popper, K. R. 1976. Unended Quest. An Intellectual Autobiography. LaSalle, IL: Open Court. Page 178.

الأصلح! وهو نوع من الحشو tautology لا يمكن اختباره تجريبيًّا، وبمثل هذا المعنى يقول عالم الإحاثة اللاأدري الشهير جاولد: «ولكن في منطقة واحدة ـ والتي لسوء الحظّ تمثل جزءًا كبيرًا من النظرية والممارسة التطورية ـ وهي الانتقاء الطبيعي كانت تعمل كالإله عند الأصوليين حيث تفعل كلَّ شيء، تساءل روديارد كيبلنج عن تنقيط جلد النمر وتجعيد جلد وحيد القرن، سمّى إجاباته قصصًا من نوع «هذا ما حدث وحسب»، عندما يدرس التطوريون التكيفات الفردية، عندما يحاولون شرح الشكل والسلوك بإعادة بناء التاريخ وتقييم المنفعة الحالية فإنهم كذلك يقصّون قصصًا من نوع «هذا ما حدث وحسب»، ويكون المسؤول هو الانتخاب الطبيعي، وهكذا تحل براعة التلفيق محل قابلية الاختبار كشرطٍ للقبول.. وهذا الذي أعطى التطور البيولوجي سمعةً سيئةً بين العلماء التجريبيين في سائر المجالات، ينبغي لنا أن ننتبه إلى ما يزعجهم ولا نرفضه بزعم أنّهم لا يفهمون الانتخاب الطبيعي ولا الإجراءات الخاصة بالعلم الطبيعي التاريخي»[١].

الغريب ليس في محاولة نفي عدم قابلية نظرية التطور للتخطئة من قبل بعض المؤمنين بها، فهذا متوقع، الغريب أن يحاول أحدهم التشكيك في مبدأ قابلية التخطئة نفسه كوسيلة للتفرقة بين العلم الطبيعي Science وما ليس منه Pseudo-science،

---

(١) Stephen J Gould. Sociobiology: The art of story telling. New Scientist 1978; 80,530-533.

يحاولون أن يلغوا قابلية التخطئة ويضعون مكانها التأكيد بالمشاهدات والملاحظات فحسب Confirmation!

يقول جون رينيه ـ أحد رؤساء التحرير في المجلة العلمية الشعبية «الأمريكي العلمي» Scientific American ـ في مقال له في الرد على المؤمنين بالخلق، والدفاع عن نظرية التطور، يقول محاولًا التهوين من شأن مبدأ «قابلية التخطئة نفسه»: «ينبغي أن يُعلم أن فكرة القابلية للتخطئة Falsifiability كصفةٍ محددةٍ للعلم الطبيعي وضعها الفيلسوف كارل بوبر في ثلاثينات القرن الماضي، وقد وسّعت بعض التعديلات الحديثة المتوجهة لفكره التأويل الضيق لمبدأ قابلية التخطئة لأنّها لو طبقت هكذا ستمحو الكثير من فروع الأنشطة العلمية الواضحة»[(١)]!!

يطرح موقع edge.org سؤالًا سنويًّا منذ سنة ٢٠٠٥م لمجموعةٍ من العلماء والفلاسفة وينشر إجاباتهم، كان سؤال عام ٢٠١٤م عن الفكرة العلمية التي يُعتقد أنّها على وشك التقاعد، اختار الفيزيائي سين كارول أنّ القابلية للتخطئة Falsifiability هي الفكرة التي على وشك التقاعد، ذلك أن نظرياتٍ مثل نظرية الأكوان المتعددة Multiverse Theory ونظرية الأوتار الفائقة Super String Theory، يستحيل ـ على حد قوله ـ أن نختبرها وفقًا لقدراتنا الأرضية، حتى إنّ بعض العلماء عدّها لا تلتحق

(١) **John Rennie**. 15 Answers to Creationist Nonsense. Sientific American Jun 17, 2002. http://www.scientificamerican.com/article/15-answers-to-creationist/

بالعلم الطبيعي ـ على حد قوله ـ لأنّها غير قابلة للتخطئة[1]!

يرى كارول أنّ القابلية للتخطئة هي وسيلةٌ بليدة Blunt instrument للحكم على النظرية العلمية، هكذا في محاولةٍ أخرى لتغيير مواقع قوائم المرمى لتسجيل هدف، ويضع بدلًا من ذلك صفتين للحكم على النظرية العلمية وهما الوضوح Definite والتجريب Empirical، ثم يقول: إن التجريب ليس القابلية للتخطئة ولكنه قدرة النظرية على تفسير المعلومات المتاحة وحسب. . هكذا يفر كارول من الاعتراف بعدم دخول النظريتين في إطار العلم الطبيعي لعدم قابليتهما للتكذيب، ويحيل هذا المعيار الحاكم للتقاعد ويضع معيار الدقة والقدرة على التفسير فحسب كشرطين لقبول النظرية العلمية، وهكذا تُلغى أصول العلم الطبيعي وأركان النظرية العلمية حتى نُدخل نظرياتٍ فيزيائيةٍ مثل نظرية الأوتار الفائقة والأكوان المتعددة وما قبل الانفجار العظيم Pre-Big Bang Concepts في إطار العلم الطبيعي، لا لشيءٍ إلا لغلبة الحكم المسبق والكيل بمكيالين على عقول بعض الفيزيائيين!

يقول أستاذ الفيزياء الرياضية فرانك تابلر، في جواب نفس السؤال الذي أجابه كارول: «كما كانت بداية العلم الطبيعي الحديث، يجب أن تكون الحال الآن، يجب أن نحافظ على الشرط الأساسي وهو أن يكون العلم التجريبي هو الأساس في العلم الطبيعي الحقيقي، وبما أن مناصري نظرية الأوتار الفائقة قد

---

(١) http://edge.org/response-detail/25322

فشلوا في طرح أية طريقة للتأكد من صحة النظرية، فإن نظرية الأوتار الفائقة يجب أن تتقاعد اليوم، بل الآن»[١].

ومن هذه البابة، بابة النظريات التي تقبل كل الاحتمالات، وتعطي كل المعطيات، وتقبل أن تتوقع كافة الأحداث، فمثل هذه النظريات التي تقبل الشيء ونقيضه، وتصح إن ثبتت استنتاجاتها أو لم تثبت، مثل هذه النظريات يتخلف فيها قابلية الاختبار والدقة والتحديد، ليست من نظريات العلم الطبيعي، وإنما هي أشبه بمواد الفلسفة وقد تكون في بعض الأحيان أشبه بالأساطير!

خذ مثالًا على النظرية التي قد تعني أيّ شيء، معادلة فرانك دريك بخصوص الحياة خارج الأرض:

$$N = N^{*} fp\ ne\ fl\ fi\ fc\ fL$$

(حيث N هو عدد النجوم في المجرة، fp هو عدد النجوم التي لها كواكب، ne هو عدد الكواكب للنجم القادرة على دعم وجود حياة، fl عدد الكواكب التي تطورت فيها حياة، fi عدد الكواكب التي تطورت بها حياة ذكية، fc هو عدد الكواكب التي لها القدرة على التواصل، fL هو عدد الكواكب التي بها حضاراتٌ حيةٌ يمكنها التواصل أثناء حياة الكوكب الأرضي).

يقول مايكل كرايتون معلقًا على هذه المعادلة: «هذه المعادلة التي تبدو بمظهرٍ جادٍ وتعطي البحث عن حياةٍ ذكيةٍ خارج الأرض أساسًا قويًّا كسؤالٍ معرفيٍّ مشروع، المشكلة بالطبع في

(١) http://edge.org/responses/what-scientific-idea-is-ready-for-retirement

هذه المعادلة ألّا شيء من مصطلحاتها يمكن معرفته والكثير منها لا يمكن تقديره، الطريقة الوحيدة للعمل بها هي في ملئها بالتخمينات، والتخمينات ـ لكي نكون واضحين ـ ليست إلا تعبيرًا عن الحكم المسبق، ليس هناك تخمينٌ مبنيٌّ على معلومات، إن كنت تريد التعبير عن عدد الكواكب التي بها حياةٌ تتواصل فليس هناك طريقة للتخمين بناء على معلومات، إنّه ببساطة حكمٌ مسبق»[١].

وكمثال على التخمينات التي ذكرها كرايتون نجد قول أرنولد هانزلماير: «ثمة حجةٌ تعضد بشدة دعوى وجود عدة حضاراتٍ في المجرة، فإن مجرتنا تحتوى قرابة ٢٠٠* ١٠ (أس ٩) نجمًا، فإن فرضنا أن كسرًا ضئيلًا لا يزيد على ١٠ (أس ـ ٧) من تلك النجوم يوجد حوله كواكب قابلة للسكنى، وقد نشأت عليه بالفعل حضاراتٌ متطورة، إذن فسيكون لدينا قرابة عشرين ألف حضارة في المجرة»[٢].

ولذلك يحق لكرايتون أن يقول بصدد معادلة دريك: «كنتيجةٍ لذلك فإن معادلة دريك يمكن أن تعطي أية قيمة من «البلايين والبلايين» إلى الصفر، الجملة التي تعني كل شيءٍ لا تعني شيئًا، ولنتحدث بدقة فإن معادلة دريك هي حرفيًّا بلا معنى وليس لها

---

(١) Michael Crichton. Aliens Cause Global Warming. Caltech Michelin Lecture on January 17, 2003. On: http://www.sepp.org/NewSEPP/GW-Aliens-Crichton.htm

(٢) Hanslmeier A. (2009). Habitability and cosmic catastrophes. Berlin: Springer. Pp. 204.
بواسطة آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين، أبو الفداء ابن مسعود، صفحة ٦٣٤.

شأن بالعلم الطبيعي»[1].

نجد مثالًا آخر على رفض نظريةٍ علمية لكونها تحتمل كلّ شيءٍ، في موقف الفيزيائي بول شتاينهارت من نظرية الانفجار العظيم وتوسع الكون inflationary cosmology، إذ يقول: «النموذج التوسعي للكون مرنٌ جدًّا لدرجة يمتنع بها على الاختبار بالملاحظة أو بالتجربة، فبدايةً إنّ النموذج التوسعي مشتقٌّ من مجالٍ نظريٍّ متدرّج Hypothetical Scalar field وهو التوسع وهو ذو خصائص يمكن ضبطها لتنتج بكفاءة أيةَ نتيجة، وثانيًا: فإن التوسع لا ينتهي بكونٍ منتظم الخصائص ولكنه ـ غالبًا وحتمًا ـ يؤدي إلى أكوانٍ متعددة ذات فقاعاتٍ لا نهائية حيث فيها الخصائص الفيزيائية والكونية تختلف من فقاعةٍ لأخرى، هذا الجزء الذي نشهده من الأكوان المتعددة ليس إلا جزءًا من فقاعةٍ واحدة، وبتفحص كل الفقاعات الممكنة للأكوان المتعددة فإن كل ما يمكن حدوثه فيزيائيًّا قد وقع ما لا يُحصى من المرات، لا توجد تجربة يمكنها استبعاد نظريةٍ تسمح بكل المخرجات الممكنة، وبالتالي فإن نموذج الكون المتوسع غير قابل للتخطئة unfalsifiable»[2]، وفي مقال آخر ـ ولنفس العلة ـ يسخر شتاينهارت من مفهوم نظرية «كل شيءٍ» التي يروج لها كثيرٌ من

---

(١) Michael Crichton. Aliens Cause Global Warming. Caltech Michelin Lecture on January 17, 2003. On:
http://www.sepp.org/NewSEPP/GW-Aliens-Crichton.htm

(٢) Paul Steinhardt. Big Bang blunder bursts the multiverse bubble. Nature 2014; 510, 9.

الفيزيائيين، ويسميها نظرية «أي شيء» بدل من نظرية «كل شيء»[1]!

بالتأكيد وأنت تقرأ عن نقد الكون المتوسع خطر في ذهنك نظرية التطور، وكيف نمرر التمثيل للنظرية التي تتسع لكلّ شيءٍ وأي شيء، دون أن نأتي على ذكر نظرية التطور؟! فالنظرية التي مبناها على الصراع بين الكائنات بناءً على عدم كفاية الموارد، وأن الكائنات تتناسل بما يفوق قدرة نسلها على البقاء superfecundity، تتسع بما يكفي لتحتوى خُلقًا مثل الإيثار Altruism، والنظرية التي مبناها على أن البقاء للأصلح تتسع بما يكفي لتحتوى الشذوذ الجنسي Homosexuality، إنّها نظرية تتسع لكلّ شيءٍ وأي شيء، وتقبل الشيء ونقيضه، وتتوقع الصفة وعكسها، وتبقى إن ثبتت استنتاجاتها أو لم تثبت!

وينتقد بيتر وويت ـ المحاضر في الفيزياء الرياضية بجامعة كولومبيا ـ نظرية الأوتار الفائقة لذات العلة فيقول: «إن فكرة توحيد الفيزياء بوضع أوتار تتحرك في عشرة أبعاد من الزمكان ككيانات أساسية ولدت سنة ١٩٧٤م، وأصبحت النموذج السائد لتوحيد الفيزياء منذ ١٩٨٤م وحتى الآن، وبعد أربعين سنة من البحث وعشرات الآلاف من المقالات فإن الذي تعلمناه أنّها فكرةٌ فارغة، لا تتوقع أي شيءٍ عن أيّ شيء، حيث إن المرء يستطيع

(١) Paul Steinhardt. Theories of anything.
http://edge.org/responses/what-scientific-idea-is-ready-for-retirement

أن يخرج بالفيزياء التي يريدها باختيار كيفية جعل ستة من الأبعاد العشرة غير مرئية»[١].

وبعد صفات قابلية الاختبار والتخطئة والدقة والتحديد، تأتي شفرة أوكام Occam's Razor (Parsimony) كحاكمٍ على النظرية العلمية الراجحة حين تستوى نظريتان في تفسير بعض المشاهد، فإنّ النظرية الراجحة تكون هي الأيسر والأخصر والأقل في عدد المقدمات والفرضيات[٢]، وهذا الترجيح النظري المبني على السهولة واليسر، لا يلزم منه ـ كما هو جليّ ـ أن تكون الطبيعة تعمل على هذه الصورة اليسيرة، خصوصًا وتطور آلات رصد الجسيمات الصغرى والكبرى تكشف التعقيد في تركيب الكون يومًا بعد يوم، ومن هنا يتضح أنّه ليس من شرط النظرية العلمية أن توافق الحقيقة، وليس في مباني العلم الطبيعي ما يضمن موافقة النظرية العلمية للحقيقة، وغاية ما تقدمه النظرية هو وصفٌ يوافق الظاهر من الطبيعة Save the appearance، وعلمٌ ظنّي بخصوص ما يجري في العالم على الحقيقة!

خذ مثالًا النموذج البطليموسي Ptolemaic Model الذي يفترض مركزية الأرض Geocenteric Model، والنموذج الكوبرنيكي Copernicus Model والذي يقول بمركزية الشمس

---

(١) **Peter Woit**. The "Naturalness" Argument.
http://edge.org/responses/what-scientific-idea-is-ready-for-retirement

(٢) Gracia JJE, Noone TB. A Companion to Philosophy in the Middle Ages. Blackwell Companions to Philosophy. P: 696-712.

Heliocenteric Model، فإنّ كوبرنيكس نفسه كان يعلم أنّ نموذجه ونموذج بطليموس على نفس الدرجة من الكفاءة في الوصف، إلّا أنّه رأى أن نـمـوذجـه يـمـتـاز بـالـتـكـامـل الـمـفـاهـيـمـي Conceptual integration[١]، بينما رأى غيره أنّ نموذجه أسهل وأيسر من نموذج بطليموس المعقّد، فتم تفضيله بحسب شفرة أوكام، دون أن يلزم من ذلك أنّ نموذج كوبرنيكس مطابق للواقع! وحتى الآن ما زال الحال بين النموذجين ـ وإن كانت النسبية والكوانتم يطرحان نماذج جديدة ـ كما هو، كما يقول الفلكي فريد هويل: «نحن نعلم أن الفرق بين نظرية مركزية الأرض ومركزية الشمس يعتمد على الحركة النسبية فقط، وأنّ مثل هذا الفرق ليس له فائدة فيزيائية»[٢]، ويقول: «اليوم لا نستطيع أن نقول إن نظرية كوبرنيكس صحيحة وإنّ نظرية بطليموس خطأ بأي مفهوم فيزيائي صحيح»[٣].

وهكذا فقد تُفضل إحدى النظريات لبساطتها، دون أن يلزم من ذلك موافقتها حقيقة الأمر، يقول الكيميائي جونتر فاشترشوسر: «لقد تبدّل المبدأ الموضوعي في العلم التجريبي من البحث عن الحقيقة إلى المبدأ الجمالي الذاتي الباحث عن قصةٍ جيّدة الصياغة»[٤]، ويعقد الباحث روي سبنسر في كتابه عن

(١) Losee J. A Historical Introduction to the philosophy of Science (Fourth edition). Oxford University Press. p. 40.

(٢) Astronomy and cosmology. 1975. Page 416.

(٣) Astronomy and cosmology. 1975. Page 416

(٤) Günter WÌchtershÌuser. letter "Discussing the Origin of Life," Science 2002; 298(5594):748.

التغيرات المناخية فصلًا عن أن «العلم الطبيعي ليس هو الحقيقة»[١]، حتى أوكام نفسه حصر عمل شفرته في الترجيح بين النظريات التي تصف الطبيعة، دون أن يعني هذا أن الطبيعة تعمل على هذه الطريقة بالضرورة[٢]!

يقول الفيزيائي الملحد مانو سنجهام: «السؤال الفلسفي الأخير الذي يطرحه أنصار التصميم الذكي يتحدث عن (الحقيقة)، يقولون إنّه من الخطأ أن تُقصى أفكار التصميم الذكي من العلم الطبيعي استنادًا إلى القواعد الطبيعية والتنبؤية لأن الهدف من العلم هو البحث عن (الحقيقة)، كيف ـ يتساءل أنصار التصميم الذكي ـ ستعلمون لو كان التصميم الذكي هو التفسير الحقيقي لظاهرةٍ ما لو لم يُسمح له بالمنافسة؟ ولكن. . ليس هناك سببٌ لاعتبار أن (الحقيقة) تلعب دورًا رئيسًا في هذا النقاش، العلم يُنتج نظرياتٍ واكتشافاتٍ جديدةً على الدوام، اكتشافاتٍ تكون قويةً ومفيدةً وتنويرية، ولكن هل هذا يتضمن أنّها تقترب من الحقيقة؟! مع الأسف لا! على الرغم من أن كثيرًا من العلماء يحبون أن يعتقدوا ذلك»[٣]!

وربما يأخذك العجب من مخالفة هذا العدد من النظريات

---

(١) Roy W. Spencer. Climate Confusion: How Global Warming Hysteria Leads to Bad Science? Chapet2: Science is not truth. p. 35.

(٢) Losee J. A Historical Introduction to the philosophy of Science (Fourth edition). Oxford University Press. p. 30-34.

(٣) Singham, Mano, "Philosophy is Essential to the Intelligent Design Debate," Physics Today 2002; 55 (6): 51.

التي أتينا على ذكرها لصفات وأركان النظرية العلمية، وكيف أنّها لا تصمد أمام طريقة نقد العلم الطبيعي Scientific scrutinization، بما يذهب بصوابها وربما ينفي عنها العِلمية رأسًا، إلا أن هذا العجب يتضاعف حين تعرف أن ثمّ مجالات بحثية أكاديمية Academic Disciplines، قد بُنيت على مغالطاتٍ وتحيّزاتٍ وسرفٍ في السعي فيما ليس تحته عمل، ولا ترتجى من ورائه فائدة إلا بحثًا عن واقعٍ يوافق حكمًا مسبقًا في الأذهان!

إنّ السبب الرئيس الذي وضع العداوة الظاهرة بين العلم الطبيعي والفلسفة، هو ما يسبق لذهن علماء الطبيعة من انشغال الفلسفة بالجدليات النظرية، والإغراق في المباحث الفرعية التي لا طائل من ورائها، ويقع على الفلاسفة كِفلٌ من هذا التصور بسبب انشغالهم بما لا ينفع في بعض الأحيان أو في كثيرٍ منها، ولعل اشتراط الفائدة Utility من النظرية العلمية والذي اشترطه كثيرٌ من فلاسفة العلم الطبيعي، هو صيانةٌ لجناب العلم الطبيعي أن يدخله ما دخل الفلسفة بالانشغال بما لا يفيد! لكنّ العجب لا ينقضي حين ترى السعي الحثيث في البحث عن إشارات الحياة خارج الأرض، أو البحث عن كيفية نشأة الخلية الأولى على الأرض، وليس هناك فائدةٌ ترتجى ولا نفعٌ يلتمس عوده على البشرية من هذه المباحث!؟

ثمّ إن من مواضع الدقة في فلسفة العلم الطبيعي، أنّ النظرية العلمية لكي تكون ذات فائدة Utility فإنّه ينبغي أن تكون الاستنتاجات المبنية على فرضياتها قابلة لأن يُعاد

إنتاجها Reproducible، حتى إذا ما خرجت عند أحد الباحثين فائدة من إحدى الاستنتاجات، أمكن غيره أن يتحقق من قوله وأن يتحصل على تلك الفائدة بإعادة إنتاج التجربة للحصول على نفس النتيجة، فكيف يمكن لنا أن نعيد إنتاج تجربةٍ تتعلق بنشأة الخلية الأولى على كوكب الأرض؟! لا أقول لك الآن ما الفائدة، ولكن السؤال أنّه لو فرضنا أننا تحصلنا بالتجربة المعملية على أحماضٍ أمينيةٍ أو حتى على خليةٍ كاملة، هل يعني ذلك أنّ الخلية الأولى على هذا الكوكب قد نتجت بهذه الطريقة!!؟

إنّ هذه العلوم الطبيعية ذات الطابع التاريخي الذي يدرس أحداث الماضي، تبقى في الإطار النظري الظنّي الذي يمكن قبوله ما لم يعارضها دليلٌ أقوى، ذلك أنّ طبيعة النظرية العلمية تمنع إثبات صحتها كما سبق بيانه، وأنّه لا يمكن أبدًا الجزم على وجه اليقين أنّ النتاج الحالي للتجربة العلمية ـ المؤيدة للنظرية العلمية المتعلقة بالأحداث الماضية ـ هو ذاته الذي حدث في الماضي Impossible Reproducibility، كما أنّ الجزم بأحداثٍ بعينها في الماضي لا يمكن أن تنتج عنه أية فائدة No Utility، كما أنّه لا يمكن تخطئته Unfalsifiable، ولذا فهذه الأحداث الماضية لا يمكن الجزم بها بطريقة العلم الطبيعي، وليست مما يحتويه موضوع الطريقة العلمية، وإنّما الذي يورث العلم بخصوص هذه الأحداث الماضية هو الخبر الصادق، وبحسب قوة هذا الخبر يتفاوت العلم بين الظنية واليقين!

لنفرض أن الأخبار الواردة عن شتى الأمم والدول القديمة

تواترت على حدثٍ معينٍ في الماضي، وليكن أنّ حربًا ممتدة قد وقعت بين دولتين من الدول، فإنّ التكذيب بهذا الحدث يُعدّ ضربًا من المصادرة والكبر، والعلم المتولد من هذه الأخبار من شتى الدول التي يستحيل تواترها على الكذب، قد يورث الواقف عليه علمًا يصل حدّ علم اليقين! فما الفرق بين معقولية الاعتماد على الخبر الصادق في إثبات حدثٍ تاريخيٍّ بشريٍّ، والاعتماد عليه في إثبات حدثٍ طبيعيٍّ قديم؟!

إنّك تجد في هذا السياق قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: ٥١]، قولًا كاشفًا واضحًا يقطع كل أملٍ في اليقين في هذه الأمور إلا من جهة الوحي، يقول التطوري الشهير ستيفن جاولد: «نحن نعلم أن هناك الكثير من الأحداث التطورية التي لم تترك أثرًا يمكن الاستدلال عليه تجريبيّا، وبالتالي فلا نستطيع أن نضع سؤالًا علميًّا بخصوص تلك الأحداث، على سبيل المثال فأنا أشك أننا سنستطيع أن نحل أصل لغة الإنسان»[(١)].

يقول ستيفين واينبرغ: «إن تسلل الطوارئ التاريخية إلى قلب العلوم يعني أيضًا أننا يجب أن ننتبه إلى نوع التفسيرات التي نتوخاها من قوانيننا النهائية، فعندما بدأ نيوتن مثلًا باقتراح قوانينه الحركية والثقالية، واجه اعتراضًا يقول بأن هذه القوانين لا تفسر ما نراه من استقرارٍ في سلوك المنظومة الشمسية؛ أي: سبب

(١) Stephen J. Gould. The Structure Of Evolutionary Theory. The Belknap Press of Harvard University Press. p. 790.

دوران الكواكب كلها حول الشمس باتجاهٍ واحد، ولكننا نعلم اليوم أن السبب تاريخي. . . . فاستقلال القوانين عن التاريخ قضيةٌ مركبةٌ من القضايا التي نواظب على تعلّم كيفية التعامل معها. . . . وليس من الممكن فحسب أن يكون ما نعتبره كظروفٍ بدئيةٍ اعتباطيةٍ قابلًا لأن يُستنتج في نهاية الأمر من قوانينَ عالميةِ الشمول، بل وعلى العكس من ذلك قد يتبين في النهاية أن المبادئ التي نعتبرها اليوم قوانين عالمية هي طوارئ تاريخية»[١].

ويقول في بيان أمثلة للعلوم التي يلازمها هذا الشق التاريخي: «لقد أغفلتُ فرقًا هامًا بين البيولوجيا والعلوم الفيزيائية: العنصر التاريخي. . . وجود مخلوقاتٍ حيةٍ على الأرض تستخدم الدنا للاستمرار عشوائيًّا في إنجاز تغيراتٍ من جيلٍ للذي يليه هو واقعٌ منوطٌ ببعض الطوارئ التاريخية: وجود كوكب مثل الأرض، وبدء حياة ووراثة بطريقةٍ ما، وزمنٍ طويلٍ انقضى لضمان أن يفعل التطور فعله، إن البيولوجيا ليست العلم الوحيد الذي يطلب هذا العنصر التاريخي، بل إن هذه المقولة تنسحب على عدة علومٍ أخرى كالجيولوجيا وعلم الفلك»[٢]!

ويقول أيضًا: «وعلى كل حال، وحتى لو استطعنا في النهاية أن ندخل ظروف العالم البدئية في قوانين الطبيعة أو نستنتجها منها كقضية عملية، لن نستطيع أبدًا أن نستغني عن

(١) ستيفين واينبرغ، أحلام الفيزيائيين بالعثور على نظرية نهائية جامعة شاملة، ترجمة أدهم السمان، مكتبة دار طلاس، صفحة ٤١.

(٢) السابق، صفحة ٣٧.

عنصري الطوارئ والتاريخ في علوم كالبيولوجيا وعلم النجوم والجيولوجيا، وقد استخدم غولد المستحاثات الغربية التي وجدت في صخور بورجيس المسامية في كولمبيا البريطانية لتوضيح قلة ما لا يمكن تحاشيه في صورة التطور البيولوجي على الأرض، فأية منظومةٍ ولو كانت بسيطةً جدًّا يمكن أن تبدي ظاهرة اسمها الشُّوش Chaos (ضربٌ من الفوضى) تتحدى جهودنا المبذولة للتنبؤ بمستقبل المنظومة، والمنظومة الشوشية جملةٌ ماديةٌ قد يتفق لها ولو انطلقت من ظروفٍ بدئيةٍ شبه متطابقةٍ أن تصل بعد فترةٍ من الزمن إلى ظروفٍ متخالفةٍ تمامًا، وقد حدث منذ بداية هذا القرن اكتشاف شوش في منظوماتٍ بسيطة، وقد برهن الرياضي والفيزيائي هنري بوانكاريه على أن هذا الشوش يمكن أن ينشأ حتى في منظوماتٍ لا تتعدى في بساطتها منظومةً شمسيةً ذات كوكبين»[١].

وفي مقال له عن التحديات التي تواجه دراسة أصل الحياة، يقول الكيميائي جونتر فاشترشوسر ـ صاحب إحدى النظريات في تفسير نشأة الحياة على الأرض ماديًّا ـ: «إن نظرية التطور الأحيائي نظريةٌ تاريخية، وإذا ما استطعنا تتبع هذه العملية التاريخية للوراء بما يكفي بعدًا في الزمن، فسوف نكشف عن نشأة الحياة بعملياتٍ كيميائيةٍ خالصة، في حين علم الكيماء هو علم غير تاريخي يبحث عن القوانين الكونية المستلقة عن الزمان

---

(١) السابق، صفحة ٣٩.

والمكان أو عن التقويم والجغرافيا[١]، وهذا هو التحدي الذي يواجه أصل الحياة، أن تختزل عملية التطور الأحيائي التاريخية إلى القانون الكيميائي الكوني للتطور»[٢].

يقول جون رينيه في مقالته في الرد على المؤمنين بالخلق، وهو يثبت أنّ نظرية التطور قابلةٌ للتخطئة: «التطور يمكن أن يفنّد بطرقٍ أخرى كذلك، إن استطعنا أن نوثّق النشوء التلقائي لحياةٍ واحدةٍ معقّدةٍ من جماد وبالتالي سنجد على الأقل بعض المخلوقات يحتمل أن تكون قد نشأت بهذه الطريقة في سجل الحفريات، أو أن تظهر مخلوقاتٌ فضائية شديدة الذكاء وتدعي أنها صاحبة خلق الحياة على الأرض أو حتى خلق بعض الأنواع، وحينئذٍ سنتشكك في التفسير التطوري الخالص، ولكن حتى الآن لم يُخرج أحدٌ مثل هذا الدليل»[٣].

وما الفرق إذن بين دلالة أن يخرج علينا كائن فضائي خارق الذكاء يقول: إنه خلق الحياة على الأرض، وبين دلالة خبرٍ ممن ثبت أنّه رسولٌ من ربّ العالمين يقول: إنّ الله خلق الحياة على الأرض؟!! يقبلون الأول ويرفضون الثاني لأنّهم في الأول سيرون الكائن الفضائي بعينيه، وكأنّ السرّ في رفضهم الخلق أنّهم لا يرون الله ﷻ عَيانًا، يريدون أن يكلمهم الله تكليمًا!! هذا وهم

---

(١) وقد سبق بيان أن ثبات القوانين على مدى الزمان مفهومٌ غيبيٌّ لا يمكن إثباته!

(٢) Gunter WA Chtershauser. The Origin of Life and its Methodological Challenge. J theor Biol 1997; 187: 483-494.

(٣) John Rennie. 15 Answers to Creationist Nonsense. Scienitific American Jun 17, 2002 http://www.scientificamerican.com/article/15-answers-to-creationist/

يقبلون نتيجة تجربة معاصرة لتفسير الماضي دون أن يروا بأعينهم حدوث هذه التجربة في الماضي، وإنما هو استنتاج يستنتجونه، بل ظنّ يظنونه؟! إنّ المشكلة الحقيقة إذن هي أنّهم لا يرون الله ﷻ، وأنّهم يرضون باتباع الظنون!!

جدول (٢): تلخيص للنقد المتوجه لبعض النظريات العلمية المتداولة والتي ورد ذكرها بالتفصيل في المقال:

النظرية	النقد
نظرية التطور[١]	ـ عدم وضع كافة المشاهدات في الحسبان، واتهام الواقع بالنقص مثل موقف دارون من السجل الأحفوري.

(١) ونظرية التطور قد تؤدي إلى اللادينية من جهتين وإلى الإلحاد من جهة، أما اللادينية:

ـ **فالجهة الأولى**: أنّ الاعتقاد بالتطور يعني أن عملية خلق الإنسان وسائر الأنواع تمت بعمليةٍ عشوائيةٍ دافعها الانتخاب الطبيعي على امتداد الزمن، فإن أضيف إليها افتراضات ونظريات علوم الجيولوجيا والكونيات، تحصّل أن خلق السماوات والأرض والأحياء تمّ بعمليةٍ عشوائيةٍ ثابتةٍ على مدار الزمان، ولذلك يولّد هذا شعورًا بأن الإله خلق الكون ووضع قوانينه بدايةً ثم تركه، كما يقول ستيفن واينبرغ ـ الملحد ـ ناقلًا قول فيليب جونسون ـ الرافض للتطور من منطلق ديني ـ مقرًّا له: «التطور الطبيعي لا يتفق مع وجود الله إلا إذا كانت هذه الكلمة لا تعني أكثر من مسببٍ أول انسحب من كل نشاطٍ لاحق، بعد أن أرسى قوانين الطبيعة ووضع الآلية الطبيعية للحركة» (أحلام الفيزيائيين: ١٩٤)، ولذلك فقد قام التطوري ستيفن جاولد في كتابه «تركيب نظرية التطور» بتصنيف التعديلات التي يمكن أن تُضاف للنظرية بحسب تأثيرها على النظرية، فمنها ما يلغيها ومنها ما يعدّلها جذريًّا مع الاحتفاظ بأصولها ومنها ما يعدّل أصولها ومنها تعديلاتٌ ثانوية، وقد عدّ جاولد القول بقوى كليّة يكون الانتخاب الطبيعي وسيلتها في التصرف في الخلق قولًا ثانويًّا لا يضر تركيب النظرية بشيء (structure of evolutionary theory: p 21)، وهذا القول وإن كان لا يلزم منه =

النقد	النظرية
ـ مبناها على شرطٍ فلسفيّ لا دليل عليه وهو عدم تدخل قوى خارجة عن الطبيعة.	

= اللادينية إلا أنّه واقع، والرد عليه هو أنّه على الفرض والتسليم بما قالوا فإن هذا لا يمنع عقلًا من أن يرسل الإله الرسل لخلقه، ويلزمهم هنا النظر في شأن الرسالات للحكم على صحة الرسالة من عدمها، أما استنتاج أن الإله لا يُرسل الرسل من كونه خلق السماوات والأرض والأحياء بطريقةٍ غير مباشرة بزعمهم، فهذا استنتاجٌ باطلٌ لا دليل عليه ولا تؤدي مقدمته إلى نتيجته إلى بدافع الهوى.

ـ **والجهة الثانية**: إنّ القول بالتطور ينافي النصوص الصحيحة الواردة في الأديان، وهي نصوصٌ صحيحة الثبوت صريحة المعنى، ولا يمكن الجمع بينهما إلا باعتسافٍ وتأويلٍ يبطل المعنى ويذهب بحقيقة النص فيكون النص وعدمه سواء، وهذه الطريقة لو استعملت لفتحت الباب لكلِّ قولٍ حتى لو كان قولًا بعدم ختم النبوة، وقد وجد من القاديانيين والبهائيين من يؤول نصوص ختم النبوة لتتوافق مع مذهبه بإرسال الرسل بعد خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وفوق فتح هذا الباب للتأويل الفج فإنّ طرح مثل هذه التأويلات يهوّن من شأن النصوص في القلوب ويُفقد الثقة فيها، فهذه جهة شرعية عقلية نفسية في تأدية نظرية التطور للاعتقاد بخطأ الأديان، وحيث كانت نظرية التطور خطأ وباطلةٌ وغير موافقة للحقيقة ـ بل لو ثبتت صحتها فهي في أحسن حالاتها قصةٌ محكمة الحبكة لا يمكن التأكد من وقوعها تاريخيًّا ـ كما سبق بيانه من عدة جهات، فلا معنى لتأويل النصوص وإنما تحمل على حقيقتها كما حملتها الأجيال السابقة جيلًا بعد جيل.

وأما جهة الإلحاد فهي من جهة أنّها تقول بوجود العيب وانعدام التصميم في مخلوقات الله، وتدّعي عدم موافقة التركيب للوظيفة المثلى، وهنا يجعلون من عدم العلم بالحكمة دليلًا على انعدامها وبالتالي ينفون الحكمة في الخلق، فينفون أن يكون الإله مطلق القدرة والعلم خلق هذه الخلائق، وهي طريقة تشبه استدلالهم بوجود الشر في العالم على نفي وجود الإله، طريقةٌ باطلةٌ وغير مقبولة ولكنّ هذا يقع رغم أن انعدام الحكمة لا يعني عدم العلم بها، ورغم أن الحكمة ظاهرة في كثيرٍ من خلق الله، ولولا غلبة الحكمة الظاهرة لتعطلت حركة الإنسان، ولكن المقصود هو جمع الجهات التي تؤدي بها نظرية التطور إلى ترك الدين ولو كان بحيلةٍ نفسيةٍ لا تصح!

	ـ مبناها على شرطٍ فلسفيّ وهو ثبات قوانين الحاضر في الماضي. ـ كونها لا بديل لها من الناحية التجريبية ـ لا من ناحية كافة الأدلة كالخبر الصادق ـ في حال رفض وجود ما فوق الطبيعة يجعلها دوغمائية وغير قابلة للتشكك. ـ عدم قابلية الإثبات بالتجربة. ـ نظرية مطاطة: تقبل كل الاحتمالات وتعطي كل المعطيات. ـ حتى ولو كانت نظريةً صحيحة فليس هناك دليلٌ على أنّها توافق الحقيقة، وبالتالي فهي ظنية، إن واجهتها أدلةٌ أخرى قطعية فإنها تلغيها! ـ يوافق أحدهم على أن من سبل إثبات زيف النظرية وجود مخلوقاتٍ فضائيةٍ ذكيةٍ تدعي خلق الكائنات الحية، وهذا إقرار بأن الخبر الصادق كافٍ لإثبات زيف النظرية. ـ فيها الشق التاريخي الذي يجعل من إثبات زيفها وإعادة إنتاجها والتحصل على الفائدة منها أمرًا مستحيلًا، وهذا ما ينفي عنها صفة النظرية العلمية لفقدان أركانها.
نظرية الأوتار الفائقة، ونظرية كل شيء، ونظرية الأكوان المتعددة	ـ قائمة على افتراض أن كل الطبيعة يمكن اختزالها إلى وحدةٍ أساسيةٍ وحيدةٍ صغري وهذه مقدمةٌ غير مبرهنة. ـ غير قابلة لإثبات الزيف. ـ غير قابلة للإثبات بالتجربة.
نظرية التوسع الكوني	نظرية مطاطة: تقبل كل الاحتمالات وتعطي كل المعطيات. ـ غير قابلة لإثبات الزيف.

علاقةٌ عاطفية..!

يشبّه «فانيفار بوش» العلم الطبيعي وكيفية عمله بالمبنى الضخم، ويشبه العلماء فيه بالبناة والعمّال والحرفيين، ويضرب أمثلةً لتفرق أعمال المشتغلين بهذا المبنى، فهذا يحفر ليجلب حجرًا، وهناك من يلتقطه ويضعه في المكان المناسب، وهناك من يجادل في المكان الأفضل لهذا الحجر أو ذاك وهناك على حد قوله: «وهناك قومٌ لا يحفرون ولا يجادلون، ولكنهم يمضون منفردين وسط هذا الزحام، يخدشون هنا وهناك ويستمتعون بالمشهد، وهناك من يجلس ويعطي النصيحة، وهناك من يجلس فحسب»(١)!... قال: فما موقع الملحد من ذاك المبنى؟!.. قلتُ: صدقًا؟!.. قال: صدقًا!.. قلتُ: ترى ذاك الخدش هناك؟!!

---

(١) Vannevar Bush (1990). Endless Horizons. Public Affairs Paper, Washington. Ch. 17: The Builder. Via: John D. Barrow. Impossibility: the limits of science and the science of limits. Oxford university Press. p. 60.

إن رؤوس الملاحدة المتظاهرين بالتشبع بالعلم الطبيعي، يشبهون أولئك الذين يمشون في الزحام يخدشون هنا وهناك، يرتدون طيالس العلماء وليسوا منهم، وليس في منجزاتهم شيءٌ ذو بال، إلا نادرًا جدًّا ندرةً تثبت القاعدة، ولا يليق بهم إلا وصف «الخدّاشين»، إذ ليس لهم أثر في المجتمع إلا المخدوعين بهم من أولئك الملحدين، الذين لا يعلمون حقيقة ما يتناوله العلم الطبيعي، ولا صواب الاستدلال به، ولا يليق بهم إلا وصف «الخدش»!

فها (هو) ذلك الملحد على «يقين تام» بتعميم مبدأ «الريبة» لمجرد أنّه لـ(هايزنبرج)! دون أن يعرف وجه استدلاله وفلسفة هذا الاستدلال ومجاله وصوابه، ويرفض الملحدون الإيمان بعقائد المتدينين لعدم قابليتها للخضوع للتجربة، ثم يقبلون ويوقنون بنظرية الأكوان المتعددة الباطلة مع عدم إمكان إثباتها بالتجربة!! ويتهكم الروائي الملحد دوجلاس آدامز من قلة عدد الفاهمين للمراد من نظرية الأكوان المتعددة فيقول: «أول شيءٍ لتدركه عن الأكوان المتوازية أنّها ليست متوازية، ومن المهم أيضًا أن تدرك أنّها ـ إن شئت الدقة ـ ليست أكوانًا»[(١)]!

وعلى الرغم من أن الميتافيزيقا المتعلقة بنظرية التطور أكثر من الميتافيزيقا المتعلقة بإثبات وجود الخالق، إلّا أن الملحد يبذل مهجة نفسه دون الدفاع عن نظرية التطور ويوشك أن يقول لك

(١) Douglas Adams. The Hitchhiker’s Guide to the Galaxy. p. 505.

«لا . . إلا نظريتي الحبيبة!»، وفي ذلك يقول أحد الأذكياء في رسالة لأحد التطوريين: «سيدي! أنا مدهوش من قدرتك على الإيمان بالتطور! فهو يتخطى إيماني بالخلقِ بكثير! إيماني يحتاج كيفيةً واحدةً وهي حبُّ الإلٰه، أما إيمانك فيتطلّب ثلاثة: أنّ شيئًا أتى من لا شيء (الانفجار العظيم)، وأنّ الصخور تستطيع أن تُنتج أشياءً حية (الحياة من العناصر غير العضوية)، وأن الطفرات الجينية يمكن أن تحوّل دودة شريطية إلى آينشتين! أنت تربح! لا شكّ أنّ إيمانك يتخطى إيماني بكثير!»[1]!

ومن أظهر ما يدل على العلاقة العاطفية بين الملحد والعلم الطبيعي: علاقته بنظرية الأوتار الفائقة Superstring theory، ومفردات هذه العلاقة «الودية» تتجلى في النواحي التالية على سبيل المثال لا الحصر:

• «أبي يعرف كل شيء»: في اعتبارها «نظرية كل شيء» باعتبار أنها ستفسر كل شيءٍ في الكون، مع أنّها تسمى بذلك من باب أنّها تبحث في ربط القوى الفيزيائية الأساسية وهي القوى الكهرومغناطيسية والنووية القوية والضعيفة والجاذبية، هذا ليس إلا، وهي حتى الآن لم تحدد هذا الربط ولو حققته فلا يعني ذلك الإلمام بمخرجات هذا الربط، فضلًا عن أن يعني أننا توصلنا لتفسير كل شيء، وأن علم الفيزياء على وشك الانتهاء من مهمته كما يزعمون!!

(١) Stephen Bram. Letter to the economist, January 2006.

• «عين الهوى عن كل عيبٍ كليلة»: فبعد أن كان الأساس الأوحد في الحكم على النظرية العلمية هو القابلية للتجربة وإثبات الخطأ، وبنى على ذلك دعواه ـ التي لا يلتزمها هو نفسه ـ في رفض كل ما لا يقبل التجربة، إذا به يقبل نظرية الأوتار الفائقة ويبني عليها معتقده متوهمًا أنها تنفعه، رغم أن كافة الفيزيائيين على أنها لا تقبل إثبات الخطأ عن طريق التجربة.

• «قليلٌ من التنازلات لن تضر!»: فإذا به بعد أن كان يشترط القابلية للتجربة وإثبات الخطأ لقبول أية نظرية، وبناء عليه يرفض مثلًا الخلق المباشر، إذا به لما علمَ أنّ نظرية الأوتار الفائقة لا يتحقق فيها هذا الشرط، يحاول تغيير قواعد اللعبة ويريد وضع شروطٍ جديدة للنظرية العلمية.. وهذا أمرٌ زائد على مجرد قبول النظرية رغم علمه بعدم قابليتها لإثبات الخطأ، فهناك فرقٌ مثلًا بين أن تقبل حديثًا نبويًا رغم علمك أنه ليس صحيحًا بزعم أن معناه صحيح، وأن تغير تعريف الحديث الصحيح من أجل أن تصحح هذا الحديث، هذا الذي يحاول بعضهم فعله الآن!

• «من أحبَّ، كان خُلقُه المسامحة!»: صحة النموذج الرياضي لا تعني موافقة الواقع، هذا أمرٌ لا يماري فيه أحد، وقد يكون عندنا نموذجان رياضيان يصفان الواقع على نفس الدرجة من القوة بل وربما يتوقعان الأحداث كذلك، دون أن يعني ذلك أن كليهما صحيحٌ فالحق لا يتعدد، فتجد أن النموذج الرياضي لنظرية الأوتار الفائقة هو الأمر الوحيد الذي يبني عليه من يقبل النظرية قبوله لها، وهذا السلوك النظري هو الذي كان يعيبه رواد

العلم الطبيعي على الفلاسفة من قبل، بل هو مما جعلوه فرقًا بين الفلسفة الطبيعية والعلم الطبيعي، لكن لا بأس.. فوِّتها!

• «مع الوقت ستتحسن الأمور!»: تشتمل النظرية على عدة أمورٍ يستلزمها النموذج الرياضي مثل الأحد عشر بعدًا ـ وهناك من يصل بها إلى بضع وعشرين بُعدًا ـ بزيادة سبعة أبعاد عن الأبعاد المشهودة، بل يستلزم التناظر الفائق Supersymmetry ـ الذي يجعلونه شاهدًا على صحة النموذج النظري للنظرية ـ أن يكون عدد الجسيمات الأساسية في الذرة ٣٦ جسيمًا ـ بزيادة ١٨ جسيمًا عن الجسيمات المكتشفة حتى الآن، وموقف الملحد من الثمانية عشر جسيمًا والسبعة أبعاد التي لم يرها، والتي يقر الفيزيائيون أنه يستحيل الوقوف عليها بمجال الطاقة الذي يعملون به الآن، ولا يبدو في الأفق القريب أملٌ في الوقوف عليها.. موقف الملحد هو الرجاء والتمني وحسب!

ولذلك فعند التعامل مع الملحد المتمسك بأية نظريةٍ من النظريات العلمية، ينبغي أن يُعلم أنّك تحاول إقناع محبٍّ بأن محبوبه يخدعه، وأن هذا الحب سيؤدي به للفشل، وأنّه لو استغرق في تلك المحبة سيضيع مستقبله، على من يريد إقناع الملحد بترك الشق الفلسفي لنظريةٍ صحيحة، أو بترك الشق العلمي المزعوم لنظريةٍ باطلة، عليه أن يزيد مجال حواره من الإثبات العلمي لبطلان استدلال الملحد بالنظرية على الإلحاد، إلى مجال معالجة العلاقة العاطفية بين الملحد والنظرية، بالوقوف على مظاهر تعلقه الوجداني بها رغم تناقضاتها مع عقله وطريقته!

إنّ بؤس الملحد لا ينحصر في كونه لا يفرق بين المناهج التي تُدرّس في كلية العلوم، والعقيدة التي يحتاج إليها قلبه فحسب، بل بؤسه أن العلاقة بينه وبين هذه المناهج ليس علاقةً علميةً مبناها على النظر والتشكك ومواصلة البحث وعدم المبادرة بالجزم، وإنما هي علاقةٌ عاطفيةٌ روحانيةٌ تمامًا، يحل اليقين محل التشكك، والتفويض محل البحث، والرجاء محل النظر، ويبني الاستنتاجات الكبرى على أصغر المقدمات!

يقول جون جراي في سر اعتقاد غير المتدينين بالتقدم العلمي: «كتب «فيليب لاركين» عن العقيدة الدينية على أنها . . . نظامٌ من الأكاذيب ابتُدع ليحمي الإنسان من خوفه من الموت، وربما كان لوصفه شيئًا من الصواب، ولكنّه يُطبّق بصورةٍ أفضل اليوم على العقيدة العالمانية في التقدم العلمي»(١)، ويقول: «نحن نبحث في فكرة الاعتقاد بالتقدم العلمي عما يبحث عنه المتدينون في فكرة العناية الإلٰهية: أن نطمئن أن التاريخ ليس عديم المعنى»(٢)!

المفترض أنّ الإحساس الذي يولّده إنكار الدين والالتزام بالعلم الطبيعي كمصدر وحيد للمعرفة، ويعوّض الملحد عن روحانيات الدين ـ تعويضًا باهتًا كما يقول الفيزيائي الملحد ستيفين واينبرغ(٣) ـ هو إحساس (النبل) . . أن يشعر الملحد (بنبله)

---

(١) John Gray (2004). Heresies: Against progress and other illusions. London: Granta books.

(٢) Gray J (2005). The myth of progress in science and society. Proceedings of the Bath Royal Literary & Scientific Institution.

(٣) ستيفين واينبرغ: «أحلام النظرية النهائية»، والذي ترجم تحت عنوان: أحلام الفيزيائيين بالعثور على نظريةٍ علميةٍ جامعةٍ شاملة، ترجمة أدهم السمان، صفحة ١٩٩.

تجاه أولئك العوام الذين يجدون سلواهم في المعتقدات الدينية! الأزمة التي تواجه الملحد كلّما تعمّق في دراسة العلم الطبيعي، أنّه تتكشف له حقيقته، يرى الشكّ والقصور والمحدودية، هذا الشك في قدرة العلم الطبيعي يُضعف من شعور الملحد بـ(النبل)، فكيف يوجد استشعار نبل العائلة في قلب من يشك في نسبه؟!

السبيل الذي يلجأ إليه أغلب الملحدين هو إنكار هذا القصور في العلم الطبيعي، كحيلةٍ دفاعية نفسيةٍ يهرب بها من مشكلته مع العلم الطبيعي، ينكر أيّ قصورٍ ومحدوديةٍ وشكٍّ وانحيازٍ في العلم الطبيعي، ولو وقع فهناك ـ بالتأكيد ـ آلياتٌ ذاتيةٌ تنفي هذا الخبث على الفور.. وهمٌ كبير، لكنّه مُريح! وهنا يبدأ العلم الطبيعي في التحول إلى (ديانةٍ كاذبةٍ) ينغمس فيها صاحبها ولا يريد معرفة حقيقتها!

السبيل الآخر هو محاولة البحث عن سبيلٍ أعلى من العلم الطبيعي، لا يعجبه بالطبع السبيل الذي يُنزل العلم الطبيعي حقّ منزلته من غير إفراطٍ ولا تفريط، فيضيف إليه الأحكام العقلية والشرعية التي تعالج كافة جوانب النفس، يبحث عن سبيلٍ آخر.. سبيلٍ يشبه الأناركية عند من يتخذها وسيلةً لتخطي قصور الأنظمة الحاكمة، لكنّه لا يجد ملامحَ أناركيةٍ علميةٍ على أرض الواقع، كل الذي ينقصه أن يخرج أحدهم بفلسفةٍ أناركيةٍ علمية، يطلق طلقة البداية وسوف يجري هو في المضمار بأقصى سرعته، حتى ذلك الحين يكتفي بالاحتفاظ بهذه الأناركية في داخله.. يتجنب النظر إلى مواطن الضعف، ويمنّي نفسه بلحظة الانعتاق!

الدائرتان!

«هؤلاء الذين يُهملون شأن الحقيقة في الأمور الصغيرة،
لا يُوثق بهم في شأن الأمور العظيمة»(١)

ألبرت آينشتين

قد يسير المرء في طريقٍ طويلٍ فيستغرق فيه حتى يجعله عالَمَه، وقد يطيل المُكث في بيته حتى يصير كوكبه، وقد يستهلك نفسه في مهنته وعمله حتى يعدها حياته، كلّ هذا مقبولٌ ويقع ولا يكون له كبيرُ أثر، لكنّ التّوهم على الحقيقة يقع عندما يُدَّعَي أنّ العالم هو ذلك الطريق فحسب، أو يقول أنّ الكوكب الأرضي ليس إلا ذاك البيت ليس إلّا، أو يزعم أنّه ليس في الحياة إلا مهنته، ومهما كان الطريق وسيعًا موصّلًا، أو كان البيت مجهزًا طيبًا، أو كانت المهنة خادمةً نافعة، فلا ينفي ذلك وقوع التّوهم المُذهِل ولزوم الإفاقة المُدرِكة!

يُقال إن مجموعة من العميان وقفوا أمام فيل، ودُعِي كلٌّ

(١) Calaprice A. (2010). The Ultimate Quotable Einstein. Princeton University Press, Princeton, New Jersey. Page 187-188.

منهم أن يذكر حقيقة الكائن أمامه، فمدّ كلٌّ منهم يدَه يستشعر ما تقع عليه، فقال الأول إنّه عمود لما أمسك برجل الفيل، وقال الآخر هو حبلٌ لما أمسك بالذيل، والثالث أمسك الناب فقال رمح، والرابع وضع يده على البطن فقال جدار، فلما آن أوان المكاشفة، قيل لهم إنه لو استعان كلٌّ بأخيه لتوصلوا إلى حقيقة الفيل الواقف أمامهم، فأذعنوا جميعًا إلا واحدًا أصرَّ أن الذي أمامه ليس إلا حبلًا؛ لأنّ هذا هو ما أمسكه بيده!! وهذا أيضًا من التّوهم الذي يُلزم بضرورة المراجعة!

العلم الطبيعي Science هو إحدى أفضل المنظومات التي أنتجها العقل البشري وعمل في ظلالها، لا ينكر فضله إلا معاند، ولا تتخلف عنه أمّةٌ إلا ضيّعت استقلالها، ولا يُبغض طريقته إلّا مخرّف، به تيسرت الاتصالات، وكثُرت المواصلات، وصنعت الأدوية، وتطورت الجراحة، به رغد العيش، وتيسَّرَ الحفظ، وسهلت القراءة، ونُفيت الخرافات، به رفعت المباني، وتطاول البنيان، ومُهِّدت الطرق، وأمكن حفظ الأمن، وردع العدوان! فمن الذي ينكر فضله!؟

يقع التّوهم عندما نسير في طريق العلم الطبيعي ثم نزعم ألّا طريق إلا طريقه، أو نمتهن مهنةً لها تعلق بالبحث العلمي ثم ندعي أن مهنتنا هي الوحيدة التي تؤدي لتحصيل المعرفة، أو تكون كل قراءاتك في العلوم الطبية والفيزيائية فترى ألّا فائدة من قراءة ما سواهما! هذا ينقلنا من أناسٍ علميين يتبعون الطريقة العلمية إلى معتنقين للمذهب الطبيعي Naturalism أو المذهب

المادي Materialism أو ما شابه من المذاهب، عندهم من ضيق الأفق ما يجعل مخرفّي القرون الوسطى بأوروبا مقارنةً بهم في غاية الانفتاح!

يتوقّع نجيب محفوظ هذا الجمود الذي يولّده الاستغراق في التمسك بالعلم الطبيعي في روايته الشحاذ، يقول على لسان إحدى شخصياته: «ولكن صدقني أنّ العلم لم يُبقِ شيئًا للفن! ستجد في العلم لذة الشعر ونشوة الدين وطموح الفلسفة! صدقني أنّه لم يبق للفن إلا التسلية، وسينتهي يومًا بأن يصير حليةً نسائيةً مما يُستعمل في شهر العسل»![١]، فلك أن تتأمل عاقبة هذا الاستغراق في الاكتفاء بالعلم الطبيعي على النفس، وما يصيبها من انغلاقٍ وضيق أفقٍ فضلاً عن اكتئابٍ وملل!

إنّنا نقبل العلم الطبيعي كوسيلة بحث، ولا نقبله كفلسفةٍ شاملةٍ ننظر من خلالها للحياة Worldview؛ لأنّ تبني هذه النظرة يجعلك متّبعًا للمذهب الطبيعي، متّبعًا لفلسفةٍ تنظر بها للعالم وتفسره من خلالها، وأنت في اتباعك هذه الفلسفة لا تبني اتباعك على طريقة العلم الطبيعي والتجريب، بل تبني اتباعك على طريقةٍ فلسفية، إذ ليس في العلم الطبيعي ما يُثبت بالتجربة أنّ العلم الطبيعي وحده يكفي لتفسير شأن النفس والكون، الأخلاق والفن، الحياء والإقناع، الأرض والسماء، وسائر المُشاهدات والمحسوسات!

---

(١) نجيب محفوظ، رواية الشحاذ، مطبوعات مكتبة مصر، صفحة ٢١.

انظر في هذا المذهب الطبيعي وأخبرني بأي دليلٍ وتجربةٍ ستثبته، عندما تزعم أنّه ليس ثمّ إلا الطبيعة، وأنّ الإنسان ليس سوى مركّبًا من مُركبات الطبيعة، وأنّ أفكار الإنسان ومعتقداته ليست إلا جزءًا من هذه الطبيعة وليس لها حقيقةٌ خارج الذهن إن كانت وراء الطبيعة المنظورة، بأيّ دليلٍ وتجربةٍ ستثبت هذه المقدمة؟ أم هو تحكم الرأي والمصادرة على المطلوب؟! وبناءً على مقدمة «ليس ثمّ إلا الطبيعة!»، يقولون: إنّ الكون نظامٌ مغلق لا يفتقر لخارجٍ عنه، وبناء على هذه المقدمة كذلك يُقال: إنّه لا معنى للغائية في الطبيعة المادية الجامدة، فلا شيءَ يحدث من أجل شيءٍ آخر، وإنما هي أحداثٌ تعقبها أحداثٌ، وتنزع الغائية، ليس هناك روحٌ ولا حياةٌ بعد الموت، ليس هناك دارٌ آخرة ولا غايةٌ من الخلق، فخبّرني ما الدليل من التجريب والحس على هذا المذهب؟! إنّه ليس إلا مقدماتٌ فلسفيةٌ يستحيل إثباتها بالعلم الطبيعي ومع ذلك تتمسح به وتزعم أنّها تستمد وجودها من طريقته؟!

إنّ سخف هذا الطرح الفلسفي في المذهب الطبيعي، وقصوره والمصادرات التي يقوم عليها، جعلت التمسك به عند الملحدين أمرًا غير معلنٍ في كثيرٍ من الأحيان، وكثيرٌ منهم عندما تُحدثه عن هذا المذهب وهل هو طريقته للنظر للأمور، ينفي ذلك ويستنكره ويخبرك أنّه لا يهتم إلا بالدليل، وهو في الغالب صادقٌ في عدم تبنيه لهذا المذهب عن وعي، ولكنّ هذا المذهب يتخلل نفسه دون شعور، فيجعل رفضه لكثيرٍ من الأخبار والقضايا

والأحكام مبنيًّا على عدم ثبوتها من طريق العلم الطبيعي والمجلات العلمية حتى وإن لم يصرّح بذلك، ويكتفى بالمناقشات الجزئية الرافضة للدليل العقلي على قضيةٍ ما! نعم.. يرفض الأدلة الشرعية من بابها ويصرّح بذلك! لكن النادر أن يرفض الدليل العقلي جملةً واحدة ويحصره في الدليل التجريبي وحده! المقصود أن العنصر النفسي يلعب دورًا رئيسًا في تبني الملحد للمذهب الطبيعي من حيث لا يدري!

«وخطأ أن يزعم أنصار المذهب المادي أن تجربتهم لا تسلّم بحياةٍ بعد هذه الحياة، أو أن بحثهم يرفض أيَّ وجودٍ بعد هذا الوجود، فإنّ للتجربة ميدانًا لا تتجاوزه، وللبحث العلمي دائرةً لا يتعداها، ومن العبث أن نتكلم باسم العلم في دائرةٍ تسمو على العلم، وأن نفسر عالم الغيب الفسيح بقوانين عالم الشهادة المحدود، ولن يضير الخلودُ في شيءٍ أن تعجز عقولنا عن الانتصار له، فإنّه يستمد جلاله ورهبته من مصدرٍ أسمى»[1]!

كيف ـ على سبيل المثال ـ تستخدم الطريقة العلمية الطبيعية Scientific method في قبول الأخبار؟! كيف تقرأ بها التاريخ؟! كيف تستعملها في اختيار شريكة حياتك وتربية أولادك؟ كيف تستعملها في تقييم لوحةٍ فنيةٍ أو مشهدٍ من مشاهد الطبيعة الأخّاذ؟ كيف تستعملها في الحكم على ما قبل هذا العالم وما بعده؟!

(١) د. إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية.. منهج وتطبيق، دار المعارف: ١/١٩٣ ـ ١٩٤.

كيف تستعملها لتحصيل السعادة؟! كيف تستعملها لتهذيب الأخلاق؟! كيف وكيف؟! لماذا تضيّق واسعًا وسبل العلم أكثر من ذلك؟!

في سبيل تخطي هذا القصور في مجال العلم الطبيعي، اقترح ستيفين جاولد أن يُنظر لمجالي الدين والعلم الطبيعي أنّهما مجالان متجاوران لكلٍّ منهم طريقته واختصاصاته Nonoverlapping Magisteria (NOVA)[١]، يعمل العلم الطبيعي بالتجربة ليجيب عن الأسئلة المتعلقة «بما يتكون منه العالم (الحقيقة العلمية) ولماذا يعمل على هذه الكيفية (النظرية العلمية)»، بينما يعمل الدين على إجابة أسئلة المعنى والقيم الأخلاقية[٢] ومن قبله ـ وفي ذات الاتجاه ـ يقول التطوري ثيودوسيوس دوبجانسكي: «العلم الطبيعي والدين يتعاملان مع جهتين مختلفتين من الوجود.. أحدهما يتعامل مع جهة الحقيقة والآخر يتعامل مع جهة المعنى»[٣]!

يرى جاولد أنّ العلم الطبيعي والدين يعملان في دائرتين متجاورتين، لكلٍّ منهما طريقته في إثبات القضايا التي من اختصاصه، لكنّ هناك حدودًا ونقاطًا يقع النزاع فيه بين الدائرتين، تحاول كلُّ دائرةٍ أن تدّعي الحق فيها لنفسها، هنا يضع جاولد قواعد تساعد على منع هذا الخلاف، منها مثلًا ألّا يدّعي أهل

(١) Stephen J Gould. Nonoverlapping magisteria. Natural History 1997; 106:16-22.

(٢) السابق.

(٣) Theodosius Dobzhansky (1971). The Biology of Ultimate Concern. London. p. 96.

الدين أن أي حدثٍ من أحداث التاريخ قد حدث عن طريق تدخلٍ مباشرٍ من الإلٰه، والحقيقة أن طريقة جاولد لمعالجة مناطق النزاع هذه لا تصح ولا تُوصّل إلى منع النزاع أو حلّه بطريقةٍ صحيحة! وقد أدرك ستيفن واينبرغ هذه النقطة فقال «إنني أميل إلى موافقة جاولد في معظم الأشياء ولكنني هنا أعتقد أنه يذهب إلى أبعد من اللازم، ذلك أن مغزى الدين يتحدد بما يعتقده فعلًا الناس المتدينون، وهؤلاء بأكثريتهم الساحقة سوف يندهشون من مقولة إن الدين لا صلة له البتة مع الواقع العملي»[1].

لا تمثّل القضايا التي تختص بها إحدى الدائرتين ـ دائرة الدين ودائرة العلم الطبيعي ـ دون الأخرى، ولا يظهر تعلق الدائرة الأخرى بها فضلًا عن أن يُتصور تعارض بينهما، لا تمثّل تلك القضايا مشكلةً إلا عند من يقصر العلم على العلم الطبيعي فحسب، وهذا الذي يقصر العلم على العلم الطبيعي فحسب، هذا القاصر نفسه لا يطبّق ذلك في حياته، في نقد الأخبار والتربية والمعاملة والنظر في التاريخ والتحلي بالأخلاق، وقد سبق بيان أنّ هذا من التحكم المحض، بل إن الإعراض عن الإقرار رغم ثبوت المسألة بدليلها بزعم الحاجة لدليلٍ آخر يعد من الانقطاع في مقام المناظرة[2]!

---

(١) ستيفين واينبرغ، أحلام الفيزيائيين بالعثور على نظرية نهائية جامعة شاملة، ترجمة أدهم السمان، مكتبة دار طلاس، صفحة ١٩٧.

(٢) ومثال ما لا يقع في دائرة العلم الطبيعي وجود الجن والملائكة، فهذه لا قِبل للعلم الطبيعي بإثبات وجودها من عدمه وليست من اختصاصه، وليس عند الماديين ما يمنع =

لكنّ الإشكال في تصور الدائرتين هذا أنّه لا يسمح بأي تداخلٍ بين المجالين مجال الدين ومجال العلم الطبيعي بأية طريقةٍ حتى لو كانتا متفقتين، فلو أنّ النص الديني مثلًا وصف مراحل تكون الجنين في الرحم، ثمّ جاء العلم الطبيعي فأيّد المذكور في النص الديني، فإنّ فكرة الدائرتين غير المتطابقتين هذه تمنع الاستدلال بالنص الديني على وصف مراحل الجنين مثلًا حتى ولو كان يوافق المذكور في العلم الطبيعي!

الإشكال والقصور الثاني في التصور الأفقي لدائرتي الدين والعلم الطبيعي يظهر عندما تكون هناك قضيةٌ ظاهرها أنّها تنتمي لإحدى الدائرتين دون الأخرى، قضيةٌ تنتمي لدائرة العلم الطبيعي، ثم يرد في النصوص الدينية ما يتناول هذه القضية بحكمٍ أو وصفٍ أو تقرير، ولا يكون في العلم الطبيعي ما يتناول هذا الحكم أو ذلك الوصف والتقرير بنفيٍ، بل قد لا يكون في العلم الطبيعي ما يتناول هذه القضية بعينها أصلًا، وعليه فتكون المحصلة أنّ عندك قضيةً فيها تقريرٌ من جهة الدين ولا تقرير فيها من جهة العلم الطبيعي مع أنّها أشبه بالوقوع في دائرة العلم الطبيعي، مثل قضية أقل مدة الحمل الذي ينتج مولودًا لا يحتاج لعنايةٍ طبيةٍ خاصةٍ في الإنسان مثلًا، فالشرع قد جاء بتحديدها

= من وجود كائنات فضائية لا نعرف أشكالها، وليس في العلم الطبيعي ما يمنع من وجود كائنات مجهرية لا نراها، أو أصواتٍ لا ترصدها آذاننا، وقد ثبت وجود الملائكة والجن بالنص الديني الثابت الصريح، فأي دليلٍ يعتمد عليه الماديون في نفي وجودهم إلا ركوب الرأس عندًا وتحكم الهوى ضلالًا؟!

بأنّها ستة أشهر[١]، في حين لم يرد في العلوم الطبية ما ينفي هذا التحديد[٢]، فالمتوقع أن يبادر المرء إلى قبول التقرير الديني بنصٍّ ثبت بطريقٍ مقبول، خصوصًا وليس هناك ما يُعارضه في العلم الطبيعي!

هذه المبادرة المتوقعة لقبول التقرير الديني لقضيةٍ لم يتعرض لها العلم الطبيعي أصلًا، هذه المبادرة تتأخر كثيرًا وتُرفض أحيانًا، بسبب هذه الصورة الذهنية النمطية للدائرتين، مع أنّه من

---

(١) قال ابن المنذر رحمه الله: «وأجمعوا على أن المرأة إذا جاءت بولدٍ لأقل من ستة أشهرٍ من يوم عقد نكاحها أن الولد لا يلحق به، وإن جاءت لستة أشهرٍ من يوم نكاحها فالولد له». [الإجماع: ٦٩]، وقد استنبط الصحابة رضوان الله عليهم هذا التحديد بستة أشهر، من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ [الأحقاف: ١٥]، فإنّه: (قد استدل عليٌّ رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أنّ أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباطٌ قويٌّ صحيح، ووافقه عليه عثمانٌ وجماعةٌ من الصحابة رضي الله عنهم) [تفسير القرآن العظيم].

(٢) الذي ورد في الطب هو تحديد مدة الحمل التي يكون عندها الجنين قابلًا للحياة بمساعدة العناية الطبية، دون التعرض لنفي كون أقل مدة الحمل ستة أشهر بمعنى أقل مدة الحمل التي يكون عندها المولود حيًّا دون حاجة لعناية طبية، فالذي يعني الأطباء هو (تحديد النقطة الفاصلة التي عندها يكون الطفل «قابلًا للحياة» بأن يكون من الممكن أن يعيش خارج رحم الأم ولو بمساعدةٍ اصطناعية، وتكون عادةً عند سبعة أشهر «٢٨ أسبوعًا» وقد تكون قبل ذلك عند ٢٤ أسبوعًا).
Reference: Melody Rose. Abortion: A documentary and reference guide. P106.
(ومع التقدم المستمر في العناية المركزة بحديثي الولادة، فإنّ حدّ إمكانية الحياة ينتقل نحو فترةٍ أصغر فأصغر لحمل الجنين، على سبيل المثال: فقد تحقق البقاء بعد ٢٢ أسبوعًا كاملةً من الحمل).
Reference: Swiss society of neonatology. Recommendations for the care of infants born at the limit of viability (gestational age 22-26 weeks).

التحكم المحض أن يقصر المرء معرفته على مصدرٍ واحد للمعرفة «فليس له أن يتخير طرق العلم، كما ليس له أن يتخير من الأصول إلا ما يرجع إلا إلى علم المشاهدة؛ لأن هذا تحكمٌ لا يستعمله المنصف»[١]! وحيثُ ثبت بدليلٍ صحيحٍ وهو الخبر الصادق تقريرٌ ما، فإنّه من العنت في السلوك والانقطاع في الحجاج أن ترفض الدليل لا لشيءٍ إلا لأنّه ليس من نوع الدليل الذي ترضاه ذائقته الشخصية[٢]!

---

(١) ابن عقيل الحنبلي: الواضح في أصول الفقه ٢ / ١٢٩.

(٢) ومثله الأحاديث التي تثبت لسبق ماء الرجل وماء المرأة دورًا في تحديد جنس الجنين، فالعلم الطبيعي يثبت أن في الحيوانات المنوية ما يحمل كروموسوم X فإن لقّح البويضة كان المولود أنثوي الكروموسومات XX، وإن كان الحيوان المنوي الذي يحمل كروموسوم Y هو الذي يخصّب البويضة كان المولود ذكري الكروموسومات XY، ولكنّه لا يخبرنا بكل العوامل التي تحدد سر وصول هذا الحيوان المنوي دون ذلك، نعم! يمكنك أن تأخذ حيوانًا منويًّا يحمل الكروموسوم X مثلًا لتلقّح به البويضة في عملية إخصاب صناعية *In vitro* fertilization (JVF)، لكن هذا شيءٌ وتحديد العوامل التي تحدد الحيوان المنوي الفائز في عملية إخصابٍ طبيعية شيءٌ آخر، العلم الطبيعي يُثبت مصدر التنوع ـ الذكر والأنثى ـ ألا وهو العنصر الذكري في عملية الإخصاب ولكنّه لا يحدد كافة العوامل المؤثرة في الاختيار وتحديد نوع الجنين بذكرٍ أو أنثى، إلى هنا والمسألة منتهية ليس فيها شبهة، النص الشرعي يثبت أثرًا لماء الرجل وماء المرأة الذي ينزل عند الشهوة كما تفهمه العرب دون قصرٍ وحصرٍ لأنّ يكون سبق الماء هو الوحيد المؤثر، والعلم الطبيعي لا ينفي هذا الأثر ولا يُثبته، المنطقي أنّه على هذه الصورة لا تعارض أصلًا حتى يُسعى لرفعه، وانتهى الإشكال، كل الذي يحتاجه الأمر هو نفسٌ رزينةٌ هادئةٌ لا تطير وتفزع لأن هناك احتمالًا أن يكون هناك شبهةٌ في المستقبل، الدين يثبت أثرًا لماء المرأة والعلم الطبيعي لا ينفيه وانتهى الأمر، لا يلزم في الرد أن تأتي من العلم الطبيعي بما يوافق النص الديني كما يفعل بعض المتصدين للكلام في قضايا الإعجاز العلمي، الذي يلزم وحدُّ الكفاية في الجواب أن تثبت أن هذه القضية الدينية لم يتعرض لها العلم الطبيعي بشيء، وبالتالي يرتفع التعارض! =

= فإن أردنا أن نزيد على هذا القدر الزائد بما نستأنس به في جواب هذه الشبهة فلا بأس من ذلك، دون أن ندعي إعجازًا في موافقة العلم الطبيعي للنص الديني في كل قضيةٍ تطرح علينا، يقول أستاذ البيولوجيا ويليام إيبيرهارد: (عبارة «تنافس الحيوانات المنوية» تستعمل غالبًا بطريقةٍ حصرية، لوصف بدء المنافسة بين الحيوانات المنوية بعد الجماع.. هذا الاصطلاح يؤدي إلى التهوين من دور الأنثى في تحديد الحيوان المنوي الفائز بالأبوة)، ويقول: (عبارة «تنافس الحيوانات المنوية» تبعث في الذهن صورة جيوشٍ من الجنود الدقيقة أحادية الذيل تتسابق في القنوات الأنثوية، أو تتصارع في تشابك بالأيدي للوصول إلى كنوزٍ كبيرةٍ ساكنة، إنّها ـ أي هذه الصورة ـ تؤكد على الدور الفاعل للذكر في العلاقة بين الذكر والأنثى، موضوع هذا الفصل هو توضيح أن الصور التي من هذا النوع مضللة، لأنّها تؤدي إلى التقليل من احتمالية تأثير الأنثى في عملية المنافسة وفي تحديد الحيوان المنوي الفائز)، ولتكن هذه هي المقدمة الأولى.

Reference: Birkhead, T., & Pape, A. (1998). Female roles in sperm competition. In Sperm Competition and Sexual Selection (pp. 91-92). Academic Press.

المقدمة الثانية: حركة الحيوان المنوي وسرعته في طريقه للوصول للبويضة هي من محددات الحيوان المنوي الفائز في سباق الإخصاب، وهناك دراسات عدة للبحث في العوامل المحددة لحركة وسرعة الحيوانات المنوية في طريقها داخل القنوات الأنثوية، ومن هذه العوامل المحددة مثلًا طول ذيل الحيوان المنوي، وفي بحثٍ عن علاقة طول ذيل الحيوان المنوي بسرعته وجد الأستاذ ويليام هولت أنّ العلاقة بينهما علاقة حافّية Marginal، مما يشير إلى أن اختيار الحيوان المنوي الفائز في الثدييات الحية يعتمد على مواصفات معقدة.

Reference: HOLT WV, HERNANDEZ M, WARRELL L, SATAKE N. The long and the short of sperm selection in vitro and in vivo: swim-up techniques select for the longer and faster swimming mammalian sperm. J Evol Biol. 2010 Mar;23(3):598-608.

من المقدمة الأولى وهي أن للمرأة دورًا في تحديد الحيوان المنوي الذي سيفوز في عملية الإخصاب، والمقدمة الثانية التي تشير إلى أنّ عملية تحديد الحيوان الفائز تعتمد على سرعته والتي بدورها تعتمد على مواصفاتٍ معقدة، نصل لنتيجة مفادها أن العلم الطبيعي لا ينفي دور ماء المرأة في تحديد الحيوان المنوي الفائز في سباق الإخصاب ولا يثبته، ولكن فيه ما يستأنس به في صدد ثبوت تأثير ماء المرأة بالنص الديني وحده. =

= ومن هذا الباب كذلك ـ باب المسكوت عنه في العلم الطبيعي وهو مذكورٌ في النصوص ـ قوله تعالى في أصل خلق الإنسان: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧]، فهنا يبادر بعض المهتمين بالإعجاز العلمي بحمل المعنى على أنّه من مكانٍ بين الصلب والترائب، فيحملونه على المنطقة التي يتكون فيها الخصية والمبيض في الجنين، ما بين العمود الفقرى وعظام الصدر، ويفوتهم قوله تعالى: ﴿وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، وإنما الجواب ينبني على مقدمتين:

المقدمة الأولى: في جواب هذا الإشكال: إن عُلم أنّ قومًا من الصحابة ﵃، سألوا رسول الله ﷺ أن يأذن لهم في الاستخصاء، ونُهوا عن ذلك، وحديث ابن مسعودٍ ﵁ في ذلك متفقٌ عليه، وقال الحافظ ابن حجر في شرحه: «الحكمة في منع الخصاء أنه خلاف ما أراده الشارع من تكثير النسل»، وقال النووي ﵀: «تحريم الخصي لما فيه من تغيير خلق الله، ولما فيه من قطع النسل وتعذيب الحيوان والله أعلم»، وإن عُلم أن خصاء الحيوان Neutering كان ممارسةً معروفةً عند العرب وغيرهم من الأمم منذ القدم، مع تحريم بعض أهل العلم في الإسلام لخصاء الحيوان لغير مصلحةٍ لما فيه من المثلة وقطع النسل، إن عُلِم ذلك جزمنا أنّ معرفة علاقة الخصية بالماء الذي يكون منه النسل كانت معروفةً للأمم، فضلًا عن العرب الذين يعمل كثيرٌ منهم برعي الغنم، فضلًا عن العلم بها عند رسول الله ﷺ!

المقدمة الثانية في الجواب: بيان أنّ الفعل الذي يجري على عملياتٍ متعددة تشترك أو تتوالى، هذا الفعل يمكن وصفه بإحدى هذه العمليات دون أن يلزم من ذلك نفي سائر العمليات، فلو كان هناك منتجٌ (ص) يصدر عن العملية (أ)، ثم (ب)، ثم (ج)، ووصفتُه بأنه ينتج من (أ) لا يعني ذلك أنني أنفي صدوره من (ب) و(ج)، أو وصفت (ص) بأنه ينتج من (ج) لم يكن ذلك نفيًا لدور (أ) و(ب)! والكلام (ص) يكون منتجًا من الفكر (أ) الذي يعمل عن طريق الأعصاب (ب) التي تحرّك أعضاء النطق (ج) وهي اللسان والشفاه وغيرها لينتج الكلام (ص)! فأنت مثلًا ترى أحد الناس يتكلم بكلمةٍ (ص) أغضبت من حوله، تلومه قائلًا: «هذه عاقبة فكرك (أ) السقيم!»، مع أنّه يكون باشر هذا الفعل بلسانه (ج)، واختيارك نسبة الخطأ في الكلام (ص) للفكر (أ) لا يعني أنّك تنفي نسبته للسان (ج) مثلًا، ونظير ذلك حين سئل رسول الله ﷺ عن مؤاخذة الناس بكلامهم (ص)، أجاب أن الذي يكب الناس =

= على وجوههم في النار هو «حصائد ألسنتهم (ج»)، دون أن يعني ذلك عند أحدٍ أن الكلام لا ينتج من الشفاه والحلق والفك والحنجرة وغيرها، ودون أن يعني هذا أن الكلام لا يحتاج للفكر (أ) فيه قبل أن يخرج من اللسان!

وتكمن البلاغة في اختيار الوصف المناسب للمقام، فأنت حين ترد الكلام وقت الملام إلى الفكر وتقول: «هذه عاقبة فكرك السقيم»، تطلب من المخاطَب أن يراجع فكره، الذي أنتج هذه الكلمات التي أوجبت الاعتذار، وحين قال ﷺ: «**وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**»، كان ذلك للفت النظر إلى خطورة الكلام وعاقبته مع يسره وإمكانه للجميع، فهو قد يكون أسهل شيءٍ حتى يلقيه المتكلم من لسانه دون فكر، وفي نفس الوقت هناك من يحصد هذا الخارج من الكلمات ليُحاسَب عليها المرء بعد ذلك، ثم قد تكبه في النار!

ونعود لمثالنا هنا: هل الخصية وحدها هي المسؤولة عن تكوين الحيوانات المنوية؟ الجواب العلمي هو: لا، وهذا مشتهر لا خلاف فيه، والدليل أنّك قد تجد المرء مصابًا بانعدام الحيوانات المنوية Azospermia ومرد ذلك إلى أسبابٍ غير متعلقةٍ بالخصية Pre-testicular azospermia وهي حالات نادرة الحدوث لكون الخلل في هذه الأعضاء نادرًا في الجملة، ونادرًا أن يظهر في صورة انعدام الحيوانات المنوية فحسب! فالمقصود أنّه ليست الخصية وحدها هي المسؤولة عن تكوين الحيوانات المنوية حصرًا! وفي الآية ما يشير إلى أن المقصود يسبق ما يظهر للناظر في شأن هذا الماء وهو لفظ «يخرج»، قال ابن عاشور رحمه الله في تفسيره: «والخروج مستعمل في ابتداء التنقل من مكانٍ إلى مكانٍ ولو بدون بروز، فإن بروز هذا الماء لا يكون من بين الصلب والترائب».

فإن سألنا لماذا اختِير أن يوصف الماء الدافق بأنّه يخرج من بين الصلب والترائب على وجه التحديد هاهنا؟!

ذلك لأنّ طبيعة الماء الدافق تنافي طبيعة العظام الثابتة، فالذي أخرج الماء السائل من هذه العظام القوية الصلبة، فكيف بصلابتها هي؟! والذي أخرج هذا الماء الجاري من عظام الظهر والصدر وهي أقل عظام الجسم من جهة نطاق الحركة مقارنةً بعظام اليدين والرجلين، الذي أخرج هذا الماء الدافق من بين هذه العظام الصلبة قليلة الحركة، لقادرٌ على أن يرجع الإنسان مرةً أخرى يسعى لمحشره، بعد أن حواه جوفُ الأرض ساكنًا لا حياة فيه! ولذا عندما ينظر الإنسان مم خلق، سيعلم أنّ الله =

أعود وأقول: إنّ قصور التصور الأفقي للدائرتين الدينية والعلمية الطبيعية يظهر عندما تكون هناك قضيةٌ ظاهرها أنّها تنتمي لإحدى الدائرتين دون الأخرى، ولنعكس هذه المرة بقضيةٍ

= على رجعه قادر! ولكن لا تخلط فقد كان الإنسان في الدنيا قويًّا بعقله يخطط ويحفظ الأسرار، وقويًّا ببدنه، وقويًّا بجماعته وبني جنسه، لكن في الرجعة الآخرة، ستبلى السرائر، وليس ثمّ قوةٌ ولا ناصر..!

من المقدمة الأولى والثانية يظهر أنّه لا يلزم من وصف الماء الدافق بأنّه يخرج من بين الصلب والترائب نفي كونه يخرج من الخصية، كما لا يلزم من وصف الكلام بأنّه من اختراع دماغ المتكلم نفي كونه من مخرجات اللسان وأعضاء النطق، خصوصًا إذا استحضرنا أنّ المتكلِّم والمبلِّغ والمخاطبين جميعًا يعلمون دور الخصية في خروج الماء الدافق والإنجاب! فإنْ وقفنا عند هذا الحد كان الوصف بأنّ الماء يخرج من بين الصلب والترائب، زيادة علمٍ لا تنفي العلم الثابت بعلاقة الماء بالخصيتين، وبالتالي فزيادة العلم هذه مصدر ثُبوتها هو الوحي، ولا يوجد من العلم الطبيعي ما ينفيها، وعليه فلا يوجد تعارض بين ثابتٍ من الشرع وثابتٍ من العلم الطبيعي، لأن الثابت من الشرع لا ينفيه شيءٌ من العلم الطبيعي! ولكن لنكمل فوق هذا الحد الكافي..

في جورنال البحوث الإكلينيكية The Journal of Clinical Investigation ذي معامل التأثير 13.765 في سنة ٢٠١٣م، نشرت بحثًا عن هرمونٍ ينتج من الخلايا العظمية osteoblast-derived hormone واسم هذا الهرمون هو Osteocalcin تقترح أنّ له دورًا في تنظيم الخصوبة في الإنسان من خلال محور هرموني يشمل البنكرياس ـ العظم ـ والخصية pancreas-bone-testis axis.

Reference: Oury F, Ferron M, Huizhen W, et al. Osteocalcin regulates murine and human fertility through a pancreas-bone-testis axis. *J Clin Invest*. 2013;123(6):2421-2433.

نُشِر هذا البحث في مايو ٢٠١٣م، وقام بحثهم على دراسة تعرضية Cohort study لمجموعة من الذكور المصابين بفشل أولي في وظائف الخصية Primary testicular failure، فوُجد أن اثنين منهم سبب مشكلتهم هو خلل في هذا الهرمون، ويمكن مراجعة هذا البحث ومراجعه للوقوف على حقيقة ذلك، فهذا البحث وما سيتلوه من بحوثٍ مستقبلية تجعل المبادرة بالجزم برفض هذا العلم الزائد الثابت بالنص الشرعي ليس فقط تهجمًا لنفي ما لا ينفيه العلم الطبيعي، بل تهجمًا على نفي ما يلوح في الأفق بوادر من العلم الطبيعي في اتجاه إثباته.

ظاهرها أنها تنتمي لدائرة النص الديني، ثم يحاول الباحثون في العلم الطبيعي البحث عنها في دائرتهم أو يقررون تقريراتٍ علميةً بحتة بدون خلفيات فلسفيةٍ بصدد هذه القضايا، مثل محاولة البحث عن كائناتٍ مجهريةٍ أو أحماضٍ أمينيةٍ أو ما شابه فوق سطح المريخ مثلًا، مثل هذه القضية ظاهرها أنّ لها تعلقًا بالدين من جهة خلق الحياة، في حين إنّه ليس في نصوص القرآن والسُّنَّة نصٌّ صريحٌ ينفي هذه الاحتمالية، والوصول إليها من جهة العلم الطبيعي قد يصل لدرجة القطع حين يتم رصد هذه الكائنات المجهرية أو الأحماض الأمينية، فليس هناك معنى للاستباق بنفي هذه الاحتمالية، إلا خوفًا من الأثر الفلسفي لمثل هذا الاكتشاف أن يزعم الملحدون أن بداية وجود الحياة على الأرض كان صدفة مثل الأحماض الأمينية التي ستوجد على المريخ، وهذا شقٌّ فلسفيٌّ لا يلزم من مجرد اكتشاف أحماض أمينية على سطح المريخ؛ لأنّه ـ ببساطة ـ يمكن الخروج من ذلك بافتراض أن مصدر هذه الخلايا أو الأحماض هو الأرض[1]، أو يمكن الخروج بأيّ ردٍّ آخر على هذا الاستدلال الإلحادي الفلسفي الذي لا علاقة له بالمكتَشَف العلمي المحتمل!

(١) وهذه أمثلة لأبحاثٍ ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ لا ترفض أو تتبنى الرأي القائل باحتمالية انتقال الخلايا الحية أو عناصرها من الأرض إلى غيرها:

- Reyes-Ruiz M, Chavez CE, Aceves H, et al. Dynamics of escaping Earth ejecta and their collision probabilities with different Solar System bodies. Icarus 2012; 220 (2): 777-786.

- Mileikowsky C, Francis A. Cucinotta FA, John W. Wilson JW, et al. Natural transfer of viable microbes in space. 1. From Mars to Earth and Earth to Mars. Icarus 2000; 145: 391-427

القصور الثالث في عدم تداخل الدائرتين يكمن في القضايا المشتركة التي يكون للدين فيها كلمة، ويكون للعلم الطبيعي كذلك فيها كلمات، مثل قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾[(1)]، فهنا قضايا ثابتةٌ بالحس، تعتبر في ميزان العلم الطبيعي من «الحقائق العلمية»، يتكلم النصُّ الدينيّ عنها، ويثير النظر إليها من مستوى آخر وزاويةٍ مختلفة، فلا تنظر إلى النار ولكن انظر إلى الشجرة، ولا تنظر إلى الشجرة، ولكن انظر إلى من أخرجها عندما رويتها، ولا تنظر إلى الماء الذي به تروي الزرع، وإنما انظر إلى من أنزله من السماء!

هذه القضايا التي يكون للنص الشرعي وللعلم الطبيعي فيها قول، ويمكن حمل كلّ قولٍ منها على مستوى تحليليٍّ أو زاوية نظرٍ مختلفة، هذه القضايا يدندن حولها كثيرٌ من الملحدين بزعم أنّ التفسير الديني كان مناسبًا لعقول البدائيين، فإذا ما وصل التفسير العلمي فلا مكان للتفسير الديني، وهذه الآيات المذكورة تبيّن أن التحصل على العلم الطبيعي لا يعني إلغاء النص الديني، فقد كان النص الديني يدعو لنظرةٍ مغايرةٍ في قضايا مكشوفة

(١) سورة الواقعة: الآيات بين الآية ٥٨ إلى الآية ٧٢.

المعالم بضرورة الحس، فلا أحد ينكر أن المنيّ يخرج من الرجل، ولكن القضية فيمن خلق هذا الرجل والمني وكيفية الخروج، ولا أحد ينكر دور الزارع، ولكن النص يوجّه إلى خالق الكيفية التي يخرج بها الزرع من الأرض، ولا أحد ينكر أن الإنسان هو الذي يوقد النار، ولكن النص يدعو للنظر إلى الشجرة التي لولاها لما كانت النار! وهكذا.. دعوةً لسعة الأفق وإعمال النظر في تفسيرٍ متعدد المستويات وعدم الاكتفاء بمستوى واحدٍ من مستويات التحليل!

مسألة وجود عدة مستوياتٍ للتحليل والنظر ليست غريبةً على طبيعة العلم الطبيعي وهو يعرف في فلسفته باسم تعددية التفسير Explanatory pluralism، ونحن إذ «نستعمل العديد من النظريات العلمية لفهم الكون، فإن تلك الفكرة الأساسية ـ التي غالبًا ما تعرف بالتعددية التفسيرية ـ تُشتق من المستويات المتعددة للترتيب في الكون، والأهداف المتشعبة للعنصر البشري من عملية التفسير، مما يؤدي إلى الحاجة إلى تعدد وتنوع النظريات العلمية»[١]، وهذه التعددية «تمنح صورةً للعلاقات بين العلوم، لتُبرِز فوائد كل من الاستفسارات المتباينة المطروحة معًا على مستوياتٍ تحليليةٍ مختلفةٍ في العلوم التجريبية»[٢]!

هذه النظرة الرأسية بتعدد المستويات التفسيرية تفيد أكثر من

---

(١) Dale R, Dietrich E, Chemero A. Explanatory Pluralism in Cognitive Science. Cognitive Science 2009; DOI: 10.1111/j.1551 -6709.2009.01042.x.

(٢) McCauley RN, Bechtel W. Explanatory Pluralism and The Heuristic Identity Theory. Theory Psychology 2001; 11(6): 736-760.

النظرة الأفقية التي ترصد دائرتين لكل منهما تخصصه، فبدلًا من معالجة نقاط التماس بين الدائرتين بزعم اختصاص إحدى الدائرتين بهذه النقاط دون الأخرى، بناءً على تحكم ومصادرةٍ لا تستند لدليلٍ يُقنع، بدلًا من ذلك يمكن النظر لتناول الدائرتين لهذه النقاط المُشكلة على أنّه تناولٌ على مستوياتٍ مختلفة من التحليل، وغالبًا لا يرفض أهل الدين ما يثبت بالعلم الطبيعي، ويجمعون التفسير العلمي إلى التفسير الديني دون إشكال، في حين يكون المعترض على هذه النظرة التعددية هو صاحب المذهب المادي، بناءً على تحكمٍ محضٍ وليس بين يديه دليلٌ يسعفه[1]!

القصور الأخير في تصور جاولد ودوبجانسكي للدائرتين المنفصلتين، يتضح حين يقع التعارض بين كلمة النص الشرعي وكلمة العلم الطبيعي في قضيةٍ ما على نفس المستوى من مستويات التحليل، فهنا لا يُجدي أن نفصل بينهما على المستوى الأفقي بزعم أنّ هذه القضية من اختصاص أحدهما دون الآخر، ولا أن ندّعي أنّ هناك عدة مستوياتٍ لتناول القضية محل البحث على المستوى الرأسي، وإنّما يُلجأ هنا للترجيح بالنظر إلى قوة الدليل المطروح، فيُنظر إلى الدليل المستمد من النص الشرعي هل

---

(١) وبهذه النظرة الرأسية تفهم أحاديث مثل «لا عدوى»، فالغرض نفي الاعتقاد بأن الاشياء تعدي بطبعها، ولذلك ورد في حديثٍ آخر رواه البخاري قوله: «فمن أعدى الأول؟!»، وورد في الصحيح «لا يورد ممرضٌ على مصح»، وورد في نفس الحديث في روايةٍ عند البخاري «وفر من المجذوم فرارك من الأسد»، فالغرض ليس نفي وجود العدوى، ولكن الغرض لفت النظر إلى تعلق القلب بالله.

هو قطعي الثبوت أم ظني الثبوت؟! وهل هو قطعي الدلالة على المفهوم منه أم لا؟! ويُنظر إلى الدليل العلمي[١]، هل هو حقيقةٌ علميةٌ ثابتةٌ بالحس، وهل ثبوتها هذا من عدة مصادر أم من مصدرٍ واحد؟! هل هو نظريةٌ علميةٌ تفسيريةٌ ظنية الدلالة على المقصود؟! هل هو نموذجٌ رياضيّ لا يُشترط في صحته موافقته للحقيقة؟! فإن قوبل قطعيٌّ بظنيٍّ فيُقدم القطعي، وإن قوبِل ظنيٌّ بظنيٍّ فإن كان من رأي النبي ﷺ مما لا علاقة له بالدين ولا توافرت النصوص على الأمر به ولم يرد في كتاب الله فالمرء بالخيار إن شاء أخذ به وإن شاء تركه، وإن ظهر له أن الأولى تركه فعل ولا حرج، وإن كان في كتاب الله أو مما لا يقوله ﷺ برأيه أو مما تكرر الأمر به والحض عليه فيُقدّم ما استقر عليه العمل والمعتقد من الدليل الشرعي؛ لأنّ العمل بظنية الدليل الشرعي مُلزِم لأتباعه، بينا العمل والأخذ بالظنّي من الدليل العلمي الطبيعي ليس ملزمًا، وإن قوبل قطعيٌّ بقطعيٍّ فذاك المُحال بعينه وذاك الذي لا يكون أبدًا،

---

(١) ومن أفضل التقسيمات لمراتب الأدلة في العلم الطبيعي هو التقسيم المشتهر في بيان درجات الطب المبني على الدليل Evidence-based medicine ولا أعلم تقسيمًا بهذا الوضوح والتطبيق في شيءٍ من سائر مباحث العلم الطبيعي، ودون الدخول في تفاصيل خلافية فإنه يتم تقسيم الأدلة في الطب إلى عدة مراتب أولها الخبرة الشخصية وآراء الخبراء Expert opinion، ثم التقرير بحالة أو بمجموعة حالات Case report or case series report، ثم الدراسات التعرضية بوجود مجموعة قياسية Cohort study, Cross-sectional study and Case-control study، ثم الدراسات العشوائية القياسية Randomized controlled trials، ثم الإرشادات الطبية Medical guidelines. وقد فصلت ذلك في الكتاب الذي شاركت في كتابته: First steps in medical research.

وإنما يقع توهمًا لأسباب سيأتي ذكرها[1]!!

وأشهر تمثيلٍ لما يحدث من تعارضٍ بين النص الشرعي والعلم الطبيعي في قضيةٍ ما على نفس المستوى من التحليل هو التمثيل بنظرية التطور، فمبنى نظرية التطور على أن نشأة الأنواع بما فيها الإنسان كانت بعمليةٍ تطوريةٍ نتيجة الصراع بين الكائنات على الموارد المحدودة نتيجة زيادة نسل الكائنات عما تحتمله موارد الطبيعة Superfecundity، وآلية هذا التطور تكون بالانتخاب الطبيعي Natural selection والطفرات الوراثية Genetic mutations تدريجيًّا أو في صورة قفزات، على مدى آلاف السنين في الماضي السحيق، دون تدخلٍ من أية قوى فوق الطبيعة[2]!

---

(١) والذي أرجوه وأسأل الله أن يكون قريبًا ألا يقتصر دور عموم المسلمين على الترجيح من موقفٍ سلبيٍّ، بل أرجو أن يكون لهم مشاركةٌ فعالةٌ في مضمار البحث العلمي، فضلًا عن تمسكٍ بأصول دينهم وعقيدتهم، فيخرجون بذلك من موقف التفرج المنتظر لما يجود به «الآخر» من الأبحاث والنظريات والنتائج، ثم يسألون: هل نثق بالقادم من هذا الآخر أم لا؟!

(٢) ولا شأن لنا بما يدّعيه أنصار التطور الموجه المزعوم، أن العملية التطورية حدثت بعنايةٍ إلهية، أو أنّ الإنسان وحده هو الذي خُلِق خلقًا مباشرًا، إذ إن قولهم هذا لا يوافق فلسفة العلم الطبيعي التي ينطلق منها الماديون ومن خلالها يُثبتون تطور الكائنات، ثم إذا بهؤلاء القائلين بالتطور الموجه ينقضون هذه الفلسفة ويثبتون تدخل العناية الإلهية، وعلى الجانب الآخر فقولهم لا يوافق قول نصوص الكتاب والسُّنَّة لأنّهم لو انطلقوا منها بدايةً لما أثبتوا التطور، فالتطور الموجه ليس له أصولٌ مطردة، وإنما هو نتفٌ من هنا ونتفٌ من هنالك بحسب الرأي وحسب، ولذلك فقولهم هذا لا يقبله التطوريون مثله مثل القول بالخلق المباشر عندهم، وفي نفس الوقت لا يقبله المتمسكون بنصوص الكتاب والسُّنَّة الذي لا يقبلون تأويلها بطريقة تلي عنق النص وتلغي معناه، وحتى على افتراضه فهو يناقض النصوص القائلة بالخلق المباشر =

قد ورد النص الشرعي يقول بوضوح عن آدم عليه السلام أنّه أبو البشر، ولو كانت نظرية التطور صحيحةً لكان هناك مئات «الأوادم» لا آدم واحد، وآدم هو أبو البشر سيقول له الخلائق في الآخرة: «**يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك**»[1]، وقال تعالى مخاطبًا إبليس حين رفض السجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش والقلم وعدن وآدم، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان»[2]!، وقال ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس: ٧١]: «واستعير عمل الأيدي الذي هو المتعارف في الصنع إلى إيجاد أصول الأجناس بدون سابق منشأٍ من توالد أو نحوه، فأسند ذلك إلى أيدي الله تعالى لظهور أن تلك الأصول لم تتولد عن سبب، كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾، فـ(من) في قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ﴾ ابتدائيةٌ لأن الأنعام التي لهم متولدةٌ من أصول، حتى تنتهي إلى أصولها الأصلية التي خلقها الله كما خلق آدم»!

= على نفس المستوى من التحليل، وهم يخرجون من ذلك بتأويل النصوص تأويلًا يلغي حقيقة النص ومعناه، ويكون وروده والعدم سواء!

(١) متفقٌ عليه.

(٢) قال الألباني رحمه الله في مختصر العلو (ح٥٣): إسناده جيد، وقال الذهبي في التلخيص (ح ٣٢٤٤): صحيح.

وقد تحدى الله تعالى بشيءٍ من خلقه الذي خلقه بقوله: «كن!» فكان، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣]، فانظر كيف تحدى بأنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، ولو كان الذباب يكون بالتطور من الكائنات الأدنى بالضغط التطوري عند الانعزال، لأمكن للبشر أن يصلوا لإيجاد الذباب باجتماعهم على هذا الغرض على مدار الأزمان، وتحدي الإلٰه للبشر مجتمعين لا يكون بما يدخل إمكانه في وسع البشر ولو مجتمعين! كما أن تحدي الإلٰه للبشر أن يأتوا بسورةٍ من مثل القرآن لا يقع في إمكانهم حتى لو اجتمعوا له على مر الأزمان يسلّم كل جيلٍ الجيلَ الذي يليه! ثم انظر إلى تقرير وحدانية الإلٰه بإثبات قدرة الخلق ونفي الآلهة المزعومة ببيان عجزها عن الخلق، فلو جاء أحدٌ من الملاحدة وقال أنا أرى أنّ الإلٰه هو قوانين الطبيعة كما قال التطوري إرنست هيكل مثلًا[١] وغيره، فكيف يتحداه القائل بالتطور الموجه أن الذي يدعو من دون الله لن يخلق ذبابًا؟!

وهكذا يتضح أنّ هذا مثالٌ لقضيةٍ فيها نصٌّ دينيّ يثبت الخلق المباشر وقولٌ موافقٌ لفلسفة العلم الطبيعي يثبت التطور،

(١) يرى إرنست هيكل أن الإله هو قوانين الطبيعة، وأنّه ليس له إرادةٌ حرة، ولا يقوم بأية أفعال مُعجزة أو خارقة للطبيعة، ولا يعرف الفرق بين الخير والشر.
http://users.clas.ufl.edu/bron/ern/H.pdf

كلا القولين يتناول نفس المستوى فلا يمكن أن يكون الخلق بالتطور وفي نفس الوقت مباشرًا، ولا يمكن أن يكون آدم عليه السلام خلقه الله بيديه ويكون في نفس الوقت نتيجة عمليةٍ تطورية، فوجب إذن النظر في قوة الأدلة، إن نظرنا للدليل الشرعي سنجده قطعي الثبوت بتواتر النص القرآني، وسنجده قطعي الدلالة على الخلق المباشر لا يحتمل أن يُصرف معناه من الخلق المباشر إلى معنى آخر[1]!!

بينما لو نظرنا في الجانب الآخر سنجده نظريةً علميةً تفسيرية، لا يمكن أن تثبت صحتها يقينًا، وإنما أفضل أحوالها ألا نقف على ما ينقضها، وهي لا تراعي الكثير من المشاهدات المرصودة كنقص السجل الأحفوري، وقائمةٌ على افتراض أن التشابه يعني الصلة الوراثية لا وحدة الخالق، دون دليلٍ على هذا التمييز إلا فلسفة، وهي نظريةٌ مطاطةٌ قابلة لكافة الاحتمالات والتغيرات، كما أنّها نظريةٌ تتعلق بالتاريخ وتعميم مشاهدات الحاضر على أحداث الماضي أمرٌ فلسفيٌّ لا دليل عليه[2]، كل ذلك يلزم منه أن التطور ـ إن سلمنا باعتباره نظريةً علمية ـ ليس إلا أمرًا مظنونًا، لم يثبت بيقين!

وهكذا يكون الخلق المباشر قطعي الثبوت والدلالة، وتكون

---

(١) وانظر لبيان عدم إمكان تأويل هذه النصوص لمعنى آخر الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية، دار العاصمة، صفحة ٢٦٨ فما بعدها.

(٢) انظر: مقال (نظرية..!) لتفصيل وتوثيق هذا النقد المجمل.

نظرية التطور ظنية[1]، وبالتالي يُقدّم النص الشرعي وتُطرح نظرية التطور، وهكذا فإنّ ما يعتمدون عليه «في الاستدلال على الارتقاء والنشوء أمورٌ ظنية لا يُعتمد عليها في الاعتقاد عند أتباع محمد ﷺ، ولا تعارض ظواهر نصوص شريعتهم فتضطرهم إلى تأويلها»[2].

وقد يكون النص الديني ظنيًّا ويقابله حقيقةٌ علميةٌ قطعية، عندئذٍ يقدّم القطعي من العلم الطبيعي على الظنيّ من النصوص الشرعية، مع العلم أنّه باستقراء ما وقفتُ عليه من الأمثلة فإنّ نفس الدليل الشرعي يحمل في ثناياه ما ينفي الدلالة الظنية عند تدقيق النظر، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ [نوح: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ٢٠]، فهي نصوصٌ تحمل دلالةً ظنيةً بأن الأرض مسطحةٌ وليست كروية الشكل، وقد فهم بعض أهل التفسير هذا المعنى من الآيتين، والثابت قطعًا من العلم الطبيعي بدلالة الحس بتصوير الأقمار الصناعية لشكل الأرض من الفضاء أن الأرض كروية، حينئذٍ يقدَّم القطعي على الظنيّ!

(١) حتى د. عمرو شريف وهو من القائلين بالتطور الموجه يقول: «ينبغي التأكيد على أنّ هذه الأدلة ـ أي أدلة نظرية التطور ـ ليست قطعية الدلالة على حدوث التطور، لكنّها مرجّحة يؤازر بعضها بعضًا، ويعتبر القول بالتطور أفضل التفسيرات لوجودها» [خرافة التطور: ١٨١]، وقوله: أن التطور أفضل التفسيرات إنما مبناه على الفلسفة المادية ليس إلا، وإلا فما الإشكال أن يكون التشريح المقارن مثلًا دليلًا على وحدة الخالق لا الأصل المشترك؟!!

(٢) حسين الجسر، الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية، دار الكتاب المصري، ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

ثمّ إننا إذا نظرنا إلى هذا النص الذي يصف الأرض بأنها بسطت وسطحت، فإن تمام التسطيح والبسط أن تكون كرية الشكل عظيمة الحجم فلا يقف المرء منها عند حد، وقد نقل الشيخ عطية سالم عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله قوله: «وكذلك أجمعوا على أنّ الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة، قال: ويدل عليه أنّ الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقتٍ وحدٍ بل على المشرق قبل المغرب» ثم قال الشيخ عطية: «فهذا نقلٌ من إمامٍ جليلٍ في علمي المعقول والمنقول، على أنّ الأرض على شكلِ الكرة، وقد ساق الأدلة الاضطرارية من حركة الأفلاك على ذلك، ومن جهة العقل أيضًا يُقال: إنّ أكمل الأجرام هو المستدير كما في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وعليه فلو قدِّر لسائرٍ على وجه الأرض، وافترضنا الأرض مسطحةً كسطح البيت أو القرطاس مثلًا، لكان لهذا السائر من نهاية ينتهي لها، وهي منتهى التسطيح أو يسقط في هاوية، وباعتبارها كرةً فإنّه يكمل دورته، ويكررها ولو سار طيلة عمره لما كان لمسيره منتهى؛ لأنّه يدور على سطحها من جميع جهاتها، والعلم عند الله تعالى»[1]، وما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصلح أن يكون دليلًا نقليًّا على كروية الأرض، فإنّ غاية البسط والتسطيح لا تكون إلا في الشكل الكروي وما يشبهه،

(١) الشيخ عطية سالم، ملحق بتفسير أضواء البيان (٩/ ٢١).

وهذه قرينة حاضرةٌ داخل النص نفسه ترجح كروية الأرض بدون الحاجة للنظر في غير الدليل الذي معنا؛ كالأدلة التي تتكلم عن تكوير الليل على النهار وما شابه!

أما المخالفة بين ظنّيٍّ وظنيٍّ، فإن كان الظنّي الشرعي من رأي النبي ﷺ مما لا علاقة له بالدين ولا توافرت النصوص على الأمر به ولم يرد في كتاب الله ووردت القرينة في النص تدل على أنّه من القول بالرأي[1]، نقول إن هذا الظني الشرعي على هذه الصفة إن خالف ظنيًّا طبيعيًّا، فالمرء بالخيار إن شاء أخذ به وإن شاء تركه، وإن ظهر له أن الأولى تركه فعل ولا حرج، وإن أخذ به فكان في الأخذ به مفسدة أُنكر عليه، ومثاله أنّ رسول الله ﷺ نفسه عاد عن رأيه لما رأى من نتائج التجربة التي خالفت هذا الرأي، وذلك في حديث النهي عن الغيلة؛ أي: جماع الزوجة المرضعة، فقال ﷺ: «**لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر ذلك أولادهم شيئًا**» (رواه مسلم)، ولما عزل بعض الصحابة مخافة ما سمعوه من مفاسد الغيلة، نهاهم ﷺ عن العزل (رواه مسلم).

ومثاله كذلك حديث النهي عن تأبير النخل، فقد مرّ رسول الله ﷺ على قوم يلقحون النخل، فسأل عما يفعلون فأجيب، فقال: «**ما أظنٌ ذلك يغني شيئًا!**» وفي رواية: «**لعلكم لو**

---

(١) ولا يقول: أحد إن رسول الله ﷺ لم يكن بشرًا، أو إن كل كلامه وحركاته في بيته وفي أصحابه كانت وحيًا.

لم تفعلوا لكان خيرًا» وفي رواية: «**لو لم تفعلوا لصلُح**»، فأخذوا برأيه فخرج التمر شيصًا، فقال ﷺ: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنًّا، فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله** ﷻ» (رواه مسلم)! ثمّ إن ترك التلقيح وخروج التمر كله على هيئةٍ غير مُرضية مرةً واحدةً بعد ترك التلقيح لدليل على عدم صحة الرأي بترك التلقيح والإنكار على من تركه لأنه يعود بالمفسدة على التارك وجماعته!

وإن كان الظني الشرعي في كتاب الله أو مما لا يقوله ﷺ برأيه أو مما تكرر الأمر به والحض عليه فيُعتقد بهذا الظني الشرعي، ويُعمل به، ولا يُنكر على من أخذ به؛ لأنّ العمل بظنية الدليل الشرعي مُلزِم لأتباعه، بينا العمل والأخذ بالظنّي من الدليل العلمي الطبيعي ليس ملزمًا، والاستقراء دل على أنّ ما كانت هذا صفته من الأمور الشرعية الظنية لم يقع منه ضرر!

ومثال ذلك الرجل الذي أتى النبي ﷺ يقول إن بطن أخيه فيها استطلاق فأمره النبي ﷺ بشرب العسل، فعاد الرجل يقول لم يبرأ، فدعاه النبي ﷺ للاستمرار على العسل، ومرة ثانية ومرةً ثالثة، حتى جاء الرجل في الرابعة فقال له النبي ﷺ: «**صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلًا**»، فسقاه في الرابعة فبرأ (متفق عليه)!

وفي هذا الحديث نجد أن أصل أن العسل فيه شفاء للناس

واردٌ في الكتاب والسُّنَّة، والظنيّ في المسألة هو فيما يعرض للعلاقة بين الداء والدواء، كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولكن هاهنا أمرٌ ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها، هي في نفسها نافعةٌ شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانعٍ قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدويةِ والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول»[1]!

فالمقصود أن حديث «اسقه عسلًا» فيه أصل أن العسل شفاء، مع ظنية نفع هذا الدواء في كل أحد، فلما سأل الرجل رسول الله ﷺ الدواء لأخيه أجابه بسقايته العسل، وهذا يغلّب الظن أن العسل سينفع في شفاء هذا الرجل المشتكي ببطنه، فلما استعجل الرجل شفاء أخيه وعاد للنبي ﷺ، أمره النبي أن يستمر في الاستشفاء بالعسل بقوله: «**صدق الله وكذبت بطن أخيك**»، فكان بذلك أصل شفاء العسل المظنون في حقّ آحاد الناس قطعيًّا في حق أخيه من جهة خبر النبي ﷺ أن الشفاء متحقق في حق أخيه، ولكن الرجل كان يستعجل قبل أن يؤدي الدواء أثره، ولا

(١) ابن القيم، الداء والدواء، دار عالم الفوائد، صفحة ٨.

شك أن الأدوية لا تعطي نتيجتها بمجرد أخذها، فلما سقاه في المرة الرابعة تحقق الشفاء!

والشاهد أن هذا الرجل لم يكن مخطئًا حين توجه للنبي ﷺ للسؤال في استطلاق بطن أخيه، ولا أخطأ حين عمل بما غلب على ظنه أنّه سيشفيه وكان دليله النص الشرعي والنصيحة النبوية، ولا يجوز لأحد أن ينكر عليه صبره على الاستشفاء بالعسل مرةً بعد مرةـ حتى وإن لم تتضح له النتيجة ثلاث مرات، وثمرة ذلك في الواقع أن الذين يأخذون بنصوصٍ شرعيةٍ ترشد إلى بعض الأدوية، لهم أن يأخذوا بها بشرط أن تكون هذه النصوص ثابتةً صحيحة، لهم أن يأخذوا ويعملوا بهذه النصوص الظنية الدلالة على وقوع الشفاء في حقهم تحديدًا، ولهم تكرار الاستشفاء بهذه الأدوية، وليس لهم أن يجزموا ـ إن لم تفلح معهم هذه الأدوية ـ أنها ليس دواء بالمطلق اعتمادًا على الدلالة الظنية لتجربتهم، والمعلوم أن كافة الأدوية من المضادات الحيوية وغيرها في صورها الحديثة، يعرض لها ما يمنع وقوع أثرها دون أن يعني ذلك أن البنسلين لا يؤثر في التهابات الحلق مثلًا!

فهذا الحديث صورةٌ من صورة التعارض بين الظني في الدين والعلم الطبيعي من جهة المريض السائل نفسه، وليس المقصود طرحها على أنها صورةٌ من صور المسكوت عنه في العلم الطبيعي، بمعنى أنك لو كنت الشخص (س) وعلمت أن العسل شفاء لما بك استدلالًا بنص ديني، فإن هذا يووث لديك ظنًّا غالبًا أن هذا سيشفيك، ثم أنت جربت العسل مرة واثنتين

وثلاثة فلم يحدث أثر، فهذا يورث لديك ظنًّا غالبًا أن هذا لن يشفيك، هنا تعارض الظني من الدين مع الظني من العلم الطبيعي في حقك، فلك أن تجرب العسل مئات المرات، وليس لأحد أن ينكر عليك ذلك، وليس لك أن تستدل بتجربتك على نفي شفاء العسل، ربما كان العيب في طريقة تعاطيك إياه، ولو يسر الله لك من يخبرك بالطريقة المثلى كما تيسر لذلك الذي استطلق بطنه فسوف تصل إلى الشفاء!

أما أن يعارض قطعيّ من الشرع قطعيًّا من العلم الطبيعي، كأن يعارض نصٌّ قطعي الثبوت والدلالة حقيقةً علميةً مبناها الحس، فهذا لا يقع أبدًا، ودعوى وقوع التعارض بين القطعي من الشرع والعلم الطبيعي لا تكون إلا وهمًا، وهذا الوهم له عدة أسباب، منها:

- استعمال اللفظ في الشرع بمعنى غير المعنى المستعمل في العلم الطبيعي: مثل قضية أقل مدة الحمل، فتعريف أقل مدة الحمل في الشرع غير تعريفها في الطب، كما سبق بيانه في أول المقال.

- سوء فهم النص والغفلة عن معناه: كما يأتي أحدهم ليزعم أنّ علم الأجنة يقرر وجود اللحم قبل وجود مراكز التعظم أو العظم باعتبار ما سيكون، بينما الآيات القرآنية تقول إن العظم سابقٌ على اللحم، ويعد ذلك من اليقيني الذي يعارض يقينيًّا، ننظر في دعواه من جهة العلم الطبيعي فنجدها قطعية، ثم ننظر

فيها من جهة الشرع فنجد أنّ الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]، وورد أنه ﷺ قال: «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكًا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها**» (رواه مسلم)، وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ اللينة ﴿عِظَٰمًا﴾ صلبة، قد تخللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها».اهـ، فنجد أن اللحم (المضغة) سابقٌ على وجود العظم، وأن تحول المضغة لعظامٍ يكون بتخلل العظام لها وليس بتحول كل أجزائها لعظام! ويكونُ النص الشرعي قطعي الثبوت وقطعي الدلالة على معنى غير المعنى المذكور في دعوى التعارض!

● سوء فهم العلم الطبيعي والغفلة عن نتائجه: كما يأتي أحد المتشككين ليشكك في وضع الدين للإنسان في مكانةٍ خاصةٍ في هذا الكون الرحيب الوسيع، والعلم الطبيعي يكتشف كل يومٍ المزيد من المجرات والنجوم والكواكب.. هنا ينصب الفخ وقد يسقط فيه من لا ينتبه، فهو أوهم وجود تعارض بين الدين والعلم الطبيعي، بينما لو تريثنا ونظرنا في المسألة لوجدنا شقين، الشق الأول هو أن الكون عظيمٌ رحيبٌ وسيع، فتلك يتفق عليها العلم الطبيعي مع النصوص الشرعية والتي فيها مثلًا: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧]، وفيها أيضًا: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٢٧]، فالدين والعلم يتفقان على الشق

الأول، والشق الثاني أن الإنسان له مكانةٌ خاصةٌ في الكون، فهذه يتفق عليه الدين مع العلم الطبيعي، إذ إن كافة مساعي البحث عن حياةٍ خارج الأرض قد باءت بالفشل حتى الآن، ومعضلة فيرمي Fermi Paradox خير مثالٍ على هذه المكانة الخاصة للإنسان في الكون، إذ إن هذه المعضلة تقرر التناقض بين الاحتمالية العالية لوجود عدة صورٍ من الحياة في هذا الكون الشاسع الاتساع، والتي يقابلها على أرض الواقع غياب أي رصدٍ لأية صورةٍ من صور الحياة خارج الأرض! فالعلم الطبيعي والدين يتفقان على الشق الثاني كذلك!

• جعل كلام أفراد علماء المسلمين حجةً، ونحن لا ندعي العصمة لأحد من العلماء، بل لا ندعي العصمة لأحد من أصحاب النبي ﷺ، وكلٌّ يؤخذ منه ويرد ـ بمقتضى العلم ـ إلا رسول الله ﷺ.

• الاستدلال بالفلسفة المبنية على مشاهدات العلم الطبيعي واعتبار المشاهدات العلمية والفلسفة المستنتجة من هذه المشاهدات على نفس الدرجة من القوة: ومثل ذلك كثيرٌ في فلسفة فيزياء الكم، وأكثر فلسفتها المردودة قائمةٌ على أن إدراك الراصد مرتبط بالواقع نفسه، واعتبار أنّ الاحتمالية التي يلجأ إليها الراصد لوصف المرصود حقيقةٌ واقعة، وأن هذه الاحتمالية موجودةٌ في الواقع، فالمرصودات تحت الذرية قد تكون موجةً وجسيمًا في نفس الآن، وقد تتواجد في مكانين في وقتٍ واحد، هذه الاحتمالية تُحمل على الحقيقة الواقعة وليست مجرد احتمالية

منشأها ضعف أدوات الراصد وقصور الفكر، يقول الفيزيائي النوبلي الملحد ستيفين واينبرغ: «وهناك فيزيائيون آخرون وأنا منهم، يفضلون النظر إلى ميكانيك الكم بطريقةٍ واقعيةٍ أخرى ترى أن تابع الموجة لا يصف الذرات والجسيمات فحسب، بل والمختبرات والرصاد، وأن هذا التابع بقوانين مستقلةٍ ماديًّا عن وجود الراصد أو عدم وجوده»[1]!

ومثل ذلك ما رآه هايزنبرغ أنك كلما تحريت الدقة في قياس صفةٍ معينةٍ في مجال فيزياء الكم، قلَّت الدقة في وصف صفةٍ أخرى مصاحبة للصفة الأولى، فعندما تصف بدقة موضع Position جسيمٍ ما، فإنّ الظروف التي هيأتها لتحقيق هذا الوصف لا تمكنكَ من وصف زخم الحركة Momentum لهذا الجسيم، بمعنى آخر أنّك لا تستطيع أن تعرف كلّ شيءٍ حين ملاحظة نظام في ميكانيكا الكم، هذا هو الشقّ المشهود المعروف من ملاحظة هايزنبرغ لميكانيكا الكم، الشق الفلسفي الذي بناه هايزنبرغ على هذا الأمر هو ما يعرف باسم «مبدأ الريبة» Uncertainty Principle وهو أن الطبيعة نفسها لا تسمح بتخطي مستوى معينٍ من الدقة في الوصف والرصد، بدلًا من أن يرد الأمر إلى ضعف تكنولوجيا الرصد أو يعلقه بالمستقبل الذي ربما تمكّن فيه الإنسان من دقة الوصف، فهذا الشق الفلسفي ليس عليه دليلٌ أصلًا، وهو يشبه المدرسة الذرية في الفلسفة اليونانية القديمة وطريقة استدلالها على

---

(١) ستيفين واينبرغ، أحلام الفيزيائيين بالعثور على نظرية نهائية جامعة شاملة، ترجمة أدهم السمان، مكتبة دار طلاس، صفحة ١٩٨.

نفي السببية، والملحد الذي يستدل بمبدأ الريبة على نفي السببية مثلًا كما يفعل بعض الملحدين وهم لا يفهمون ما المقصود بمبدأ الريبة أصلًا!

وأخيرًا فإنّ هذه القواعد في النظر والترجيح تحتاج لنفسٍ هادئةٍ متماسكة، لا تفزع من أدنى احتمال أن يكون هناك شبهةٌ ولو مستقبلًا، نفسٍ تصبر حتى تسأل وتتبين، نفسٍ تعقل الفرق بين مراتب الأدلة وتنصاع لحكم العقل السليم، نفسًا لا تغتر بالمظاهر ولا تنخدع باللسان المعوج والمصطلحات الرنانة!

جدول (٣): ملخص لما تم ذكره في هذا المقال من قواعد التعامل مع الأحكام من خلال النصوص الشرعية ومكتشفات العلم الطبيعي.

حكم النص الشرعي في القضية	حكم العلم الطبيعي في القضية	الاستجابة
ثابت	مسكوت عنه	الأخذ بالنص الشرعي. مثال: - أقل مدة الحمل لتنتج مولودًا لا يحتاج للعناية الطبية الخاصة. - دور سبق ماء الرجل والمرأة في تحديد نوع الجنين. - ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾
مسكوت عنه	ثابت	الأخذ بالعلم الطبيعي. مثال: إمكانية العثور على خلايا أو أحماض أمينية أو مثل ذلك بالمريخ.
ثابت وموافق للعلم الطبيعي	ثابت وموافق للنص الشرعي	الأخذ بكليهما والاستئناس بالموافقة. مثال: مراحل تخلق الجنين البشري.

ثابت في مستوى تحليلي غير المستوى الذي يتناوله العلم الطبيعي	ثابت في مستوى تحليلي غير المستوى الذي يتناوله النص الشرعي	الأخذ بكليهما وعدم زعم التعارض. مثال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ «لا عدوى.. وفر من المجذوم فرارك من الأسد»
ثابت وقطعي ويتناول نفس المستوى التحليلي للعلم الطبيعي «مع مخالفته للعلم الطبيعي»	ثابت وظني ويتناول نفس المستوى التحليلي للنص الشرعي «مع مخالفته للنص الشرعي»	يقدم النص الشرعي القطعي مثال: الخلق المباشر مقابل نظرية التطور.
ثابت وظني ويتناول نفس المستوى التحليلي للعلم الطبيعي «مع مخالفته للعلم الطبيعي»	ثابت وقطعي ويتناول نفس المستوى التحليلي للنص الشرعي «مع مخالفته للنص الشرعي»	يقدم العلم الطبيعي القطعي، والاستقراء يدل على وجود قرائن أو أدلة في الدليل الشرعي نفسه تنفي الدلالة الظنية غير الصحيحة. مثال:

		الدلالة الظنية لوصف الأرض بالتسطيح والبسط والمد في بعض نصوص الشرع على أن الأرض مسطحة مقابل كروية الأرض الثابتة. يقدم القول بكروية الأرض، ونجد في الوصف بالتسطيح والمد نفسه ما يدل على كروية الأرض إذ لا يكون تمام المد إلا في شكلٍ كروي عظيم الحجم.
ثابت وظني ويتناول نفس المستوى التحليلي للعلم الطبيعي، وهو من رأيِ النبي ﷺ - مع وجود القرينة على أن هذا مما قيل بالرأي - مما لا علاقة له بالدين ولا توافرت النصوص على الأمر به ولم يرد في كتاب الله. «مع مخالفته للعلم الطبيعي»	ثابت وظني ويتناول نفس المستوى التحليلي للنص الشرعي «مع مخالفته للنص الشرعي»	المرء بالخيار، يأخذ بأيهما مما يرى فيها المصلحة، ويجوز الإنكار عليه إن كان فيما يأخذ به ضررٌ لنفسه والناس. مثال: حديث تأبير النخل حديث الرجوع عن النهي عن الغيلة.

ثابت وظني ويتناول نفس المستوى التحليلي للعلم الطبيعي وهو مما ورد في كتاب الله أو مما لا يقوله ﷺ برأيه أو مما تكرر التصريح به أو الحض عليه. «مع مخالفته للعلم الطبيعي»	ثابت وظني ويتناول نفس المستوى التحليلي للنص الشرعي «مع مخالفته للنص الشرعي»	يؤخذ بالنص الشرعي، ويُعتقد في صحته، ولا ينكر على العامل به، ولا يجزم بخطأ ظني الشرع الذي هذا صفته بناءً على ظني العلم الطبيعي. مثال: حديث اسقه عسلًا!
ثابت وقطعي ويتناول نفس المستوى التحليلي للعلم الطبيعي «مع مخالفته للعلم الطبيعي»	ثابت وقطعي ويتناول نفس المستوى التحليلي للنص الشرعي «مع مخالفته للنص الشرعي»	لا يكون ولا يقع مثال للتعارض: لا يوجد وقد يقع توهمًا لعدة أسباب منها: • استعمال اللفظ في الشرع بمعنى غير المعنى المستعمل في العلم الطبيعي: مثل قضية أقل مدة الحمل. • سوء فهم النص والغفلة عن معناه: مثل أسبقية اللحم على العظام في الأجنة. • سوء فهم العلم الطبيعي والغفلة عن نتائجه: مثل ادعاء أن العلم الطبيعي لا يثبت للإنسان مكانةً خاصةً في الكون. • جعل كلام أفراد علماء المسلمين حجةً. • الاستدلال بالفلسفة المبنية على مشاهدات العلم الطبيعي واعتبار المشاهدات العلمية والفلسفة المستنتجة على نفس الدرجة من القوة: مثل الفلسفة المبنية على فيزياء الكم.

علمٌ بلا عمل..!

وما قيمة العلم إن لم يوافقه عمل؟! وقد قالوا: «هتفَ العلمُ بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»، وما قيمة العقيدة إن لم تُترجم إلا سلوك، وقد يوجد ذلك في الناس من باب الكسل، بيدَ أنّي لا أدري ما قيمة العقيدة إن قلتَ مختارًا بما يخالفها، وفعلتَ راضيًا ما يضادها، وتوجهت إرادتك إلى نقيض قصدها، هل تكون صادقًا في اعتقادك إن تركته في شأنك الذي يهمك كله، ثمّ عدتَ إليه في مواطن الجدل وحدها؟!

إنّ العجيب في شأن الملحد ـ وشأنه كله أعاجيب وغرائب ـ أنّه يدعي الإلحاد أمام المؤمنين، ثمّ ينسى إلحاده ومقتضياته ولوازمه عندما يتعلق الأمر بحياته وحياة أقاربه وأبنائه، إنّهم يزعمون أن المجتمع العربي يجبرهم على النفاق بأن يظهروا الإيمان وهم في داخلهم ملحدون، ربما.. لكني أعجب من شأنهم عندما يعملون ويتكلمون ويختارون بعيدًا عما يقتضيه الإلحاد، أعجب عندما يقولون ويفعلون بما يقتضيه الإيمان ثم يزعمون أنّهم ملحدون! يفعلون ذلك حتى لو كانوا في بلادٍ غير

عربيةٍ لا تبالي أكانوا ملحدين أم عبدوا البقر! فهل هذا نفاقٌ أم عدم اقتناعٍ بالإلحاد أصلًا؟!

سألني سائلٌ ذات يومٍ عن سبب عبادتنا لإلهنا سبحانه، فقلتُ لأنّه خلقنا ومنّ علينا بما نحن فيه من النعم، قال: سلّمتُ بأنّه خلقنا، فلماذا نعبده؟! فأردتُ أن أليّن قلبه بتمثيل الأمر ببر الوالدين، فقلتُ: نعبده محبةً وشكرًا.. ألا ترى أن من حق الأم على ولدها أن يبرّها ويطيعها وقد ولدته وربّته وصبرت عليه حتى بلغ أشده واستوى؟! فصدمني بقوله: لا ليس من حقها وإنما فعلت ذلك لأنه واجبها!! عجبتُ لجوابه، ولكني سألته ـ وطلبت منه الصدق ـ: هل تبرّ أنت في حياتك العملية بعيدًا عن هذا الحوار أمك؟! فأجاب: نعم أنا من أكثر الناس برًّا بأمي! فسألته: فهل ترجو في داخلك أن يعاملك ابنك كما تعامل أمك؟! فقال: نعم! فعاودتُ سؤاله: ولم تبرّ أمك؟ قال: لأنها أمي! قلت: وهي لم تؤدِ إلا واجبها!! فلماذا تبرها؟ هل هو حقها؟!

في سنة ٢٠٠٨م قام مركز بيو للأبحاث Pew Research Center بعمل مسحٍ للانتماءات الدينية في الولايات المتحدة الأمريكية، وُجِدَ أنّ من أقل نسب استبقاء مذهب الطفولة Retention rate وجدت بين الملحدين واللاأدريين، أكثر من نصف هؤلاء الأطفال (٥٤٪) لا يبقون على ما نشأوا عليه من الإلحاد واللاأدرية[١]، بالتأكيد عندما يكبر هؤلاء الأطفال يظهر لهم ما يجعلهم يتركون

---

(١) The Pew Forum on religious and public life. U.S. Religious Landscape Survey, Religious Affiliation: Diverse and Dynamic, February 2008. p. 30.
= http://religions.pewforum.org/pdf/report-religious-landscape-study-full.pdf

الإلحاد واللاأدرية إلى الدين، لكن لا شكّ أن ضعف التربية وغرس معتقدات الملحدين في قلب هؤلاء الأطفال تلعب دورًا رئيسًا في سهولة تحولهم إلى الأديان بهذه النسبة العالية!! وكأنك تتمثل فيهم الحالة النفسية لهذا اليهودي الذي كان ابنه على فراش المرض وأتاه النبي ﷺ يعوده ويدعوه للإسلام، فقال اليهودي لابنه «أطع أبا القاسم!!» وظل هو على يهوديته[1]، يمكنك أن تعاند وتخاطر وتتكبر، لكنّك لن تُلقي بابنك بتلك السهولة في رهانك الخاسر الذي آخره العدم أو النار!!

يقولون إنّ لغتك الأم هي التي تجري بها معاملاتك المالية وإن تحدثت عشر لغات!! يمكنك أن تنظّر ما شئت عن عيوب التصميم في الخلق، وتستنتج من ذلك ما شئت من نفي الخلق، وهكذا طالما فقدتَ ما يمنعك أن تصنع ما شئت، حتى تأتي لتتعامل مع ذلك التصميم في غرفة العمليات، عندها تحترم هذا التصميم وتدرك أهميته وتبحث عن مفرداته.. يدرك الجرّاحون أن الجراحة المثلى هي التي تحدث أقل تغييرٍ ممكن، ولذلك كانت الجراحة هي الحل الأخير عندما يفشل العلاج الدوائي، عندما تستأصل جزءًا من الأمعاء فليكن أقل ما يمكن مما يفي بغرض الاستئصال، عندما تفتح تجويفًا فأعده كما كان ما استطعت، كن ذلك الزائر الخفيف الذي لا يترك أثرًا!!

حدثني أحد أساتذة جراحة العظام أن مريضًا أتاه، كان هذا المريض قد أُصيبَ بكسرٍ في طرفه السفلي، وذهب لأحد أطباء العظام

(١) رواه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الجنائز من صحيحه.

فقام بتجبير ساقه على وضع لم يحافظ فيه على إحدى الزوايا الموجودة في رجل المريض كما تظهرها الآشعة، بعد أن أزال المريض الجبيرة سأل الطبيب عن هذا التغير الواضح في شكل ساقه والتي صارت تبدو مستقيمة، فأجابه الطبيب الجراح مازحًا «إيه رأيك؟! مش كده أحسن؟!». . مرّت الشهور وأصبح الرجل يشعر بألم لا يحتمل في مكان الالتئام! لا يطيق أن يمشي وكأن وزن جسده كله مرتكز على هذه النقطة بالذات!! يحدثني أستاذ العظام هذا أن المريض أتاه ـ بعد رحلة عذاب ـ يطلب منه أن يكسر ساقه ويعيدها كما كانت!!

تحدث ما شئت عن عدم مناسبة التشريح الإنساني لوظيفته، وقل ما شئت في العيوب التي تظهر أمامك، لكنّك عندما تدخل غرفة العمليات سوف تحترم العصب البصري والشبكية، ستحترم هذه الزوايا في العظام، ستحترم كل شيءٍ حتى ترتيب الأمعاء في التجويف البريتوني، سوف تحترم كل تفصيلة في هذا التشريح الإنساني حتى ولو لم تعلم السبب، معتقدًا أن العودة للتشريح الأول أقرب للحفاظ على وظيفته، كأنّها صورة من صور «التفويض العقدي» تجري في غرفة العمليات!!

يقول فولتير: «أولئك الذين يقنعونك باعتقاد السخافات، يستطيعون إقناعك بارتكاب الأعمال الوحشية»!! إنّك مهما تحدثت عن سخافات التصميم غير الذكي، فلن تجرؤ على نقل ذلك إلى غرفة العمليات؛ لأنّك بداخلك تعرف أنّ هذه السخافات لا ينبني عليها عمل، بداخلك يقينٌ أن هذا التصميم متقنٌ محكمٌ لا عيب فيه، بداخلك تشعر بالنعمة التي تجري في أجزاء جسدك، في غرفة العمليات ستتحدث لغتك الأم. . لغة الإيمان!

ثانيًا
خواء العدم

واضرب لهم مثلًا رجلين!

«ما قادك شيءٌ مثل الوهم»[١]

ابن عطاء السكندري

في روايته «حياة باي» Life of Pi يقص علينا «يان مارتيل» من نبأ حديقة الحيوان التي كُتب على أحد جدرانها باللون الأحمر «هل تعلم ما هو الحيوان الأخطر في الحديقة؟!»، وبجوار هذا السؤال سهمٌ صغير يشير ناحية ستارٍ من القماش.. كثيرٌ من زوّار الحديقة يتملكهم الفضول لمعرفة المكتوب أو الموجود خلف الستار، وما أن يزيحه أحدهم حتى يجد مرآةً تنعكس عليها صورة وجهه!! وجه الحيوان الأخطر في الحديقة!!

وها أنا أخاطب بقلمي هذه المرآة، وأستنطق ذلك الوجهَ ليحكي تارةً ويُعرض تارات! أين يقع هذا الإنسان في هذا العالم؟ ما هي العبارة التي تصفه حق الوصف؟ وأي سهمٍ ذاك الذي يشير

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، شرح: ابن عبّاد النفزي الرندي، إعداد ودراسة: محمد عبد المقصود هيكل، إشراف ومراجعة: الدكتور عبد الصبور شاهين، صفحة ٥٦.

إليه؟! أهو المُكرّم الذي سُخرت له دوابّ البر والبحر، أم تُراه ليس إلا كائنًا انحطَّ من قردٍ ليؤول إلى شيءٍ لم يُعلم؟! أهو جاهلٌ يحاول ملء فجوات جهله باختراع إلٰهٍ يعبده، أم هو مالكُ أمرِه لن يرجع حتى يكشف أسرار الكون كافة؟! أهو حلمٌ تعقبه ابتسامة أم كابوسٌ تنهيه صرخة؟!

وما أرجو من هذا الخطاب إلا طيّ السنوات بين اعتراف تولستوي أن: «الإيمان المغروس في أعماقي منذ صبوتي قد زالت آثاره من قلبي»[1] وهو في الخامسة عشرة من عمره، واعترافه الآخر بعد أن بلغ الخمسين: «عاودتني حيرتي في الوجود، فبتُّ أنشد راحتي، ولا أجد أمام عيني سوى شبح قائم يردد عليّ بصوته الراعب قائلًا: لماذا تعيش؟ وما هي الغاية من حياتك؟!»[2].. خمسٌ وثلاثون سنةً احتاجها مراهقٌ رضيَ بالكفر ليصير كهلًا استبدت به الحيرة! فكيف أنت!؟

والراعب ـ إن كان في اللغة راعب ـ أنك قلّما تجد نفسًا تُمحِّض صاحبها النصح، فتنتزعه من غُبنه بالفراغ أونَصَبِه للتكسُّب؛ ليسعى باحثًا في كبريات الأسئلة الوجودية والمعضلات الفلسفية.. ويغزو الرعب خليطٌ من غمٍّ ودهشةٍ حين تقف على الضلال والجرأة التي يُقبل بها أهل الإلحاد على التعامل مع هذه الأمور العظام! وبظلمٍ ظلموه وبذنبٍ اجترحوه صار أمرُهم إلى

---

(١) اعتراف تولستوي وفلسفته، ترجمة: **الأرشمندريت أنطونيوس بشير، عني بنشره وتصحيحه: الشيخ يوسف توما البستاني، مطبعة العرب، صفحة: ٩.**

(٢) السابق، صفحة: ٢٣.

خبط عشواء تفرّق بين كبرائهم وليس في القوم كبير! وبكبرٍ يتراكم وبباطلٍ يتلاطم صار أمرهم أعجب من رجلٍ يخطط لزواجه القادم وهو على فراش الموت؟! ولعل «الراعب» قد اخترعها مترجم اعترافات تولستوي في اللغة لتصف مصير هؤلاء.. هؤلاء وحسب!

وقد كنتُ قديمًا أحسب أنّه ليس في الآدميين من لا يشعر بعلو شأنه الإنساني، حتى ابتُليت بمعرفة ملحدين يتنافسون في ثلب المكارم وسلب المناقب، ويتبارون إلى ثلم المعارف ورصف المكاره، ليصير الإنسان في مذهبهم صعلوكًا، لا يعدو أن يكون رهين شهواته مَسُوقًا، وحبيس نزواته مملوكًا، فإذا ما أقررت بجهل الإنسان وحيفه، وحاجته لهداية الله لجبر ضعفه، انقلب حالهم، وتبدل شأنهم، ليجعلوا من الهر أسدًا، ومن الصعلوك سيدًا، يدبّر ويعلّم، ويرى ويحكُم، فإذا ما أقررتَ بعلمِ الإنسان ورفعة شأنه، وسألت عن مشكاة العلم ومنبع الرفعة، عاد الملك صعلوكًا، وهكذا.. وهكذا.. حتى يُسقط في أيديهم فيُنغِضُون رؤوسَهم ويقولون: «وأي ذلك كان.. فإنّا لا ندري!»، وقد صدقوا ـ والله ـ فمن منهم يدري؟!!

وأنا لا أدري.. لا أدري كيف أصرخ بهذا الصوت «الراعب» الذي سيأتيك ولو بعد ثلاثين سنة.. ما هي الغاية من حياتك؟! هل تدفع نصف مالك في بيتٍ آيلٍ للسقوط؟! لماذا تتحمل عناء تسعة أشهرٍ ومخاض أليم من أجل جنينٍ مات في شهره الأول؟! كيف تصعد جبلًا تعلمُ أنك ستموت سقوطًا من

فوقه؟! ما معنى البحث عن عروس لرجلٍ يُحتضر؟! أي صفقات التجارة ستبالي بها وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة؟! فإن كانت أمورٌ كالمسكن والزواج والحمل والمال والسفر صارت بلا معنى لمجرد أنك استحضرت زوالها، فما المعنى من كل ما تعمل في حياتك إن كنت ستموت اليوم؟! ترى هل كنت لتعمل شيئًا أصلًا لو علمتَ بموتك الآن؟! فما المعنى إن كنت ستموت غدًا؟! فما المعنى إن كنت ستموت بعد سنة!؟ فكيف بسنتين؟! ثلاث سنوات؟! عشر سنوات؟! ثلاثين سنة؟! ستين سنة؟! ما المعنى وما الغاية؟!

وجِماع هذا الأمر، ومفتاح هذا الحرف، وصفوة هذا القول، تتمثّل جليًّا في هذا المشهد «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلةٌ، فإن استطاع ألّا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها!**»[1]، ولم ذلك إن كانت الساعة ستقوم؟! وما عليك إن قامت الساعة ثم رضي الله عنك أن أطعت رسوله وغرستَ الفسيلة وسعيتَ في عمارة الأرض؟! لكنّ الإشكال فيما إن كنتَ من أولئك الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؟! لماذا يغرس أحدهم فسيلة قبيل مشهد النهاية والدنيا ـ عما قليلٍ ـ سيزول عنها وتزول عنه؟! بل لماذا يغرسها إن كان سيزول عنها بعد ساعة أو بعد سنة أو بعد سنين؟! ما المعنى وما الغاية؟!!

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، والبخاري في الأدب المفرد، وعبد بن حميد في مسنده، والبزار في مسنده، وصححه الألباني في الأدب المفرد (٤٧٩)، وفي السلسلة الصحيحة (٩)،وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في «مسند الإمام أحمد» (٢٠/ ٢٥١).

واضرب لهم مثلًا رجلين، أحدهما يتفكر قائمًا وقاعدًا وعلى جنب، ويتأمل في أحداث يومه وأخبار أمسه، بدءًا من العادات المكرورة وصولًا إلى الفوضى المنظورة، حتى يقف بفكره على خيط الحكمة في حياته، ويرى عقد النظام خفيًّا في ثنايا أوقاته، فينزّه وجود ذاته أن يكون عبثًا، ورجلًا لا يبالي ولا يدري، إلا أنّه يأكل ويشرب، يخوض ويلعب، يعمل ويتمتع، يسعى للغنى، ويحلم بالرفاه، فإن خطرت له سؤالات «لماذا؟» و«ثم ماذا؟»، أعرضَ ونأى بجانبه، ولا يبالي عاش ضالًّا أو مات عبثًا، فكل الأحوال عنده سواء، فلو كان لحياته معنى؛ للزمه أن يبحث عن مصدر هذا المعنى، والرجل وقته لا يسمح بهذه «اللزوميات»!!

واضرب لهم مثلَ المؤمن والملحد في عمارة الدنيا كمثل رجلين، أحدهما يمتهن عملًا سيظل فيه طوال عمرِه، فيسعى لتطويره، ويَجِدُّ في تحسين أدائه، ويوطد علاقاته مع زملائه، ويتصبر على عنت رؤسائه، ذلك أنّها مهنة الحياة، ورجلٍ يمتهن مهنةً سيتركها بعد يومين، ومع ذلك يزعم أنّه مستمتعٌ بعمله، مقبلٌ عليه بكليته، راغبٌ في تطويره بأقصى طاقته، صابرٌ على إهانات رؤسائه، محتسبٌ فيما يلقاه من إساءات زملائه، رغم أنّه عملٌ عارض، ونشاطٌ زائل، لن يلبث إلا يومين ثمّ يزول ويذهب!! فهل يستويان في الحكمة مثلًا؟!

صندوق رسائله!

رسائل غير مرسلة!

* طال اضطرابي، ولم أزل حائرًا، كطفلٍ يفري الطرقات باحثًا عن أمه، يحسب أنها تاهت، ولا يدري أنه هو الذي تاه عنها، «يا عم!! يا عم!! هل رأيتَ أمي؟؟»، «كيف هي يا بني؟!»، «إنها.. إنها رقيقة القلب، جميلة اللطف، فياضةٌ بالعطف، تعرف ما يسعدني، وترى في عينيّ ما أحزنني، أبتسم فتضحك، وتبتسم فأعلم أنها ستلبي مطلبي، فهل رأيتها؟!!».

أشتاق إلى ساعة اللقيا، كي أطمئنَ وأسكن، وألين فتلين مدامعي، لقد سأمت حالي، وضاقت عليّ أضلعي، ويعجَب حاسدي، مالي كئيبًا في المسرات، حزينًا بين الشهوات، غريبًا في بيتي، منصرفًا إلى حيث لا أدري... يا سيدي!! هل رأيتَ قلبي؟!

«إنّه... إنّه ذلك الخلّ الوفي، رقيق الطبع، مرهف الحس،

قريب الدمع، يحب الكلمة الطيبة، والصديق الصالح، تُحزنه الإساءة، ولا يغرّه زخرف الدنيا، كنتُ به رجلًا سمَت به الإنسانية، من بعد أن سما إليها، وصرتُ من بعده روحًا في تجاليد إنسان، لا أكاد أعرفها، أفتقد ذلك الصاحب، أفتقد الدمع عند التذكرة، والصبر مع المصيبة، والشكر بعد النعمة، أفتقد عيادة المريض، وضيافة الغريب، والعطف على اليتيم، والأخذ بيد السائل، ضاعت منّي روحٌ تحن إلى الدعاء، واستغفار الأسحار، وقيام الليل!».

* أين أنتِ أيتها الصديقة الوفية؟! هل يقهرك جمود العين؟! يا راية النبل!! هل تحسين لوعة الفقد؟! كم مرةٍ جريتِ على خدّي مواساةً لقلبي، كأنما تبغين الوصول إليه!! أتذكرين إذ كنتِ تطلِّين لامعةً من عيني، وعبثًا أحاول إخفاءك كلؤلؤةٍ نفيسة، فتأبى حرارة نفسك إلا الانطلاق، فآخذك بيدي، أتحسس رقتك، وأعجب من أثرك، أشتاق إليك يا سيدتي!! أشتاق لحالي بعد اللقاء!!

* أيا ساكنةَ أعماقي! حدَّثوني عن مسافرٍ يبشر أهله بقرب الوصول، ولا يدري أنّه بعد قليلٍ سيلقى حتفه، وعن طفلٍ ما زال ينتظر عودةَ والدِه المتوفى، وحبيبٍ كلما تذكّر لقاء حِبه، اغتصّ بذكرى الفراق، ووالدةٍ تقبِّل جبين وحيدها المسجّى في كفنه. . . لا تؤلمني تلك الأحداث، ولا يُبكيني فقد الأحباب لأرواح الأحباب، وكيف يكونُ وأنا رجلٌ يبحث عن روحِه في الأعماق!؟ إيهٍ يا ساكنةَ الأعماق! يا مأساة المآسي! أما زلتِ هناك؟!

* يا سابحًا إلى شاطئ الأمان!! من أين لك هذه الابتسامة؟! أتوق إلى لهفة الفاقد، وحنين المهاجر، وفرحة الواجد، ولا أدري ما يمنعني؟! أبضْعةٌ منّي لا تمتاز فأعرفها، أم خلةٌ طغت عليّ فصرنا سواء؟! أيها السابح هناك!! عندما تلقى إخوان السلامة، فحدّثهم عن رجلٍ ترك السفينة، ومزّق طوق النجاة، ومن قبل ذلك لعن القبطان، وإياك أن تسألهم الدعاء.. وانصرف عني.. لا أريد مزيدًا من وعظ! دعني أغرق في صمت!!

* أيا راكب السفينة! أستحلفك بربّك أن تدعو لي عند مواقعِ سجودي، تذكُر آثارَ دمعي، وزفراتِ نفسي، وطيفَ رجلٍ يحملُ همّ أمة، فصار همًّا تشقى بمثله أمة! أيها الناجي!! أقسمتُ عليك أن تخبرني، هل تشعر بهذا الهمّ المثقِل على النفس، الناشب في ضلوع الصدر، المطبِق على خلجات القلب؟! أفًّا! أقسمتُ عليك.. هل تأنس بالوحدة، وتنام الليل؟! هل تعرف الوحشة التي تلم بك بعد الذنب، تضيق نفسك بها، وتقوم تصلي؟! فإنّ هاهنا في هذا الصدر وحشاتٍ طباقًا! هل تعلم أنّي أبغضتُ الحقيقة زمنًا؟! كنتُ ألعنُ فيها الخفاء والعسر، وأكره ذلَّ السؤال وزراية القوم، ثم علمتُ أن الخفاء شبهة، والعسر عجمة، والمذلَّة كبر، والزراية نصح، وبقيتُ أُبغض الحقيقة، وأبغضت في هذا البغض نفسي؟! تُرى هل فات الأوان؟!

صندوق الوارد!!

آخر زيارة: منذ ستة أيام!

الرسائل الجديدة: تسع رسائل!

(لسوف نصرخ في وجه الأعادي، ونرفع الأعلام على أرض الوطن، وستنطلق المظاهرات من أرض اللعِب، سأصور ملامحك حين ترى وجهي الملوَّن، حتمًا سيعجبك! لا تنس المباراة!! لم يبق إلا ست ساعات، إلى لقاء!)

(بارك لي يا صاحبي! أتذكر يوم رأيتها فتبسَّمت، فأردتها فتمنَّعت، فقلتُ يومها إنها الفتاة؟! ومرت الأيام حتى فقدت الأمل، واليوم.. ما أجمل اليوم! حصلت على «رقمها» من صديقها «التاسع!»، وسوف أقابلها الليلة على العشاء!)

(تهانينا تهانينا.. وظيفةٌ مرموقة.. والعقبى للزواج!)

(هل رأيت هذا اللعين؟! إنه عميل! بل كلهم عملاء! لماذا يأتون به في تحليل المباراة؟! يزعم أنه الحظ لا حسن الإدارة،

ضعف الخصم لا روح القتال، يشكك في قوة الهجوم، وصلابة الدفاع، ثم ـ ويله! ـ يطعن في نزاهة الحُكَّام!)

(صدقني ستبكي! لن تملك عينيك! الفيلم رومانسيٌّ للغاية، والقصة مقتبسة، والتصوير في أوروبا، فضلًا عن ذاك الإنتاج الضخم وذكاء الإخراج! والبطل قضى أسبوعين يتدرب على تلك الحركة، إذ يقفز في اليمّ فيأسر قلب البطلة، إن كنت ستأتي.. فقابلني في الخامسة أمام دار الأيتام!)

(إنه اللعين مرةً أخرى! يزعم أنه لم يقصد ما فهمناه! إنه لم يحسن المراوغة أيام كان لاعبًا؛ فهل يحسنها الآن؟! إن التاريخ لا يُنسى! قاطعوا برامجه! انشر!)

(لن تصدق.. عندي أغاني الألبوم كاملة، قبل أن يطرح في الأسواق! الأولى والثانية عن غدر الحبيب، والثالثة والرابعة عن إخلاصه، والخامسة والسادسة عن لحظة الفراق، والسابعة والثامنة عن فوزنا في المباراة الأخيرة، واللحن غربيّ، والإيقاع سريع، والتوزيع جديد، والنسخ قليلة، فبادر بالحجز، فالمطرب يقسم ـ للمرة الخامسة ـ أنه الألبوم الأخير!)

(هل سمعت آخر طرفة؟! يزعمون أن الجيش الأمريكي أهدى أهل الصومال شحنةً من الأدوية، فردّها شعب الصومال لأنه وجدها تؤخذ بعد الأكل!)

(مباركٌ عليك الوظيفة الجديدة، أنت أهلها، ومن غيرك يستحقها؟! أكرر المباركة، والعذر إن جاءت متأخرة!)

* * *

كغريبٍ في شوارع العاصمة، يُداري غربتَه بثقةٍ مصطنعة، يلتمس وجهًا سمحًا يسأله عن السبيل، ويتلمس طريقه في قلقٍ من عدم الوصول، غريبٌ أنا بينكم يا جماعة الأصدقاء! أُدَارِي ذلك باهتمامٍ مصطنع، أتقنتُ فنّ المداراة، ولم أزل أرجو ناصحًا يرشدني، كأميرةٍ تنتظر فارسها المنشود، لا تدري متى يأتيها؟! لكنها تعلم أنه سيأتي! وأنا لا أحتمل ذل الغربة وحسرة ضياع الطريق!

شابٌّ في مقتبل العمر، قُبِل لتوّه في وظيفة الأحلام، يذرع طريق عودته بقفزات الظفر، ولولا الحشمة والمروءة لطرق الأبواب، ونادى في الطرقات لينشر الخبر، ثم ما يلبث قليلًا في بيته، حتى تتوارد عليه الأسئلة، عن طبيعة هذا الفوز وبقائه وجدواه، وهل يستحق فعلًا كل هذه الجلبة، وتتبدد سعادته بين «لم؟» و «ثم ماذا؟!»، ثم تجتمع عليه العين الساهرة والعَبرة النافرة.. تناقضٌ غريبٌ بين شأنه في دائرة الضوء وشأنه خارجها!! عجبًا لحالي!!

يطالبني الأصحاب ببدء البحث عن شريكة الحياة، عن تلك الروح الأخرى التي آنس إليها، وأطمئن في جوارها، وأبثها نجواي، وأشاركها الشكوى، يحذرونني!! الأمر ليس بالسهولة التي أتصورها، وسيأخذ وقتًا.. مفهومٌ! مفهومٌ! سأبدأ في البحث فور حصولي على الروح الأولى!!

ثمّ إني لن أورّث أبنائي هذا الجذر المجتث، ولن أعطيهم

ذات الأمل المبتور، أخشى أن أفقدهم في الدار الأخرى، أو أُصليهم نارًا لا أعرفها، بل أخشاهم، أخشى جدلًا في أسئلةٍ مازلت أرددها، فضولهم يقتلني، هل أسعى لتبسيط إجابةٍ لا أفهمها، «ما زلتَ صغيرًا!». . . أخشى لعنتهم إن لُذتُ بهذا الترياق المغشوش، فلتبق جنينًا في رحم الغيب، ولترحم ضعفي!

أكاد أتمم الصفقة، وأبيع رأسي للوهم، وأركب رأس الذئب الطائر، لا أبالي بالمبدأ، ولا أسأل عن كنه الآخِر، أكاد أتمم الصفقة، وأردد نشيد الشيطان، وأتخذ يومَ قتلِ الثور الأبيض عيدًا، وأطفئ ناري في كأس الخمر، أكاد أتمم الصفقة، وأغلق باب القلب، وأطرد فلول الأفكار، وأقتل الخاطر بآخر شظيةٍ من شك، أكاد أتمم الصفقة، وما أدري ما ينغِّص ذلك؟! بقية ضميرٍ أم صيحة عقلٍ أم دعوة الوالد؟!

هل تذكرني أيها الشيخ الهرِم؟! تراني أصبحتُ ذنبًا تحمل همَّه كما سأحمل ذنب أولادي؟! ليتك تنساني!! ليتك تنسى صراخًا ذهب بعافيتك، وتبجحًا أثكلك ولدك، وعنادًا أبكاك الليالي! كيف أطقتَ ضعيفًا يلعن يقينك لأنه يعجز عن مثله؟! كيف سكتّ على هذه النظرة التي ترميك بالرجعية؟! كيف احتملت سفيهًا يواجه إيمانك بظنونٍ ينقلها؟! عذرًا يا أبي!! أعتذر إليك بندمٍ يفوق ألمك، وحيرةٍ تفوق حسرتك، وجرحٍ بحجم انتصاف الأيام! فاصفح عني!! واذكرني في دعائك!!

الغاية تسوّغ المعيشة!

(من عنده «لِمَ؟!»، يمكنه تحمُّل العيش تحت أيّ «كيف؟!») [١]

فردريك نيتشه

يعد انتحار الجنود في القوات المسلحة الأمريكية من أبرز المعضلات التي تواجه القادة، ففي بعض الأحيان فاق عدد المنتحرين عدد المقتولين أثناء المعركة بحسب تقاريرهم[٢]، والمشكلة ليست في أعداد المنتحرين سنويا والتي وصلت حد «الوباء» ـ بحسب تعبيرهم ـ فحسب، بل المسألة تتعدى للهزيمة النفسية لسائر الجنود، إذ لم يعرف في التاريخ منتصرٌ ينتحر، فضلًا عن دور ذلك في تحطيم أثر الشعارات الحماسية والمشاعر الوطنية في النفوس، ولذلك فقد قامت القوات الأمريكية بدراسة شخصيات هؤلاء المنتحرين، في محاولة لمعرفة أسباب الانتحار أو على الأقل تحديد عوامل الخطورة التي تزيد من احتمالية

---

(١) كان فيكتور فرانكل كثيرًا ما يقتبس هذه الجملة عن نيتشه، ويقول إنّها جديرة بأن تكون الشعار الموجّه لكافة مدارس العلاج النفسي والصحة النفسية.

Frankl VE. Man's search for meaning: an introduction to logotherapy (I. Lasch, Trans.). Fourth edition. Beacon Press. P:84.

(٢) http://www.theguardian.com/world/2013/feb/01/us-military-suicide-epidemic-veteran

الانتحار، وقد كان من أثر هذه الدراسات أن وُجد ارتباطٌ بين ضعف القوة الروحية والإلحاد من جهة وزيادة حدوث الانتحار من جهةٍ أخرى، بناء على دراسة علمية خرجت بهذه النتائج! هذا ليس إلا!

بناءً على هذه الدراسات قامت القيادات العسكرية بتوزيع منشورٍ تدريبي، يقوم هذا المنشور بتعليم الضباط كيفية تحديد العناصر التي تكون معرضةً أكثر للانتحار، ويكون من بين هذه العلامات التي يمكن البحث عنها «الإدمان» و«الحياة الاجتماعية البائسة» و«الطلاق» و«محاولات الانتحار السابقة»، ويضاف إلى ذلك «ضعف أو غياب العقيدة الروحية»[1]، إلى هنا والأمر يسير وفق منهجٍ علميٍّ عمليٍّ منطقيّ، إذ إنّه بعد دراسة الأفراد المنتحرين اتضح أن الإلحاد له ارتباط بالانتحار، وبالتالي قامت القيادات بتحذير رجالها من هذه المسألة!! فخلاهم الذم وعدّاهم العيب!! أليس كذلك؟!

العجيب أن هذا الأداء المؤسسي الاحترافي قوبل بالرفض من أهل الإلحاد، رغم أنّهم يزعمون اتّباعهم للطريقة العلمية وفرحهم بتطبيق مدلول هذه الطريقة، هكذا قامت منظمة «الملاحدة الأمريكيون» American Atheists باستنكار ما حدث وتحريك الرأي العام ضده، وقام الجنود الملحدون بمراسلة المنظمات الحقوقية، وقالت مؤسسة الحرية الدينية للعسكر Military Religious Freedom Foundation (MRFF) إنها تنوي رفع قضية على القادة العسكريين واختصامهم أمام القضاء[2].. كل هذا لأن

(١) http://rockbeyondbelief.com/wp-content/uploads/2013/07/TECOMO-5100.1.pdf

(٢) http://theweek.com/article/index/247830/the-us-military-has-a-problem-with-atheists#disqus_thread

القوم اعتمدوا الطريقة العلمية، والتي أثبتت بدورها أن الإلحاد من مؤشرات الخطر.. كل هذا لكيلا يُقال لأحد الملحدين إنّه أكثر عرضةً للإقدام على الانتحار!!

لكنّ المشكلة التي تواجه الإلحاد حقًّا، أنّ ارتباطه بالانتحار لا يقتصر على الجيش الأمريكي؛ حتى تكفيه في ذلك قضيةٌ يرفعها على الجيش الأمريكي، وتأخذ مجراها حتى يُحكم فيها بأي حكمٍ يكون، القضية ـ يا أهل الإلحاد ـ إن كل الدراسات النفسية تشير إلى ذلك، تشير إلى أن ضعف العقيدة الروحية، وعدم معرفة الغاية من الحياة، وفقدان المعنى في ممارسات الإنسان، كل ذلك من أقوى المؤشرات لقابلية المرء للانتحار!! هكذا! فماذا أنتم فاعلون حياله!؟

ماذا أنتم فاعلون حيال دراسات تقرّ أن الصحة النفسية ترتبط بستة أبعاد هي: التحكم بالذات، والقدرة على التحكم في البيئة المحيطة، ونمو قدرات المرء وتطورها، وحسن العلاقة مع الآخرين، وقبول الذات، وآخرها الوعي بالغاية من الحياة[1] وما العمل عندكم مع دراساتٍ تؤكد أن الوعي بالغاية واستشعار المعنى يعملان على وقاية الإنسان من أثر المصائب لا سيما فقد

---

(١) هذه نماذج من هذه الأبحاث:

- Kafka, G. J. & Kozma A. The construct validity of Ryff's Scales of PsychologicalWell-Being (SPWB) and their relationship to measures of subjective well-being. Social Indicators Research 2002, 57: 171-190.

- Keyes CL. The structure of psychological well-being revisited. Journal of Personality and Social Psychology 1995; 69: 719-727.

- Zika S. & Chamberlain K. On the relation between meaning in life and psychological well-being. British Journal of Psychology 1992; 83: 133-145.

الأحباب[١]؟! ثم ما حيلتكم مع رجلٍ كفيكتور فرانكل عاصر حربين عالميتين يقرر في كتابه «بحث الإنسان عن المعنى» أنّ اكتشاف المعنى في الحياة يقلل من فرص اليأس والاكتئاب والانتحار[٢]؟! ماذا تفعلون حيالها وكبراء الإلحاد يختلفون في شأن السؤال عن الغاية بين رافضٍ للسؤال أو رافضٍ لمعناه أو متوقفٍ في شأنه أو ذاهلٍ عن مقصوده أو مخطئٍ في جوابه؟!! ماذا تفعلون وكبراؤكم في ضلالٍ وأنتم لهم تبع؟!

كيف لكم أيها الملاحدة ـ ولو جمعتم كيدكم وجئتم صفًّا ـ أن تقنعوا ملحدًا من بينكم ألّا ينتحر؟! كيف تردعون ملحدًا جرّب الحياة فصار من أولئك الذين قال فيهم شوبنهاور إنّهم كانوا «ليرفضوا منحة الحياة لو أنّهم رأوها وجرّبوها من قبل»[٣]؟! رجلًا يعتقد أنّه حرٌّ فيما يفعل، له أن يختار فعل ما يشاء، ولا يرى للحياة معنى أسمى، ولا يستنبط من المصائب معنى خاصًّا، وضاقت عليه الدنيا مالًا ورزقًا، وأصابته المصائب في أهله ونفسه، فتبعثرت لياليه، واضطربت أيامه، وهو في ذلك يرى أنّه نتاج انتخابٍ طبيعيّ، لا تعدو قيمته قيمة صخرةٍ في مجرّة[٤]، لا

---

(١) انظر مثلًا هذا البحث ومراجعه:
- Ulmer A., Range L. M., Smith P. C. Purpose in life: A moderator of recovery from bereavement. Omega 1991;23(4): 279- 289.

(٢) Frankl V. E. Man's search for meaning (I. Lasch, Trans). Fourth edition (1992). Beacon Press. (Original work published 1946).

(٣) Schopenhauer A. The World As Will and Idea (R.B. Haldane and J. Kemp Trans). London: George Routledge & Sons 1883; 3:390.

(٤) يقول التطوريّ الشهير جايلورد سيمسون: «الإنسان هو نتاجُ عمليةٍ ماديةٍ لا غايةَ لها، لم يكن في حسبانها، ولم يتم التخطيط لوجوده، هو حالةٌ من المادة، وصورةٌ من الحياة، وصنفٌ من الحيوان، ونوعٌ من رتبة الرئيسيات». =

يعتقد أنّ له خالقًا يبتليه ليجزيه، أو يجازيه ليصطفيه، فكيف لك أن تقنعه بالعدول عن ترك حياته التي ضربها البؤس فلم يعد فيها فرح؟! ما هي الغاية التي تقنع بها رجلًا ملحدًا فقد أولاده وزوجه وماله لكي لا ينتحر؟!

وقد اختلف متفلسفة الإلحاد في عدة شؤونٍ على بضعة أقوال؛ فاختلفوا في الرجل يُقتل ولده أيُقال في تعزيته «البقاء للأقوى» أم «البقاء للمادة»؟! واختلفوا في الرجل يضيع ماله أيُقال له «اصبر واحتسب» أم «العوض في دورة حياتك»؟! واختلفوا في الرجل يُقعِده المرض أيُقال له «لا بأس طهور» أم «نالت أمنّا الطبيعة منكَ مرادها!»؟! واختلفوا في الرجل تربطه العاطفة بامرأةٍ أيكون ذلك لاضطرابٍ عصبيٍّ أم لتغيراتٍ في الدورة الدموية؟! واختلفوا في الرجل يصيبه اليأس والإحباط أيجوز له قتل نفسه أم يُستحب؟! واختلفوا في تعريف الإنسان أهو «حيوانٌ تحركه جيناته الأنانية» أم «آلةٌ للمعيشة تسعى للتكيّف»؟!

وعلى وزان مرجعية هذه الاختلافات، يقول أحد الأدباء في التعليق على مشهد الغرق: «وماذا عسى أن يقع في السماء والأرض إن غرق فلان بن فلان؟! إنّ الناس والحيوان والأشجار والأنهار خلائق متصادمة في هذا العالم، يُهلك أقواها أضعفها، ولا تبالي الخليقة إذا اصطدم إنسانٌ وحجر، أيهما الكاسر وأيّهما المكسور! وهذا رجلٌ سقط في الماء فرسب! ابتعدتُ من الناس مفكرًا فكأني أسمع في هذا الاضطراب وهذا الصخب ثلاثة

= Simpson G.G. Tempo and Mode in Evolution. New York, Columbia University Press.1949: 344-345.

أصواتٍ تدوِّي في أذني، صوتُ الإنسان الضعيف يقول: وا أسفاه! وا رحمتاه! غرق فلان بن فلان، فيا حسرتاه على فلانٍ وأهل فلان! وصوتُ القضاء الرهيب يصيح: أصاب إنسانًا ما قدّر له، وصوتُ الطبيعة القاسية يقول في غير اكتراث: جسمٌ ثقيلٌ سقط على الماء فرسب...!»[١].

يقول ألبرت كامو في كتابه «أسطورة سيزيف»: «هنالك مشكلةٌ فلسفيةٌ هامةٌ وحيدةٌ هي الانتحار، فالحكم بأنّ الحياة تستحق أن تُعاش يسمو إلى منزلة الجواب على السؤال الأساسي في الفلسفة»[٢].. هل الحياة تستحق؟! هل تستحق بحلوها ومرِّها؟ هل شعار المعيشة أنّه لا عيش إلا عيش السرّاء والرفاهية، ولا عيش إلا عيش الصحة والعافية؟! هل شعار حياتك هو قول سينيكا «أمام كل صعوبات الحياة، فإنّ أمامي دائمًا اللجوء إلى الموت!»[٣]؟!

وبعدُ.. ربما تكون سمعتَ برجلٍ يعاني في زواجه، فقد صار زواجُه عادةً يوميةً ليس أكثر، ولعلك سمعتَ بمتدينٍ يعاني في عبادته، حين أمست العبادةُ عادةً لا يشعر فيها بشيء.. ربما.. لكنّك ربما تكون تجاوزتَ الجميع وأنت لا تدري.. ربما أصبحتَ رجلًا اعتاد الحياة وهو لا يشعر.. رجلًا يحيا لأنّه اعتاد الحياة وحسب! كل الذي ينقصك لقطع هذه العادة نازلةٌ تُذهلك، لتتفكر في قيمة حياةٍ ليست إلا جملةً بلا معنى، وكآبةً بلا سببٍ، وتفلسفًا بلا أبجديات!

---

(١) عبد الوهاب عزّام ـ الأوابد ـ صفحة: ٢٥٢.

(٢) ألبير كامو: أسطورة سيزيف، ترجمة: أنيس زكي حسن، منشورات دار مكتبة الحياة، صفحة: ١١.

(٣) Routledge Encyclopedia of Philosophy. First edition. London and New York: Routledge 1998: 8383.

فرقُ تقدير...!

المشهد الأول (يحدثُ كل يوم!):

تقف هذه القَرَوِيَّةُ الفقيرة، وهي تحمل رضيعها على كتفها، في انتظار عرضه على الطبيب، سعيدةً بمعرفتها لعاملة النظافة، التي وفّرت عليها الانتظار في الصف، تشعر بذكائها.. فتراودها ابتسامة، وتخفيها خشيةَ الناظرين!

ولأن المكتب أقرب للطبيب من سرير الكشف، فقد ألقت الرضيع على المكتب، وحينئذٍ تحوّل هذا الوجه الجميل إلى تجويفٍ أسودَ يصفعك بالصراخ.. استغلالًا للموقف يحاول الطبيب فحص اللوزتين، قبل أن يسمع شكوى الأم، يسألها عما حدّث فتسرد عليه، ولا أشك لحظةً أنه لم يسمع شيئًا بخلاف الصراخ!

يخبرها الطبيب بالتهاب اللوزتين، وضرورة المواظبة على المضاد الحيوي وخافض الحرارة، ويحذرها من الطعام الملوث،

ويوصيها بالاهتمام بالرضاعة، فالأمر بسيطٌ ولا شيء يدعو للقلق. . تكسو وجهها ملامح السعادة، وتغلبها ضحكةٌ خفيفةٌ تخالط شكرها الطبيب، وما أن تحمل وليدها حتى يبادر بتجفيف دموعه، ويتلفت حوله يتأكد أنه في طريق الخروج، وتنصرف الأم وعلى وجهها ابتسامةٌ عفوية، أقوى من أن تقهرها إرادتها!

تختصر ذاكرتي هذا الموقف في صورةٍ واحدة، في ابتسامة القروية تتحدى شفقة الناظرين، وكأنّها نسيت زوجها الذي لم يأتِ معها؛ لأنه لو فعل فلن يجد ثمن الدواء، ونسيت ضعفها الذي يمنعها من الرضاعة الطبيعية، وفقرَها الذي يمنعها من شراء اللبن الفاخر، وقلةَ حيلتها التي تمنعها من شراء اللبن المدعَّم، نسيت عملها في مهنة زوجها وأمه، حتى تركت ولدها يحبو حيث يشاء، ليسد الرضيع جوعه بكسرة خبزٍ ملقاة، تشاركه فيها تلك القطة السائمة، ونسيت الليالي الثلاث الأخيرة، وقد قضتها تراهن أن ابنها سيبرأ دون علاج، نسيت أو تناست كلَّ هذا وابتسمت؛ لأنها ـ رغم ذلك ـ راهنت على الفرس الفائز!!

إنها لا تُحسن تنميق الكلام، لتصف معنى الأمومة، ولن تضرب لكم الأمثال، بالرجل يصبر على التثقف؛ حتى ينال اتزان المثقفين، أو بسهر الليالي لنيل الأماني، أو إتيان العزائم على قدر أهلها، إنها لا تحسن شيئًا من هذا الكلام، وهذا الكلام أصلًا لا يكفي لتصوير مشاعرها، لكنها ستحكي لكم عن فرحتها حين بدأ يتقلب في بطنها، ومراقبتها لبطنها تكبر يومًا بعد يوم، ولهفتها لساعة اللقيا، واللقاء الأول بينها وبين ابنها، والقبلة

الأولى التي أهدتها لوجنته، والليالي التي قضاها في حضنها، والسعادة التي أحستها وهي تضاحكه، والنشوة التي أصابتها حين ناداها أوّل مرة، وغير ذلك كثيرٌ مما يملأ النفس سعادةً وبشرًا!

تحدوني هذه النفس التي انثالت بحكايات السعادة، ويدفعني ذلك الوجه الذي انساب بإشراق الابتسامة، إلى النظر في السرّ الذي يراودني بخفائه ويطارده فضولي، لماذا هذه السعادة!؟ وبأي عقلٍ يغض المرء الطرف عن كدر حياته من أجل صفوٍ قليل؟!

المشهد الثاني (حدث ذات يوم!):

«أيّها الأصدقاء! لقد أنهيت عملي! ففيمَ الانتظار؟!»..

"To my friends! My work is done! Why wait?"

كانت هذه الرسالة الأخيرة التي كتبها جورج إيستمان، رسالةٌ مقتضبةٌ قصيرةٌ وجدها أصدقاؤه بجواره! هذا وإيستمان ـ لمن لا يعرفه ـ هو رجلٌ بلغ غاية طموح أهل الدنيا، فقد كان أول من اخترع اللفافة الفيلمية roll film، وكان صنيعُه تمهيدًا لظهور التصوير التليفزيوني، وأول من طوّر كاميرا صغيرة سهلة الحمل وسماها كوداك Kodak Camera، وأنشأ شركةً لصناعة وترويج هذه الكاميرا، وكان شعار الشركة للمستهلِك «أنت تضغط الزر، ونحن نقوم بالباقي!»، لكنّ الزر الأخير الذي اختار جورج الضغط عليه كان زناد مسدسه!

هذا وإيستمان ـ لمن لا يعرفه ـ هو رجلٌ أمريكيٌّ تبرع لتطوير العلوم والفنون، حتى صار مثلًا قلّ في الناس نظيره، فقد

تخطت تبرعاته بلاده لتصل إلى دول القارة الأوروبية، وشملت تبرعاته أغلب الجامعات في الولايات المتحدة، وأنشأ بجامعة بلده مدرسةً للموسيقا، وكلية للطب البشري وأخرى لطب الأسنان، حتى تخطت تبرعاته المائة مليون دولار بكثير! لكن المبلغ الأخير الذي أنفقه كان ثمن الرصاصة التي سيطلقها على قلبه منتحرًا!

مات منتحرًا وقد كان الناس يقولون «ياليت لنا مثل ما أوتي»! ونظر الناس في شأنه قبل مماته منتحرًا، فلم يكن ثمّ شيءٌ يدفعه لذلك إلا شيئًا واحد يبدو أنه عكّر صفو حياته، كان ألمًا شديدًا أصابه في ظهره لعلةٍ بالعمود الفقاري، فأثّر ذلك عليه وصار يعاني ألمًا حين يقف ويمشي، هكذا قالوا.. ولا أدري أيصح ذلك سببًا أم لا! وهل يعقل أن ينسى المرء صفو حياته من أجل كدرٍ قليل؟! لا أدري! ولكن ماذا لو التقطتُ الورقة التي تركها إيستمان «لقد أنهيت عملي! ففيمَ الانتظار؟!»!

الرضا بما أنجزه المرء في الحياة، مع استشعار معنى الحياة والوعي بالغاية منها، هذه الأمور يطرحها الباحثون كعوامل تساعد في الحماية من الانتحار، لكنّ جماعةً منهم ترى أن الرضا بالمنجزات لا يحمي من الانتحار[1]، وصدقوا.. فإن من يرضى

---

(١) هذه أمثلة لهذه المنشورات العلمية:

- Haight BK, Michel Y, Hendrix S. Life review: Preventing despair in newly relocated nursing home residents short-and long-term effects. International Journal of Aging and Human Development 1998; 47(2): 119-142.

- Marnin JH, Gordon LF. Purpose in Life, Satisfaction with Life, and Suicide Ideation in a Clinical Sample. Journal of Psychopathology and Behavioral Assessment 2004; 26(2): 127-135.

بما أنجز في حياته، دون أن يستشعر لحياته معنى لذاتها، ولم يعرف لوجوده غايةً لذاته، هذا الراضي سرعان ما سينقلب منتحرًا لو قام بحساباتٍ ماديةٍ بسيطةٍ تثبت له أنه أنجز ما يريد، ولا داعي لتحمل أي ألمٍ أو عناءٍ مادام أدّى ما عليه، إنّه أنهى عمله! ففيم الانتظار؟! لو كان رجلًا ناجحًا عمليًّا يحسن الفكر ـ كجورج إيستمان ـ لانتحر!

إنّه سؤال الغاية «فيمَ الانتظار؟!».. سؤالٌ أجابته القروية الفقيرة فابتسمت، وأجابه الملياردير الأمريكي فانتحر، هذا هو السؤال الذي سنقف معًا نطرق على أبوابه، ونتأمل في شأن الهلكى على أعتابه، وننظر في فرحة الواصلين المهتدين لجوابه، هذا هو السؤال الذي يسعك أن تنشغل عنه، وتؤجل مواجهته، وتزعم القدرة على الرد عليه، يسعك ذلك مادمت صحيح الجسم مشغول الوقت مستكثرًا بأصحابك، لكن كل الذي ينقصك ـ عافاك الله ـ بعض الألم في ظهرك ليقل انشغالك ولقياك لأصحابك، فيلح عليك السؤال كأنّه شريكٌ شحيح، لا يتركك إلا أن يظفر منك بجواب، فإما ينصرف عنك بابتسامة، وإما يتركك وبجوارك رسالة انتحار!!

فلسفةٌ على أعتاب المقابر!

«لكنّ حياة الإنسان ليست أعظم في الكون من حياة محارة!»[1]

ديفيد هيوم

«لولا وجود فكرة الانتحار، لكنتُ قتلتُ نفسي بلا ريب!»[2].. وليضحك القارئ ملء فيه ورضا نفسه، إلا أنَ هذه الكلمات ليست طرفة يتضاحك بها قومٌ لا خلاق لها، إنّها جملةٌ خرجت مخرج الجدّ الصارم من فم الفيلسوف الوجودي إميل سيوران، وليس هو وحده، بل ينتظم في هذا النسق الطريف ـ السخيف ـ غالبية ما يتناول به الفلاسفة قضية الانتحار لا سيما من منطلقٍ إلحادي، عندما يزعمون أنّهم يزنون معقولية أن يقتل المرء نفسه، والأسباب التي تسوّغ هذا الإثم، والحكم الأخلاقي على هذا الفعل!

«لا تنتحر وإلّا قتلتك!».. «لا تنتحر وإلّا سجنتك!».. على قدر طرافة هذه التهديدات يكون طريفًا الجدل القانوني حول

---

(١) Hume D. (1775). Of Suicide, Essays Moral, Political, and Literary. Liberty Fund. p.582

(٢) https://www.youtube.com/watch?v=zmvRMVMrzA4

تجريم الانتحار، واللغط الفلسفي حول معقوليته، والحساب الأخلاقي لصواب الإقدام عليه وارتكابه، يكون طريفًا حدّ السخف في عالمٍ لا يؤمن بالدار الآخرة، فإن هذا الجدل واللغط والحساب لمن ينتحر من الملحدين لا يخلو من أمرين، إما أنه يتعلق بمعدوم انتحر بالفعل وقد كان يرى أن ميلاده أولى علامات سوء حظّه، أو يتوجه إلى مشتاقٍ للعدمية لن يضره ذمٌّ ولن ينفعه مدح إلا كانتفاع موسيقارٍ بالاحتفال بذكرى وفاته! لكن تأبى العادة.. تأبى العادة في عالم الإلحاد إلا أن تجري بكل طريفٍ سخيفٍ يتزيّا بزيّ العقل والحكمة!

وخذ مظهرًا من مظاهر هذه العادة ـ عادة السخف المتبرج بالتعقل، لتذكر شوبنهاور وهو يستنكر التناول القانوني لعقوبة المنتحر بقوله: «بأية عقوبةٍ ستزجر شخصًا لا يهاب الموتَ نفسه؟!»[1]، ثمّ ما يلبث إلا قليلًا حتى يحاول تجميل الانتحار فلسفيًّا، فيجعل منه سؤالًا يُلقى في وجه الطبيعة، سؤالًا عن «التغيير الذي سيجلبه الموت على وجود الإنسان؟!»[2]، ثم لا يجد وصفًا مناسبًا لذلك إلا قوله: «إنها تجربةٌ طائشةٌ نقوم بها، تنطوي على تدمير الوعي الذاتي الذي يضع سؤالًا وينتظر الجواب»[3]، وإذن.. فهاهو رجلٌ طريفٌ متعاقلٌ يستنكر تخويف المنتحر بالعقوبة، ولكنه مقتنعٌ بالانتحار كوسيلةٍ للبحث عن جواب!

---

(١) **من مقال قصير لآرثر شوبنهاور عن الانتحار.**

(٢) السابق.

(٣) السابق.

يخاطب شوبنهاور العاطفة في القارئ، ليستخرج منه إقرارًا أن الانتحار لا يمكن أن يكون جريمة، لا يمكن أن يتساوى والسرقة أو القتل، بقوله: إن شعور الشفقة الذي ينتابك تجاه المنتحر لا يمكن أن يتساوى وشعور الغضب الذي يملؤك تجاه القاتل والسارق، إنّ شوبنهاور لا يُثبت كون الانتحار جريمةً ثم يقول: إنّه لا يساوي السرقة والقتل في الشناعة، إنّه ينفي أن يكون الانتحار جريمةً أصلًا، وهذا الكلام يصح تمامًا في عالم الإلحاد، في عالم الإلحاد حيث لا يوجد معنى للإثم والذنب، حيث لا يُستنكر اليأس من رحمة الله، والقنوط من عفوه، ونسيان قدرته وحكمته، في عالم الإلحاد حيث الانتحار هو المأوى والملاذ، لمن كان لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر!

ولعل مقالة ديفيد هيوم عن الانتحار هي أقوى ما كتب وأشده تأثيرًا وأوسعه انتشارًا[١]، بل لعله أقوى ما كتبه فيلسوفٌ دفاعًا عن الانتحار، ولذكاء هيوم فإنّه اختار موقعًا ثريًّا للدفاع عن الانتحار، فقد قضى رسالته ـ إلا آخر فقرتين فيها ـ يدافع عن الانتحار وفقًا لمنظور المؤمنين بوجود الخالق ووجوب طاعته واليقين بشمول رعايته، ذلك أنّه يعلم أنّ نقاشًا حول الانتحار في حالة عدم وجود إله لن يكون ذا قيمة ولن يمتاز بهذا الدسم؛ لأنّ رفض الانتحار من منظورٍ إلحاديٍّ يكفي في دحضه قول هيوم «إنني أعتقد أنه لا يوجد إنسان يتخلص من حياته وهي تستحق

(١) Beauchamp TL. An Analysis of Hume's Essay "On Suicide". The Review of Metaphysics 1976; 30: 73-95

الاحتفاظ بها». . هكذا! ما الذي يجعل الملحد يصبر على حيرة الفكر ومرض الجسد؟!

ما الذي يدفع ملحدًا للصبر في العناية المركزة تحيط به العلاجات من كل جانب، ولا يملك من أمر نفسه شيئًا، بل لا يقدر أن يقضي حاجته دون الاستعانة بهيئة التمريض؟! لماذا لا يطالب مثل هذا المريض الملحد طبيبَه المعالج بإنهاء حياته لا سيما إن كان الطبيب بدوره ملحدًا؟! ليرفض الفيلسوف الملحد هذا الطلب معللًا بما يشاء من زخرف القول ومعسول الكلام، إلا أن استطلاع رأي الملحدين أنفسهم وجد علاقة قوية بين الإلحاد والموافقة على «القتل الرحيم» في حالة المرض[١]، بل وجد الباحثون أن الميل للقتل الرحيم وإنهاء حياة المريض ـ مرضًا يُئِس من شفائه ـ أكثر كثيرًا عند الأطباء الملحدين[٢][٣]! ما الذي يجعله يصبر على معضلات الحياة وابتلاءات الجسد وتقلبات الناس؟! ما الذي يجعله يصبر على عناء الفكر زعمًا أن هناك حقيقةً قد يصل إليها أو لا؟!

لا أتصور باحثًا مستكملًا لأدواته يتناول قضية الانتحار، من غير أن يحيط بدراسة دوركايم الاجتماعية له، وقد كان دوركايم في هذا الكتاب قدرَ استطاعته متبعًا لمنهجيةٍ واحدة، ذلك أنّه يسعى لترسيخ نموذجٍ لكيفية دراسة الظواهر اجتماعيًا بطريقةٍ

---

(١) Smith-Stoner M. End-of-life preferences for atheists. Journal of Palliative Medicine 2007; 10(4): 923-928.

(٢) Anderson JG, Caddell DP. Attitudes of medical professionals toward euthanasia. Social Science & Medicine 1993; 37(1): 105 -114.

(٣) Baume P, O'Malley E, Bauman A. Professed religious affiliation and the practice of euthanasia. Journal of Medical Ethics 1995; 21(1): 49-54.

علمية، والمقصود أن دوركايم في هذا الكتاب قارن بين اليهود والكاثوليك والبروتستانت، من حيث التعلم والبحث الحر والقابلية للانتحار والإقدام عليه، ووصل إلى أن اليهود أقل هؤلاء عرضةً للانتحار لما لهم من عقيدةٍ قويةٍ وجماعةٍ مؤمنةٍ مستضعفةٍ تهتم بالعلم، إلا أنّه وجد البروتستانت أكثر عرضة للانتحار من الكاثوليك، لما ينتابهم من تزعزع العقائد الموروثة بفعل البحث الحر الذي تحض عليه تعاليم البروتستانت أكثر من الكاثوليك!

يصل دوركايم إلى نتيجة نصّها أن «الانتحار يتفاقم بوجه عام مع تقدم العلم»[١]، ويفسّر ذلك بما يؤدي إليه البحث الحر من تخلخل العقائد الدينية، وبالتالي يفقد المجتمع الديني الذي ينتمي إليه المرء تماسكه، وبناءً عليه فالانتحار ـ في رأي دوركايم ـ ليس مرتبطًا بالبحث الحر وإنما بأثره في تفكيك العقائد، إلّا أن دوركايم ينصح بالاستمرار في البحث الذي يؤدي إلى تهاوي العقيدة الموروثة، لكنّ الذي تستغربه من دوركايم هو تخليه عن المنهجية التي التزمها في بقية الكتاب، ليدعو لأحد العوامل التي وجد أنها تؤدي إلى الانتحار وهو البحث المؤدي لزعزعة العقائد، قائلًا إنّه لا بد من المضي قدمًا فيه «مهما كان المشروع محفوفًا بالمخاطر، فإن التردد غير مسموح به؛ لأنّه ليس لدينا الخيار»[٢]!

الذي يثير الاستغراب أكثر من دعوة دوركايم للبحث الحر

---

(١) Durkheim E. Suicide: A study in sociology (Translated by John A. Spaulding & George Simpson). Routledge & Kegan Paul Ltd 2005:123.

(٢) Durkheim E. Suicide: A study in sociology (Translated by John A. Spaulding & George Simpson). Routledge & Kegan Paul Ltd 2005:124.

الذي يحل محل الدين، اعتباره الانتحار من المخاطر التي ينبغي الحذر منها، فما الذي يمنع رجلًا نشأ على عقيدةٍ كاثوليكيةٍ فاسدة، أن يبحث ويختبر تلك العقيدة فيقف على فسادها وعمل البشر في تحريفها، فيختل اليقين في قلبه، ويحار عقله، وتضيق عليه نفسه، ويصدق فيه قول كافكا «إن أولى علامات البدء في الفهم هي تمني الموت»[1]!، وهكذا يضطرب ويهتز، ويمسي شاكًّا، ويصبح ملحدًا، يشعر بالغربة بين قومه، ويُعييه السؤال مرة، ويحيّره الجواب مرّات، ما الذي يمنعه ـ وقد ألحد ـ أن ينتحر راحةً من هذا العناء الفكري الخانق لأنفاسه، الآخذ بأكظامه، الرابض ثقيلًا فوق قلبه؟!

إنّ أي حديثٍ عن نكارة الانتحار، والتنفير من الإقدام عليه، والتشنيع على مرتكبه، انطلاقًا من خلفيةٍ لا تؤمن بالخالق، ولا تعتقد بتصريفٍ غيبيٍّ للممالك، ولا ترى في المصائب ابتلاءً، ولا تصدق أن في الآخرة جزاءً، ولا تعرف معنى الإثم في قنوط المرء من رحمة بارئه، ولا تستشعر الذنب في اجتراح محارمه، لهو حديثٌ فارغ، وتحليلٌ زائغ، لا يقنع يائسًا، ولا يمنع بائسًا، ولا يدفع مُصابًا، ولا ينفع معاقًا، ولولا ما ضُرب على هذه الدنيا من التكليف، ومن احتيال الباطل بالتعلق بالألسنة المتعالمة، وإمكانية التفلسف بكل قولٍ سخيف، لكان انتحار الملحد من اللوازم المتحتّمة والحتميات اللازمة!

---

(١) Franz Kafka (1990). Letters to Milena. Schocken Books Inc.

رسالة منتحر!

ينتابني شعورُ أمٍّ أفلت ابنها من يدها واختفى وسط الزحام وحده، وإحساسُ كاتبٍ يبحث عن كلمةٍ تُطرب القارئ رغم المعنى الكئيب، وحيرةُ منتحرٍ وُجِد وفي إحدى يديه سمّاعة الهاتف وبالأخرى السكين.. ينتابني ذلك وأنا في بؤرة معضلةٍ يُرضِي الأدباء منها بيتٌ موزون أو نثرٌ مسجوع.. ويحتار فيها المهتمون بأحوال النفس، يبحثون عن وصفٍ يناسبُ اجتماع المتناقضات وليس «المحال»! يفتشون عن الجواب في ثنايا السؤال! يتسورون المحراب فيجدون خلف السور أسوار!

ضاقت عليهم «لا أدري!» بما رحبت، وأرادوا أن يشركوني ضيقَ نفسي، واستعاروا من أجل «نعلم حقيقة الأمر!» عقلي.. تسألون في الغيبات عنّي، وتفتشون أغراضي كأنّي... لم يبق من ضالاتكم إلا غور نفسي؟! لم يبق من مفقوديكم إلا حسن ظني؟! ما الذي تريدون مني؟!.. تصلون ما أقطع من حبل ذكري، تنشرون ما أطوي من أخبار بؤسي، تتلمسون ما أطمسُ من الآثارِ

خلفي... أكان منطويًا أم مسٌّ من الجنون اعتراه؟!... آه!...
ويجيبُ ناسٌ بالإثبات رُغم الاشتباه! أولا تصيبكمُ سآمة، أو رشفةٌ
من مرِّ الملامة!؟ وقد سألتكم عند مفترقِ الطريقِ العلامة،
فتركتموني وحدي أخشى الندامة، ثم تبغون تشريح جثماني بحثًا
عن سر الخلل؟! أين حمرة الخجل؟!

«يومًا ما.. يومًا ما سيكون لكلِّ شيءٍ معنى تام، وحتى
يحين ذلك: اضحك وسط الارتباك! ابتسم بين الدموع! وداوم
على تذكير نفسك أن كلَّ شيءٍ يحدث لسبب!»[1].. قتلني
الانتظار! لم أزل ألاحق الهدف وراء الهدف، وأرسم الغاية وراء
الغاية، وأعدو لاهثًا وراء تلك اللحظة، لحظة تحوّل السعي إلى
معنى، لحظة قطف الثمار، لكنها لا تأتي، لا تأتي أبدًا كأنّها
عروسٌ تستحي أو فارسٌ يمتنع أو محالٌ لا وجود له! لا أدري!
لكنني كنت أبتسم وأضحك!

كعاشقٍ يستجدي حبًّا، ووالدٍ يطلب برًّا، كنتُ أريد بثّ
المعنى في الحياة، هذا سأنافسه لأشعر بلذة الفوز، وذاك سأنجزه
لأتذوق طعم النجاح، أما تلك المهمة فستترك لي صورةً رائعة في
أعين الأصدقاء.. ثمّ تعجبني اللذة فأسعى لغيرها، ويحلو الطعم
فأريد غيره، وتغبّر الصورة فأحاول جلاءها، وهكذا.. هكذا
أجري في سباقٍ محموم لا أعلم من أطلق فيه صافرة البداية، ولم
يخبرني أحدٌ أين أطلّب خط النهاية! كلّ الذي أراه هو فلانٌ

(١) من كلمات الموسيقي الأمريكي جون ماير.

يسبقني وفلانٌ يتبعني، تتداخل الصور وتتشابه الأشكال، وتتسارع الأنفاس ويخفق القلب، ولا يلوح في الأفق إلا توابيت الموتى، وقبورٌ تنتظر الأحياء!! هكذا أجري من غير فسحةٍ لتدبر الأمر، فأي توقفٍ لن يكون في أعين الناس إلا تبرير الفاشل وتعلل العاجز وتسويف الكسول! ومازلتُ أبتسم وأضحك!

وقد علمتُ أن غاية مسعاي سرابٌ لا يدرك، فكلما قيل انتهى امتد، وكلما اقتربتُ ابتعدت، هذا وأنا أعلم أن عيب التمام أن يعقبه نقصان، ولا يلي وهج الإشراق إلا عتمة الأفول، وأعلم أن كل ما ذقته من ثمار السعي ليس إلا خديعةً كبرى، لا تدفع همًّا ولا توقِف نهمًا، كفرحة تلميذٍ غشاشٍ بالنجاح، أو كطرب عدّاءٍ يتعاطى المنشطات بالسبْق، فإذا علمتَ ما أعلم، فاعلم أن غاية الشقاء أن تقع في فخ تبادل الأدوار، فبدل أن يكون وقود حركتك أنّك إنسانٌ مكرم، إذا بك تريد إثبات إنسانيتك بعملٍ يشاركك فيه سائر الحيوان! وعلى العهد أنا.. أبتسم وأضحك!

قدسية الحياة..!! قدسية الحياة..!! يسخر المهرّج الملحد جورج كارلين من هذا الادعاء[1]، إذ لم يرفعه أحدٌ سواكم معشر الأحياء، لم يخبرنا أحدٌ من الأموات بحقيقة الأمر، ربما كان الموت أكثر قدسية من الحياة، ماذا لو كانت هذه الحياة لا تستحق العيش؟! ماذا لو كانت مشاغلنا اليومية هي فقط التي تضيّع علينا تجربة الانتحار؟! هل المشكلة في ترتيب الأولويات؟!

(١) في عرض ساخر له عن الموت: https://www.youtube.com/watch?v=3PiZSFIVFiU

ماذا لو كان مانعنا من الانتحار هو «كلام الناس»؟! لماذا نخشى نقاء «العدم»؟!.. مضحكٌ نعم! لكنني لم أعد أبتسم!

وأطرف من «مهرّجي» الملاحدة «فلاسفتهم» و«علماؤهم»، فقد كنتُ أداوم على تذكير نفسي أن كلّ شيءٍ يحدث لسبب! وأنتظر يومًا ما سيكون فيه لكل شيءٍ معنى! وأبتسم وأضحك! حتى وجدتُ أنّ «كل شيءٍ يحدث لسبب» ليست قضيةً قطعيةَ الثبوت عند أولئك «الفلاسفة» و«العلماء»، بل إن غاية المراد من بحث أغلبهم هي نفي هذه القضية على وجه الخصوص، وهي عند عامتهم أكبر وهم معيشٍ عرفته البشرية يومًا، وهي مدخل الإيمان وسلوى التديّن وعدو الإلحاد، هكذا علموني.. وهكذا لم أعد أبتسم ولم أعد أضحك!

تركوني مريضًا فقد الثقة في الطبيب، وأديبًا خانته مُلهِمته، وجنديًّا فرّ قائده، أراقب الزمان يلتهم المستقبل، ليلقي به في بطنه ماضيًا، أراقبه في ملل، وكثيرًا ما كنتُ أستعجله، طمعًا في الوصول للنهاية.. وتركوني محرّرًا من كل قيد، لا أرتبط بجذرٍ، ولا أرنو لأمل، لا أتبع قاعدة، ولا أعمل لغاية، لا أهتم بعقيدة، ولا ألتزم بعبادة.. وبعد أن لقنوني نسبية الحقيقة، وعلموني حتمية تغير المعلوم، وحذروني عمل الزمان في الثوابت، تركوني لا أعاني ولا أبالي ولا أهتم، تركوني عقلًا حرًّا ولسانًا منطلِقًا.. إلا شيئًا واحدًا تركوني وإياه نعاني، تركوني أختبر اضطرابات الوجدان وتقلبات المشاعر!

أليس من علمائكم رشيدٌ يقضي على العجلة في النفس؟!
ألـم يُكتشف بعد شيءٌ يتركني وقد زال من قلبي شعور اليأس؟!
أما اختُرع ترياقٌ يقضي على الخوف؟! لا أريد برهانًا باردًا على أن اليأس ما هو إلا تفاعلات في الدماغ، وأن الخوف ليس إلا تغيراتٍ هرمونية وعصبية، لا أريد إلا أن تتركوني لا أشعر بهذه الأحاسيس، لا أريد إلا أن تعملوا عملكم مع الوجدان كما فعلتم من قبل مع بدائه العقل وضرورات الحس!

عند مفترق الطرق.. هل أُكمل في هذا الطريق الشائك متصبِّرًا بشيءٍ لا أدريه على ويلاتٍ أعانيها؟! أم أنحرف إلى ذلك الطريق مع جماعة الأصدقاء نغيب عن الواقع بفعل المخدّرات؟! أم أستعجل النهاية نحو هذه التوابيت البادية في الأفق؟! أم أرجع للوراء مع أولئك الذين طالما رميتهم بالسعادة الوهمية وأجابوني بابتسامةٍ معناها «سوف ترى!»؟!

نعم.. قد حسمتُ أمري واتبعتُ اختياري، فأهون الطرق الأربعة عاقبةً كان طريق النهاية، لا يعيبه إلا الخوف والرهبة، نعم.. ستزول مع الوقت وتكرار المحاولة!! سيستغرقك الأمر بعض علامات التردد على رسغك حتى تُنفِذ الطعن، هل أنا على يقين؟! هل أحسنتُ الاختيار؟! لا أدري! ما المصير وما المآل؟! لا أدري! غير أنّك لو لم تكن تنوي الرجوع للوراء، وتعتقد أن بعدَ التابوت عدمًا محضًا، فالتابوت بالطبع أوجه اختيار!!

الغائب المنتَظَر!

«لولا أن القلوبَ توقن باجتماعٍ ثانٍ، لتفطرت المرائر لفراق المحبين»[1]

ابن عقيل الحنبلي

«هذا الزمان سوف يمضي».. هكذا نقشَ أحدُ الملوك خاتَمه بهذه العبارة، بعدما استشار وزيره في نقشٍ إن قرأه وهو حزينٌ فرح، وإن قرأه وهو سعيدٌ حزِن، وما أفقهه من وزير فطِن! فكم من قلبٍ مكروبٍ تعلّق بهذا النقش! وكم من محزونٍ ابتسم لما تذكّر هذا المعنى! وكم من مكلومٍ كان عزاؤه أن صدمته الأولى «سوف تمضي»!! «هذا الزمان سوف يمضي».. إنّها حُجة الصّبر وفلسفة الطُّموح وجدلية الأمل! إلّا أن هذا النقشَ لا ينفعُ شيئًا في قلب رجلٍ يعلم أنّه قد يموت قبل أن يمضي هذا الزمان، ثم هو بعد الموت يصير عدمًا محضًا كأنّه لم يكن قط؟!! هذا وهو يقرؤها حزينًا؛ فكيف لو كان يقرؤها سعيدًا؟!

لي صاحبٌ اشترى سيارةً بثمنٍ آجلٍ، يسدد منه قسطًا كلَّ

(١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٩/ ١٨٧).

حين، يقتطع من راتبِه وثمرةِ سعيه ليدفع المال، سعيدًا بسيارته الجديدة وصفقته الرابحة، يُكثر من ذكر دراسة جدوى ـ يحفظها كأسماء أبنائه ـ عن التوفير بعيد المدى الذي ستحققه له هذه السيارة، فهي في العاجل توفر له ما يدفعه في المواصلات العامّة، وفي الآجل توفر له مصاريف الإصلاح التي تستهلكها نظائرها من السيارات رخيصة الثمن، إلّا أن هذا النشاط انقلب يأسًا، وتبددت السعادة، وامتلأت نفسه بالكسل، وبلغ من الإحباط أرذله، عندما ابتُلي بحادثٍ حطّم السيارة تمامًا، وما زال يسدد في أقساطها، لماذا يقتطع من قُوتِه وجُهدِه ليدفع ثمن قطعةٍ من «الخُردة» لا يُرتجى منها نفع؟! ما معنى استغلال الحاضر في التحصل على شيءٍ لا مستقبل له؟!

يتساءل جورج أورويل في روايته (١٩٨٤م) على لسان ونستون، تلك الشخصية التي أحيطت بدولة شمولية مستبدة تراقب لفتات المرء وخطواته، وتعيش في بلدٍ تملؤه شاشات الرصد وصور «الأخ الأكبر»، وقد سيطرت على ونستون رغبةٌ ملحة أن يكتب خواطره، في مجتمعٍ يُعد فيه اقتناء دفترٍ وقلمٍ «جريمةَ فكر» عقوبتها الإعدام، فكيفَ بمذكراتٍ يكتبُ فيهاً «يسقط الأخ الأكبر»؟! في خضم ذلك، كان الهاجس الأكبر الذي ملأ نفس ونستون بخصوص مذكراته تساؤلًا استحوذ عليه: «تساءلَ لمن يكتب ما يكتبه في مفكرته، أتراه يكتب للمستقبل أم للماضي؟ أيكتب لعصرٍ ربما لن يكون إلا في خيالاته؟! وأمام عينيه لم يكن الموت فحسب يقف متربصًا، بل الفناء، المفكرة ستتحول إلى

رماد، وهو نفسه سيموت ويتحول إلى بخار!»[1]؟

وهكذا.. يبقى الإنسان كائنًا يبحث عن المعنى في ثنايا الزمان، وتبقى سعادتُه لُغزًا محيّرًا يفترس عقول الباحثين ويبتلع أعمارهم، وهكذا يبقى شأنها وشأنهم، تتبرج وتراود كامرأةٍ مبتذلةٍ تعافها نفوس الشرفاء، ثم ما تلبث أن تتمنّع كأنّها ربّة الخِدر العذراء، ويُقبل الباحث منشرح الصدر كمن فتَحَ حِصنًا مُحكمًا، ثم ينقلب خائبًا ليس يغزو فكرَه إلا حُنين بحكاية خفّيه، وهكذا.. كأنّ السعادة خُلقت نعيمًا لأهلها من البسطاء، وعذابًا للباحثين في شأنها من الفلاسفة والعلماء!

في بحثه[2] عن علاقة السعادة بالمال والوقت، وجد كاسي مولنر أنّ الوقتَ عاملٌ رئيسٌ في التأثير على سعادة الإنسان، بل وجد أنّ الوقت يلعب دورًا أكثر أهمية من دور المال في كون المرء سعيدًا أو تعيسًا، حيث إن الأبحاث السابقة قررت أن السعادة أكثر في الدول الأوروبية التي يقضي مواطنوها عددًا أقل في العمل، مقارنة بالولايات المتحدة التي ينهمك مواطنوها في العمل لساعاتٍ أطول[3]، أمّا بحثه هو فقد لاحظ فيه مولنر أن التفكير في الوقت وتنظيمه والاستمتاع به مقارنةً بالتفكير في المال يكون مصحوبًا بدرجةٍ أعلى على مقياسه للسعادة!

---

(١) جورج أورويل: رواية ١٩٨٤م. ترجمة أنور الشامي، المركز الثقافي العربي، صفحة ٣٥.

(٢) Mogilner C. The Pursuit of Happiness: Time, Money, and Social Connection. Psychological Science 2010; 21(9): 1348-1354.

(٣) Layard, R. (2005). Happiness: Lessons from a new science. London: Penguin Books.

وفي ذات السياق قام جورج لفنشتاين بالبحث في الدوافع النفسية للتصرفات الإنسانية[١]، بحثًا يجمع به بين علم الاقتصاد وعلم النفس، فاختار لبحثه مجموعةً يقل فيها الدافع الاستهلاكي أو ينعدم، اختار «متسلقي الجبال» ليكونوا محل دراسته، وطبق دوافع الإحساس بالذات والرغبة في حسن السُّمعة وإكمال الهدف والإتقان عليهم كدوافع للفعل البشري بخلاف الاستهلاك، إلا أنّ بحثه جعله يضيف دافعًا آخر يقرر هو نفسه أنه لم يُذكر في أبحاث الاقتصاديين إلا نادرًا جدًّا، إنّه دافع البحث عن المعنى، فكثيرٌ من متسلقي الجبال تغيرت نظرته للحياة بسبب ممارسة التسلق المصحوبة بمخاطرة الموت في أية لحظة، ووجد لفنشتاين أنّهم «تقريبًا بلا استثناء، يزداد تقديرهم للعلاقات الإنسانية، ويقل اهتمامهم بالطموح المهني والمادي». . إنّ الشعور بالوقت عاملٌ رئيس في نظرة الإنسان للحياة واستمتاعه به!

يُحكى في الطرائف أن ملحدًا مهزول البدن نحيفًا لولا لُطف الله لما رآه الناس، قابل مؤمنًا عظيم الجسم سمين اللحم فسأله عن معتقده، فأخبره بإيمانه بخالقٍ يبعثه بعد الموت ويحاسبه على عمله؛ إن خيرًا فالجنة وإن شرًّا فالنار، فقال له الملحد: «ويحك! إنّني لا أعتقد شيئًا مما تقول إلا الموت وتراني في هذا الهزال والضعف، وأنت تعتقد ما تعتقد وأنت على هذه الحال من السمن؟!»، يُحكى هذا ليضحك الناس على التناقض بين المعتقد

(١) George Loewenstein. Because it is there: The challenge of mountaineering for utility theory. KYKLOS: International Review for Social Sciences 1999; 52: 315-344.

ومقتضاه، والتباين بين ما ينبغي وما يقع!! إلّا أن المتأمل في هذه الطرفة يجد أنّه لا تباين ولا تناقض، وأن سؤال الملحد لا محل له ليكون من أسئلة الاستنكار!

إنّ ملحدًا يعتقد أنّ الموتَ مُتربصٌ به في أيةِ لحظة، يُبيده فيقطع عليه ابتسامته، أو يُفنيه فيخطفه قُبيل تحقيق هدفه، أو يُهلكه فيحرمه من الابتهاج بثمرةِ جهده، ثمّ هو بعد الموت عدمٌ لا يُذكر، إنّ هذا الرجل حقيقٌ إذا أكل ألا يشبع، وإذا اشتهى ألّا يلتذ، وإذا سمع ألا يطرب، وإذا عاش ألّا يفرح، فلقد فضح الموت الدنيا، فلم يدع لذي لبٍّ فرحًا[1]، حقيقٌ أن يضيق صدره، ويهزل جسده، وتنقبض روحه، حقيقٌ ألا يبالي بالقانون، ولا يحجزه خُلق، ولا يهتم بعُرفٍ، ولا يشغله ما يقول الناس! فما هي إلا لحظةٌ تأتي بغتةً فيصير عدمًا، فلماذا يهتم؟! ولولا غفلة الدهريّ الذي لا يؤمن بالآخرة، لولا غفلته عن صدمة الموت ومصيبته لما استطاع الحياة، ويُعزّز هذه الغفلة ـ أو ربما هي التي تُعزّز ـ الانهماك في أعمالٍ تشغل الفكر والجسم، فما أبأسه من معتقَدٍ لا يحيا صاحبه إلا أن يغفل عن حقيقته!!

أمّا المؤمن فيعلم أنّ هذه الدنيا ما هي إلا محطةٌ في رحلة وجوده، يعقبها حسابٌ فإن أحسن فله دار الحسنى والمزيد، وإن أساء فإما عفوٌ أو نارٌ تطهره من الذنوب، إنّ هذا الرجل حقيقٌ أن

(١) أورد الإمام أحمد في «الزهد» وابن الجوزي في «المواعظ» عن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ قال: إن الموت فضح الدنيا فلم يترك لذي لُبٍّ به فرحًا.

يفرح بالقليل، وأن يبذل دون انتظار الأجر، وأن يعمل لهدفه ولو اقترب الأجل، حقيقٌ إذا ابتُلي ألا يجزع، وإذا مرض ألا يقنط، وإذا فات مقصوده ألا ييأس، حقيقٌ إذا ظُلِم ألّا يفقد رشده، وإذا فقد حبيبًا ألا يُجنّ عقله، وإذا ضاق عيشه ألا تزول ابتسامته، حقيقٌ أن تكون حياته مسعى، وآماله حتمًا، وأجره وعدًا لا يضيع! ويتنوع ذلك بحسب الغالب على قلب المؤمن بين الخوف من ربه ورجائه، إلّا أن كل هذه المشاعر تنقلب لضدها إن رانت على قلبه الغفلة!

في سؤالٍ له عن مخاوفه الوجودية ومخاوفه من الموت، يقول الملحد الشهير سام هاريس: «أنا مثل كل من سواي فيما أعتقد.. أنا قلقٌ بشأن الموت.. أنت تعلم، موتك بطريقةٍ ما غير مقبول، إنّها حقيقةٌ مذهلةٌ عن وجودنا هنا هي أننا نموت.. لكن أعتقد أنّ هناك ما هو أسوأ وهو أنّه إن عشنا طويلًا فإننا سنخسر كل من أحببناهم في هذا العالم.. الناس يموتون ويختفون ونحن نُترك مع هذه الأسطورة الغامضة.. إنّه الجهل المطلق بما يجري لهم.. وفي هذه المساحة الفارغة يتدخل الدين بقصص المواساة ليقول «لا شيء يحصل لهم، إنّهم في مكان أفضل، وسوف تقابلهم بالأعلى بعد أن تموت، الموت وهم».. لا شك أنّك إن استطعت التصديق بذلك فإنّه يحقق تعويضًا عاطفيًّا، ليس هناك قصة أخرى يمكنك أن تخبرها لشخص ماتت طفلته بالسرطان لتجعله يرضى، إنّها تعزية حقيقية أن يعتقد أن الابنة ذهبت عند المسيح، وأن لمَّ الشمل سيحصل بعد سنوات قليلة، ليس هناك

بديلٌ لذلك، ليس هناك حاجة لبديلٍ لذلك، علينا فقط أن نعي ثمن ذلك، هناك عدة عيوب لهذه الطريقة من التفكير، أولها أننا لا نعلِّم الناس كيف يحزنون، الدين يمنع الناس من الحزن، أنت تقول لابنك أنّ جدته في الجنة وليس هناك داعٍ للحزن، هذا هو الدين، من الأفضل أن تُعد ابنك لحقيقة الحياة، أن الموت حقيقة، وأننا لا نعلم ما يحصل بعد الموت، وأنا لا أتظاهر بأنني أعرف ما يجري بعد الموت، لا أعرف ما يجري بعد موت المخ، أنا لا أعرف العلاقة بين الوعي والعالم الفيزيائي، أنا لا أعتقد أن أحدًا يعرف، أعتقد أن هناك عدة أسبابٍ للشك في الاعتقادات البسيطة حول الروح وعن إمكانية أن تذهب إلى مكان أفضل بعد الموت، لكنني ببساطة لا أعرف، لا أعرف ما أعتقده بخصوص الموت، ولا أعتقد أنه ضروريٌّ أن تعرف لكي تعيش حياةً صحيةً سعيدةً أخلاقيةً قدر الإمكان، أنت لا تحصل على شيءٍ ذي قيمة عندما تتظاهر بالمعرفة بخصوص الموت»[١]!

انظر إلى التناقض بين بداية كلامه عن اهتمامه واهتمام الجميع لشأن الموت، تلك الحقيقة المذهلة على حد قوله، وآخر كلامه عن أنّه ليس بحاجةٍ لمعرفة ما يحدث بعد الموت لكي يعيش حياةً سعيدةً صحية! وانظر إلى هذه الحيرة المهوّلة التي انحدرت من شتى جوانب النفس لتجتمع في قوله: «لا أعرف ما أعتقده بخصوص الموت»، فالموتُ هو الحقيقة التي لا يماري

(١) http://bigthink.com/videos/sam-harris-on-death

فيها ولا ينكرها أحد، فلا يستطيع أن يقول إنه لا يعتقد بالموت، ولكن لم تمكنه كلمة يُدخل فيها إلحاده سوى أن يقول: «لا أعرف ما أعتقده»، وانظر إلى تسليمه المطلق بأنّه لا بديل للدين في مواساة الإنسان الذي يعاني فقد ابنته، بعد أن ذكر أنَ أسوأ من الموت أن يعيش المرء ليفقد أحبابه، فالدين هو الخيار الوحيد الذي يستطيع مواساة الإنسان في أشد هولٍ ينزل به، وهو موت الأحباب!!

إنّ موقف الملحد من الموت يشبه موقف الرضيع من الأبواب المغلقة، يتفحص الباب الموصود بعينٍ متعجِّبة، لقد وصلَ إلى نهاية الطريق، يرى نفسه وحيدًا عند حافّة العالَم، وليس ثمّ وراء، يتملّكه العجزُ التام، يبكي، ينصرف وعيناه بالباب معلّقة، لا يعرف.. لا يعرف ما يعتقده، لن يدري حقيقة هذا الباب إلا عندما يرشُد، ليعلم أنّه سيفتح هذا الباب، وسيمر من خلاله، لينتقل إلى ممرٍ آخر، لن يقف عند شأن الباب طويلًا عندما يرشُد، سيشغله الاهتمام بما سيلقاه وراءه.. سيدرك هذا عندما يرشُد!

الأغلال!

وأحسب أن أشد خلق الله عجبًا من شأن الإنسان هو الليل، وهل اسودَّ وجهُه إلا مما اطلع عليه من خبء الإنسان ومستوره؟! وهل لمعت نجومه إلا فُضولًا لمعاينة الأسرار؟ وهل ضرب قمرَه المشيبُ إلا من هول الجرائم وجرأة الأحلام؟! إنّه مَسكن الناس إلا من أديبٍ يستلهم معنى، ومجرمٍ يتحيّن غفلة، وعاملٍ يرجو رزقًا، وعابدٍ يطلب عفوًا، ومُحبٍّ يشغلُه القُربان، ويائسٍ يناديه الانتحار!

ومن عجائب هذا العالمِ منتحرٌ يخشى الملام، وملحدٌ تحجزه الفضيلة، وفانٍ يتصبّر على المِحن، وإذن فهو أعجب شيء.. أعجب شيءٍ أن يكون المرء ملحدًا يصبِر نفسَه في هذا العالم المادي ولا ينتحر! ملحدٌ لا يحجزه إلا سابق قوله: «أنا ملحد ونفسي ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه»، فهو ـ بالإلحاد ـ قد صار «أسعد حالًا وأكثر اطمئنانًا»[1]، وما عسى أن يقولَ

(١) الملحد إسماعيل أدهم في رسالة له بعنوان «لماذا أنا ملحد؟»

الناس لو انتحر؟! هل سيبلغه ملام الناس في العالم الآخر؟! وهل هناك عالمٌ آخر؟! ليس ثمّ إلا العدم!

يسري مختبئًا في سواد معطفه، تتقاذفه مدارج الحيرة صعودًا وهبوطًا، وتحدوه نيران التردد جيئةً وذهابًا، لا يتيقن من أمر نفسه إلا أنه ملحدٌ، ثمّ أنّ اسمه إسماعيل أدهم، هذا ليس إلا! يسير ملتحفًا بظلام الليل، مستترًا بأثر الرياح والبرد، متفردًا على شاطئ الإسكندرية، تتداعى عليه الذكريات، يدفعها وتُدافعه، ويصارعها فتصرعُه!

لا بد أنّ أحط الناس خساسة نفسٍ هو رجلٌ يجد في آبائه عارًا؛ فيخترع له نسبًا أو يصل نفسه بأناسٍ لم يعرفونه يومًا، وهو رجلٌ مُسيكينٌ يكذب على الجميع؛ فلا يدري الناس شأن أسرتِه ولا تدري أسرتُه شأنه مع الناس، مسيكينٌ اجتمعت عليه خسة النفس وخشية الفضيحة، فماذا سيفعل من عرّف نفسه أنّه حفيد الأستاذ فانتهوف الحاصل على جائزة نوبل لو افتضح أمره[1]؟! كيف تكون نظرة الناس إليه لو عُلم أن أمّه «إلين» ليست من بنات فانتهوف كما يدّعي[2]!؟ تراوده الأسئلة فتذهب براحة نفسه: لماذا ينظر إليّ أخي هذه النظرة؟! هل سمعني أقول إنّ جدّنا لأبينا كان أستاذًا جامعيًّا في الأدب التركي؟!

---

(١) كل ما ذكرتُه في هذا المقال على لسان إسماعيل أدهم هو مما ذكره في رسالته «لماذا أنا ملحد؟» أو مما نقله عنه معاصره سامي الكيالي في كتابه «الراحلون» طبع دار الفكر العربي من صفحة ٧٥ إلى صفحة ١١٩.

(٢) لفانتهوف بنتان فقط هنّ «أليدا» و«جوانا»، ولا يُعرف له سواهما، وقد زعم إسماعيل أدهم أنّ أمه «إلين» من بنات فانتهوف!

يسري مختبئًا في سواد معطفه، يدفن ذقنه في صدره ويدُسُّ بصره في الأرض، تلفّه الريح توشك أن تصم أذنيه، ويختبر تلك اللحظة التي اختبرناها جميعًا، تلك اللحظة التي نتمنى أنّا لم نعرف هذه الدنيا ولا عرفتنا، فرَقًا من شدة البلاء وجزعًا من وحشة الجُرم ويأسًا من تحقق المراد، تسيطر عليه هذه اللحظة كأنّها عمرٌ ممتد، ويحضره طيف أبيه وأمه وأجداده، تملؤهم الحسرة فتملؤه الندامة!

والتعالم هو الكابوس الوحيد الذي يعيشه المرء متمتعًا به، ولا يهنأ متعالمٌ بثمرة تعالمه إلا أن يموت ضميره، ذلك أنّ التعالم جرمٌ مركَّبٌ من الكذب والخيانة، وأسلوبُ حياةٍ يُجهِد المتعالم التكيّف معه، وذنبٌ تصعب مدافعته لما يصحبه من جاهٍ وشهرة، تُرى كيف ستكون فضيحة إسماعيل أدهم الذي يزعم أنّه حصل على البكالوريا من جامعة إسطنبول بينما يدعي الكاتب محمود أحمد البطة أنه قابله وهو طالبٌ بالثانوية التجارية بالإسكندرية في سن السابعة عشرة[١]؟! كيف يلغي من ذاكرة البطة هذا اللقاء؟! إلى متى سيصدقون أني حاصل على دكتوراة في الفلسفة ودكتوراة في الفيزياء النظرية ودكتوراة في الآداب من جامعة موسكو؟! هل سيكتشفون أني لم أكن يومًا أستاذًا مساعدًا

(١) وحي الأيام (٢/٢٥٨) بواسطة ورقة بحثية للمستشرق جاوتييه ينبول بعنوان (إسماعيل أدهم الملحد).

Juynboll GHA. Ismâîl A,mad Adham (1911-1940), the Atheist. Journal of Arabic Literature, Vol. 3 (1972), pp. 54-71

للطبيعيات النظرية بجامعة موسكو أو أستاذًا للرياضيات البحتة بجامعة سان بطسبرج أو أستاذًا للرياضيات العليا بمعهد كمال أتاتورك للبحث العلمي بتركيا أو عضوًا بالأكاديمية الروسية للعلوم؟!

هل سيعرف الناس أن المستشرق بارتولد لم يثنِ على كتاب إسماعيل أدهم عن تاريخ الإسلام لأنّ بارتولد مات قبل أن يسافر أدهم إلى روسيا ويكتب شيئًا[1]؟! هل سيعلم الناس أن المستشرق كازميرسكي لم يعجبه كتابي «تاريخ الإسلام» لأنّه مات قبل أن يولد إسماعيل أدهم أصلًا[2]؟! هل سيظل الأصدقاء يطلبون نسخة من كتاب «تاريخ الإسلام» وأنا أعدُهم وأمنّيهم هربًا منهم لأنّي لم أؤلف كتابًا بهذا الاسم يومًا؟! هل صدّق الأصحاب أن جامعة فوربوج الألمانية عهدت لي بتحقيق كتاب المستشرق سبرنجر عن

---

(١) ينقل الكيالي عن إسماعيل أدهم أن المستشرق بارتولد مدح كتابه «تاريخ الإسلام» الذي يقع في ست مجلدات ـ بزعم إسماعيل أدهم ـ بقوله: «مباحثه في حياة الرسول من خير ما كتب الباحثون» (الراحلون: ٩٧)، ولكنّ إسماعيل أدهم يقول: «غادرتُ تركيا في بعثةٍ لروسيا عام ١٩٣١م» (الراحلون: ٨٢)، وقد مات المستشرق بارتولد سنة ١٩٣٠م وعمر إسماعيل أدهم تسعة عشر سنة قبل أن يتخرج من كلية العلوم التركية ويسافر لروسيا ويكتب شيئًا.

(٢) نقل الكيالي عن إسماعيل أدهم أن المستشرق كازميرسكي مدحه بقوله: «إنّ أبحاثه عن الرسول من أدّق الأبحاث وأطلاها» (الراحلون: ٩٧)، وعلّق المستشرق جاوتييه ينبول في بحثه المشار إليه آنفًا في التعليقات أنّه لا وجود لمستشرق بهذا الاسم، والصواب أنّ ألبير كازميرسكي مستشرق تخرج من برلين واستقر في فرنسا وتوفي سنة ١٨٨٧م (المستشرقون، نجيب العقيقي، ٣/ ٨٢٤)، أي أنّه توفي قبل أن يولد إسماعيل أدهم بأربعٍ وعشرين سنة.

حياة النبي محمد؟! وماذا لو ألح أحدهم في طلب نسخة من هذا التحقيق الذي لم أقم به أبدًا[1]؟! ماذا لو علم أحدهم أني لا أجيد ست لغات وليس لي منشوراتٌ علميةٌ باللغة الألمانية أو الروسية؟! ماذا لو بحث أحدهم فلم يجد لي شيئًا ثم جاء يسألني عن حقيقة ذلك[2]؟! ما العمل لو وقف أحد الباحثين على ما أقرؤه بالتركية ثم أكتبه بالعربية ناسبًا إيّاه لنفسي؟! ماذا لو عرفني

---

(١) يقول سامي الكيالي في عدم ظفره بالكتاب من إسماعيل أدهم رغم وعده له بموافاته بها: «إنني لم أطّلع على هذا الكتاب، فقد وعدني الفقيد أن يوافيني به عقب عودته إلى إسطانبول، ثم كتب إلى زميله كوبريلي زاده محمد فؤاد بك مدرس الإلهيات في جامعة إسطانبول أن يخصني بنسخةٍ منه، ولتاريخه لم أظفر به ولم يقدّر لي أن أطالعه» (الراحلون: ٩٤)، ويقول عن كتابه عن تاريخ الإسلام: «ولا نعلم ماذا فعل الله بهذا الكتاب، وهل أصبح في حوزة شقيقه أم ضاع مع بقية آثاره، وهل سيُتاح له أن يُنشر يومًا ويتنسم أريج الحياة أم قدّر له أن يُطوى ويبتلعه الزمن» (الراحلون: ٩٧ ـ ٩٨)، وينقل عن أبي شادي نكبته: «بضياع آثاره ـ أي إسماعيل أدهم ـ المخطوطة ومكتبته الزاخرة كذلك، إذ إن جميعها كما أخبرت كان قد وزعه ما بين هدايا أمانات لدى نفرٍ من رجال الكتب من باعةٍ وغيرهم... ولكن ضوضاء الحرب ساعدت على ضياعها جميعها، وأنكر من ظنّت لديهم أنّها عندهم» (الراحلون: ١٠٣)، ونقل عن أخيه إبراهيم أدهم قوله عن الكتب أنّها: «في حكم المفقودة» (الراحلون: ١٠٣)، هذا ولم يخطر في بالهم أنّ هذه الكتب والآثار التي لم يروها يومًا ولم تُنشر ولم يعثر عليها بعد وفاته وأنكرها من ظنت أنّها عندهم، لم يخطر في بالهم أنّها من اختراع إسماعيل أدهم وكذبه وأنّه لا وجود لها أصلًا!!

(٢) لا يُعلم لإسماعيل أدهم أية أبحاث بأيّ من اللغات الست التي يزعم إتقانها والتأليف بها، سوى منشوراتٍ قليلةٍ له بالعربية والتركية، وقد بين بشر فارس ذلك في عدة مواقف منها قوله: «المقتبِس ـ أي إسماعيل أدهم ـ لا يعرف من الفرنسية إلا الشيء القليل كما بينتُ في الرسالة رقم ٣١٤، والمقتطف أغسطس ١٩٣٩» (الرسالة: ١٩٩٣، عدد ٢٥ سبتمبر، مقالة: عودة إلى اقتباس الكتّاب، صفحة ١٨٨١).

الناس كما وصفني بشر فارس بقوله إنّي «منتحل فج»[١]؟!

يسري مختبئًا في سواد معطفه، مثقلةٌ قدميه كعجوزٍ يمشي في الطين، يغزوه العجز كأنّه ميتٌ محسوبٌ على الأحياء، وتحيط به خطاياه كأنّما عُمِّر في الآثام ألفَ عام، تتمثّل له الفضيحة، ويتصور النبأ يُذاع، ويتهامس القوم بخبره، ويضمحل في التاريخ شأنه، ويخوض في لُجّة الصَّغار، ويهوي سريعًا كأنّ الدنيا قد خُلقت لإذلاله!

وما حال رجلٍ استبدت بكيانه رغبة الانتقام، وتغلغل في بنيانه هوس الثأر؟! ما حاله إن كان خصمه يقهره ويُعجزه ويُعييه؟! ما أبأسَ حالِه من رجلٍ يأتيه بؤسه من نفسه قبل أن يأتيه من خصمه! يقول إسماعيل أدهم ـ بعد وصفِ غُبّارات من طفولته ـ إنّه خرج منها «ساخطًا على القرآن لأنه كلفني جهدًا كبيرًا كنت في حاجةٍ إلى صرفه إلى ما هو أحب إلى نفسي، وكان ذلك من أسباب التمهيد لثورةٍ نفسيةٍ على الإسلام وتعاليمه»[٢]! يقول ذلك.. يقول ذلك لأنّه كان يصوم ويصلي ويحفظ القرآن وهذا ـ

---

(١) ألمح بشر فارس إلى انتحال إسماعيل أدهم بقوله «وكأني بالدكتور أدهم اقتبس مني هذا التعبير.. دون أن يحسن استعماله في مجرى حديثه» (الرسالة: ١٩٩٣، عدد ١٢ يونيو، مقالة: في النقد الأدبي، صفحة ١١٧٦ ـ ١١٧٧)، ثم في مقالة له تحت عنوان (عودة إلى اقتباس الكتّاب) قال: «أخذت على الأستاذ إسماعيل أحمد أدهم اقتباسه لبعض ما جرى على قلمي في حديث الرمزية معنى ومبنى، وقد تعذّر على المقتبِس أن ينكر ذلك... والحق أنّ الأستاذ أدهم يقتبس المعنى فضلًا عن المبنى... ومن مقتبساته الأخيرة أنّه أغار على نقدى لكتاب صديقي محمود تيمور وعنوانه الفرعون الصغير.. على أنّ فطنة المقتبِس حدثته أن يبدَل من الأصل فمسخه» (الرسالة: ١٩٩٣، عدد ٢٥ سبتمبر، مقالة: عودة إلى اقتباس الكتّاب، صفحة ١٨٨٠).

(٢) من رسالته «لماذا أنا ملحد؟»

بزعمه ـ أثقلَ كاهله، فأخرجه ساخطًا! وقد كان «دخيلًا على العربية أجنبيًّا عنها»[1] يتظاهر بالقدرة على نقد الإسلام وتفنيده، ثم يخلو بنفسه فلا يبقى له إلا حقيقته مجردة، وعجزه جليًّا، وقد ملّ من المحاولة، فيمسي ساخطًا! وهكذا.. يسخط طفلًا وشابًّا! ويعجز متعلِّمًا ومتعالمًا!

يسري مختبئًا في سواد معطفه، يهيج خاطره من أثر «الثورة النفسية»، فيقعد به عجزه وعُجمته، وتراوده دعاوى العلم والمعرفة، فيحجزه علمه بحقيقة تعالمه، ولذا يكتفي بأن يكون انتقاده ترديدًا، وكفره تقليدًا، فلا يطمئن قلبه مؤمنًا ولا كافرًا، ولا ترضى نفسه مسلمًا ولا مرتدًا، تتملكه السآمة في شأنِه كله، ويجزم أنّ السعادة لم تُكتب له أبدًا!

وأشد الناس ندمًا رجلٌ أدرك عاقبةَ كفرانِه بعد أن جاءه الموت، ثم رجلٌ أدرك خسّةَ عقوقِه بعد أن حضر والديه الموت، وقد كان إسماعيل أدهم ساخطًا على أبيه ـ كسخطه على القرآن ـ فيقول في حقّ أبيه إنه كان «من المتعصبين للإسلام والمسلمين»، في حين يصف أمه ـ رغم أنها ماتت وعمره سنتان!! ـ بقوله إنها كانت «ذات ميل لحرية الفكر والتفكير»! ويزيد سخطه على أبيه فيراه «لا يعترف لي بحق تفكيري»، ويرى أن أباه يحاول أن «يقطع عليه أسباب المطالعة»، وقد ثار على أبيه ورفض الصلاة قائلًا «أنا لست بمؤمن، أنا داروينى أؤمن بالنشوء والارتقاء»[2]!

---

(١) الراحلون لسامي الكيالي، صفحة ١٠٦.

(٢) من رسالته «لماذا أنا ملحد» ومن كتاب الراحلون لسامي الكيالي (صفحة ٧٨ إلى ٨١).

يسري مختبئًا في سواد معطفه، يغض بصره عن مشهد كلّ طفلٍ يلاعبه أبوه، كما يغضُّ صاحب النُّسك بصره عن محارم الله، يغتصُّ بذكرى الوالد، فيرى نفسه مظلومًا وظالمًا، بريئًا ومُذنبًا، ضحيةً ومجرمًا، ثم يمعن النظر، ويُرجِع البصر، ليرى أنه قد عاند في الطاعة، ولم يُحسن فهم المراد، وبالغ في ردة الفعل، وتعجّل المواجهة، وأعلن الخصومة، وما راعي للوالد حرمة، ولا أظهر لسابق الفضل امتنانًا، فأبعد في العقوق، والآن يملؤه الندم، ولو قيل له لك دعوةٌ مستجابة فتخيّر، لاختار الدعاء بأن يسامحه والده!

وما إسماعيل أدهم إذًا؟! هو رجلٌ عُمّر في الأرض تسعة وعشرين سنة، أمضى ثلثها الأول ساخطًا متسخطًا، وثلثها الثاني قضاه مجهولًا لا يؤبه له، ثم ملأ ثلثها الأخير بالكذب، وكأنّ هذه الحياة على هذه الصفة متلازمةٌ مرضيّةٌ تصاحب كل ملحدٍ من أصلٍ مسلم، متلازمةٌ تنتهي بوقفةٍ مع النفس يصعب دفع ثمنها، أو بخشية فضيحةٍ تبدّد أي ذروٍ من رغبة في الحياة بعدُ، وهكذا تنقلب الحياة كئيبةً لا يُرى منها إلا مشهدُ طريقٍ مسدود، وأثرُ ذكرى حزينة، وابتسامةٌ لم تكتمل!

يسري مختبئًا في سواد معطفه، يتفكر في شأن هذا الجسد فلا يراه إلا محبسًا، يخنقه ضِيقًا، ويتخلل أنفاسه ضنكًا. يُبغض في نفسه ضعفها، وفي طبيعته قصورها، وفي علمه محدوديته، وإن شئت قلتَ إنّه إنسانٌ أبغض خصائص إنسانيته. يتحسس تلك الورقة وقد خطّ فيها أصدق ما قاله يومًا، لقد أخبرهم أنّه ملّ الدنيا وكره الحياة، وأوصاهم بحرق هذا الجسد الذي طالما أنهكه، وألا يُدفن في مقابر المسلمين. يدسُّ الورقة في

المعطف.. يخلع معطفه.. يقفز في اليم.. متخلصًا من هذه الروح التي طالما أشقاها، وألهمها فجورها ودساها... إن إسماعيل أدهم لم يكن صادقًا بشأن نسبه وتعلّمه، ولم يحصّل الشهادات التي ادّعاها، ولا كتب المقالات التي انتحلها، ولا شعر بالطمأنينة التي تظاهر بها، ولكنه صدق مع نفسه في شيءٍ واحدٍ. صدق مع نفسه في إلحاده.. ولهذا انتحر!![1]

---

(١) وهذه هي حقيقة إلحاد إسماعيل أدهم من خلال الاطلاع على دعاويه وحقيقة منجزاته، فهو ليس إلا مدّعٍ متعالم، وهذه الرؤية لم ينشرها أحد ممن تناول حياة إسماعيل أدهم فيما علمت إلّا المستشرق الأسباني جاوتييه ينبول (١٩٣٥ ـ ٢٠١٠م) في ورقةٍ له بالإنجليزية بعنوان «إسماعيل أدهم الملحد» سبقت الإشارة إليها، وقد صدّق الزركلي في الأعلام على كونه من أصحاب الدكتوراة والعلوم الطبيعية (الأعلام ١/ ٣١٠)، وفي نفس السياق فقد جعله الشيخ سليمان الخراشي نموذجًا لمن ألحد بسبب الاغترار بذكائه وموهبته (نظرة شرعية في فكرٍ منحرف ٢: ٨٦٣ ـ ٨٧٢)، وكذلك تناوله الدكتور إبراهيم عوض في ورقات له عنوانها (إسماعيل أدهم، ذلك المغرور المنتحر! وقفة مع كتابه: «لماذا أنا ملحد؟»)، وقد مسّ الدكتور إبراهيم عوض شيئًا من حقيقة ادعاءات إسماعيل أدهم الكاذبة، فعلّق على ثنائه على تفكير أمّه بقوله: «ترى بالله كيف عرف أنها كذلك، وقد ماتت وهو فى الثانية؟ أم تراه يزعم أنه كان من الوعى والعبقرية بحيث كان يستطيع، فى هذه السن التى لا يفهم الإنسان فيها شيئا أكثر من حاجته للطعام والشراب والسرور بالمناغاة والتدليل وما إلى ذلك، أن يدرك سعة أفق أمه وحريتها الفكرية؟»، ويقول تعليقًا على ذكره لتشدد عمّه: «كذلك لا يدخل العقلَ أن يكون زوجُ العمة بهذا التشدد ثم لا يلحظ أن «المحفَّظ» الصغير يذهب كل أحد إلى الكنيسة، ومع أختيه أيضًا! يا سلام على هذا التعصب والتشدد! إن هذا معناه أن الرجل أبله ونائم على أذنيه ولا يدرى كُوعَه من بُوعِه!»، ولو أنّ الدكتور الفاضل سار على ذات الطريقة من التشكك فيما يدّعيه إسماعيل أدهم من حيازة الدرجات العلمية وكتابة المؤلفات والمقالات بشتى اللغات لوصل بالتأكيد إلى أن إسماعيل أدهم ليس إلا صاحب دعوى كاذبة، ولأظهر للناس حقيقة تعالمه.

يا ربيع.. قد رجعت!

«لم يقل أحدٌ قط على فراش الموت: ليتني قضيتُ المزيد من الوقت في المكتب!»

ديفيد روبرتس[1]

لقد أجمع أهلُ البحث والتحقيق في شأن التحقيق مع المشتبه بهم في الجرائم، أن مواجهة المشتبه به بالأدلة ـ ولو كانت مختلَقة ـ يساعد في انتزاع اعترافه بالجُرم، حتى أنّ غالبية الاستجوابات الناجحة ـ تسعين بالمائة تقريبًا ـ يكون سببها صدمة المتهم[2]، صدمتُه بالأدلة التي تدينه وتثبت تورطه، صدمةً تجعله يذهل عن ملام الناس وخشية ضياع العمر، فيزول التكلّف والتنطع والكذب والادعاء، وتنساب منه الحقيقة كجريان الدمع من العين الحارّة، هكذا.. فكيف لو واجهتَ صدمةً تُدهشك فتذهل عن الناس وتنسى أيام العمر؟! بماذا تعترف؟!

من المعروف في الوسط الطبي أنّ شرارة الصدمة مع

---

(١) David Roberts (1968): The Mountain of My Fear.

(٢) Gudjonsson GH (2003). The psychology of interrogations and confessions: A handbook. Wiley Series in the Psychology of Crime, Policing and Law. P: 32.

المعضلات الإنسانية، والدخان الصاعد تحت رحى الاختلاط بأنين المرضى، والشعلة المتولدة من مطالعة مشاهد الاحتضار والموت، كلّ ذلك يُشعل في قلوب أغلب الأطباء المبتدئين انكسارًا ورهبة، يعقبُه زهدٌ في لذّات الدنيا لمعاينة هوانها، ويورث الكثير منهم تديّنًا والتزامًا بالطاعة، ثمّ يتوارد عليهم إِلف المشهود واعتياد المعهود، فينقلب الحال حتى يصل إلى التضاحك والأكل بجوار الجثث في المشرحة، أو الفرح بموت إحدى الحالات الحرجة في العناية المركزة حتى تتيسر فرصة للغداء في المنزل!

«إرنست بيكر» هو عالم أمريكي في الأنثروبولوجيا أو علم الإنسانيات، أصيب بسرطان القولون ومات به سنة ١٩٧٤م، وفي أثناء مرضه صنّف كتابه «إنكار الموت» The Denial Of Death، يودع فيه كثيرًا من فلسفته في الاجتماع وعلم النفس، يقرر فيه أنّ «جوهر الإنسان في طبيعته المتناقضة، في حقيقة أنّ نصفه حيوانيّ ونصفه رمزيّ»، وأنّه يشارك سائر الحيوان في غريزة حب البقاء، ثم يمتاز عنه بالذكاء اللازم لإدراكه حتمية موته، ويرى أن الحضارة والثقافة والعنف وجميع منتجات العقل البشري ـ النصف الرمزي ـ هي محاولةٌ دفاعيةٌ من الإنسان لمواجهة خوفه من الموت!

مات «إرنست بيكر» سنة ١٩٧٤م، وحصل كتابه على جائزة بوليتزر بعد وفاته بشهرين، وقامت جمعية باسم «بيكر» تنادي بمبادئه، كان مما ساهمت به في نشر أفكارها فيلما وثائقيًّا مثيرًا

للجدل بعنوان «الهروب من الموت» Flight From Death، وكذلك قامت ـ على أفكار بيكر ـ نظرية معالجة الخوف Terror Management Theory كإحدى نظريات علم النفس الاجتماعي(١)، التي تفسر سلوك الإنسان وتصرفاته من خلال شعورٍ واحد هو: الخوف من الموت!

وكأنّ الموتَ له حِمًى مُمَغنطٌ بجاذبيةٍ خاصّة، تصيب المقترب بحالةٍ تشبه الجذب الصوفي، فلا يغادر الحمى إلا متصورًا ذاته تعالج سكرات الموت، وكأنّه يحيا هذه اللحظات لا يموتها، فالدنيا آذنت بصُرم، والذكرى خلت إلا من جُرم، وتداعت الأحداث إلى الذهن كما يتداعى الآكِل النهم إلى طعامه، ويخنقه الفكر بالمجهول كالكابوس الجاثم، ثمّ يغادر الحمى بوجهٍ غير الذي دخلَ به، ويخرج بنفسٍ غير نفسه قبل الدخول، ثم يغترب؛ فيضيع الأثر!

ولنذهب وراء الاقتراب من الحمى إلى مواقعته والخوض فيه، ولننظر في شأن الإنسان الذي يقترب من موته، ولنأخذ مثالًا من دراسة جورج لفنشتاين لسلوك متسلقي الجبال، أولئك المراهنون بأرواحهم على طاولة المغامرة، المتأرجحون فوق الخط الفاصل بين الحياة والموت، وجدَ لفنشتاين أنّ السمت العام لنظرتهم للحياة ينتظم في خط الروحانية، يضمحل اهتمامهم

(١) Pyszczynski T, Solomon S, Greenberg J (1997). Why do we need what we need? A terror management perspective on the roots of human social motivation. Psychology Inquiry 8:1-20.

بالتقدم المهني والغِنى المادي، ويشعرون بأهمية وجودهم ومعناه، ويعظُم في أعينهم شأن العلاقات الإنسانية، حتى تساءل لفنشتاين: «أولًا ما الذي يجعل الاقتراب من الموت يُنتِج هذا التغير في المفهوم؟! ثمّ ثانيًا لماذا تكون الأفكار المكتسبة في الغالب الأعم متطابقة؟! لماذا لا يكون منهم ـ أي من متسلقي الجبال ـ من يدرك أنّ عليهم الاجتهاد في الترقي المهني قبل مغادرتهم الأرض؟! وأخيرًا هل هذه الأولويات الجديدة أحقّ بالتقدم على الأولويات القديمة؟»[١]!

ثمّ إذا فرغتَ من النظر في شأن الإنسان صحيحًا على حافة الموت، انظر إليه مريضًا في طريقه إلى الموت، انظر إليه مصابًا بمرضٍ لا يُرجى منه برؤٌ كالسرطان، أو مبتلى بمرحلةٍ متأخرةٍ من المرض كفشل وظائف الأعضاء الحيوية كالكبد والكلى، انظر إليهم من خلال نظر الباحثين في علمي النفس والاجتماع[٢]، كي تكون علميًا بعيدًا عن العاطفة والإطلاقات غير المنضبطة، ستجد أن كافة الأبحاث المنشورة في هذا الشأن، شأن الغاية من الحياة

---

(١) Loewenstein G. Because it is there: The challenge of mountaineering for utility theory. KYKLOS: International Review for Social Sciences 1999; 52: 315-344.

(٢) هذه أمثلة لبعض هذه الأبحاث:

- Lapierre S, Bouffard L, Bastin E, Dubé L (2001). Aspirations and well-being in old age. In: Schmuck P, Sheldon KM (eds) Towards a positive psychology of human striving. Hogrefe & Huber, Ashland OH. pp 102-115.

- Pinquart M, Silbereisen RK, Frohlich C. Life goals and purpose in life in cancer patients. Support Care Cancer 2009; 17:253-259.

- Lapierre S, Bouffard L, Bastin E. Personal goals and subjective well-being in later life. Int J Aging Hum Dev 1997; 45:287-303.

- Thompson SC, Pitts J. Factors relating to a person's ability to find meaning after a diagnosis of cancer. J Psychosoc Oncol 11 1993; 3:1-21.

ومعناها في أنظار هؤلاء المرضى، تقرر أنّهم لا يهتمون بالشهرة والمال وغيرها من الماديات، وإنما ينصب اهتمامهم على الأهداف السامية المتعلقة بالمعرفة والتدين، والأهداف الاجتماعية المتعلقة بزيادة ارتباطهم بمن حولهم والمساعدة في تطوير المجتمع الذي ينتمون إليه، بل وُجد أنّه كلما زادت مدة المرض، واقترب الإنسان من خط النهاية، خفتَ ضوءُ الماديات حتى يخبو ويزول، وتوهّجَ نورُ المعاني والعلاقات الإنسانية حتى يُشرق به القلب ويسعد(١)!

بل قد يحرق لهيبُ الموت كافة أغشية العُجب والكبر، فيبلغ بالنفس درجةً من الشفافية والحياد التام، حتى يترك المرء ما يريبه إلى ما لا يُريبه، ويستفتي قلبه فيسمع له ويجيبه، ويبحث عن راحة البال، ولا يُبالي بقيل وقال، وصولًا لحالةٍ نفسية تعتنق الحقيقة ولا يمنعها إلا قلةُ العلم، وهكذا تكرارًا. . تكرارًا يجعلنا نألف مشهد التحول العقدي قُبيل الموت Deathbed Conversion، نألفه ونتفهمه لإحساسنا بما قد يفعله الموت بمن يقترب منه، فتُختلق ـ أحيانًا ـ «حكاية التوبة» اعتمادًا على ذلك «الإلف والتفهم» تبييضًا لوجه من لم يتُب، وترد ـ كثيرًا ـ في التاريخ حكاية هذه التوبة التي تسبق الموت. . هل تعلم أن الكاتبة كارن إدمستن ـ الملحدة سابقًا الكاثوليكية حاليًا ـ جمعت قصص ثلاثة عشر متحولًا قُبيل الموت في كتابٍ شمل في ثناياه قصة الجراح

(١) Cordova MJ, Cunningham LL, Carlson CR, Andrykowski MA. Posttraumatic growth following breast cancer: a controlled comparison study. Health Psych 2001; 20:176-185.

الملحد أليكسس كاريل والأديب الملحد أوسكار وايلد[1]؟!

وبعدُ.. فأرجو ألّا تُحدثني بعد ذلك عن أنّ التفكيرَ في الدار الآخرة علامةٌ مَرَضِية! لا تزعم أنك لم تفكّر في لحظة الاحتضار ولم تبالِ بها ولم تؤرق لك مضجعًا!! لا تتوقع مني أن أصدق أنّ ذكرى الموت لا تصيبك بقشعريرةٍ وانقباض!! ألا تشعر أنك سيصدق فيك الخطاب ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ [ق: ١٩]؟ ألم تستعذ بكبريائك وغفلتك من هذه الأفكار عشرات المرات حتى تحيد؟! أتنكر ذلك الحنين إلى الاطمئنان بالإيمان الذي يغزو قلبك عندما تستحكم حلقاتُ المِحن؟! ألا يصدق فيك القول: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزمر: ٨]؟! ألا تؤلمك تلك الغُربة بين نِصفيْك؟!

يقول صاحب الظلال: «فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجًا إلا الله، يدعوه ليكشف عنه الضرَّ والسوء، ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأسناد، وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردًا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص، لا قُوته ولا قوة في الأرض تنجده، وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلّى، وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولّى.. في هذه

(١) Karen Edmisten (2013). Deathbed Conversions: Finding Faith at the Finish Line.

اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، هو وحده دون سواه، يجيبه ويكشف عنه السوء، ويرده إلى الأمن والسلامة، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق»[1].

ذكروا أنّ الربيع بن خثيم كان قد حفر في بيته قبرًا، فإذا وجد في نفسه جفوةً وقسوة، ذهب فاضطجع في القبر، ومكث فيه ما شاء، ليشعر أنّه في عالم البرزخ، حتى يقول: «رب ارجعون! رب ارجعون! لعلي أعمل صالحًا فيما تركت!».. ثم يخرج ويقول: «يا ربيع قد رجعت! قد رجعت!»[2].

فكيف لو كنتَ أنت مكان الربيع.. دون رجوع؟!

---

(١) في ظلال القرآن (سورة النمل: ٦٢).

(٢) جمل من أنساب الأشراف للبلاذري، دار الفكر، (١١/٣١١ ـ ٣١٢).

رأيتُ الموت!

رأيتُه.. فزاغت العين كأنّها عورةٌ تسعى لتستتر، واضطرب القلب كذبيحٍ يُزلزله الألم، وانقلب الناس أطيافَ أشباح، كأنّهم هم الذين يموتون، وصار الكلامُ صوتًا بلا معنى، والمعنى كلامًا بلا صوت، أعقلُ ما لا أسمع، وأسمعُ ما لا أعقل، واحتد البصر، وانكشف الغطاء، ينطفئ لمع السراب، ويبطل الانخداع بالوهم، وتتشابك الأفكار، وتتلاحق السّكرات، فلا تدري أين تذهب، ولا كيف تسأل، رأيتُه.. فازدحمت العبرات، واختنقت الصرخات، كمن وقعَ من شفا جرفٍ هار، ولا تفصله إلا ثوانٍ عن لحظة الارتطام!

لا يواسيني وصفهم إيّاه! قالوا «ارتاح» نظرًا لما قبله، وقالوا: «حسن خاتمة» عبرةً بما بعده، لا يواسيني هذا الوصف.. مات!.. كم طوت هذه الكلمةُ من كلمات! كلمة مُلغزةٌ ثلاثية الحروف، جمعت في طيّاتها أطراف الحياة، وتراكم خلف حدودها طوفانٌ من المشاعر، وغلا في ثناياها بركانُ

التساؤلات، رأيتُه. . فاختصرَ مسائل الكون وأسئلة الوجود في مشهد، تتلاطم فيه أحزان الماضي بتخوفات المستقبل، فكيف يطيق العقل البشري هذه اللحظة؟! كيف يطيق؟!

في البداية. . راودتني أمنيات النجاة، تغذوها ذكرياتي السابقة، وتجارب الأصدقاء، حتمًا سأنجو! ليس لشيءٍ إلا لأنّ هذه طبيعة الأشياء! المصائب تحدث مع الآخرين، أما معي فأنجو منها لأحكي قصة النجاة! هذا اليأس الذي يراودني ـ هو الآخر! ـ سيكون شيّقًا وقت الحكاية، بل هو ـ بحكم القياس ـ الأساس في حبكة الرواية. . رأيتُه. . فانتهت المراودات!

رأيتُه. . فاستحضرتُ مأثوراتٍ حفظتُها، وكلماتٍ استظهرتُها، ومجالسَ قتلتُ فيها فضولًا، وكتبًا ركنتُ لمعانيها طويلًا، فلم تنفع، وناديتُ فلم أُسمِع! رأيتُه. . فلم تغنِ مُدارسة المذاهب، ولا نفعني تفريع المباحث، ولم تُفد شيئًا كثرةُ الأسفار، رأيتُه. . فلعنتُ تفلسفًا لا يربط على قلبي، وافتقدتُ خُلقًا لا أملك به زمام نفسي، ولم تنفعني أماني الأصدقاء! رأيته. . فثَقُل لساني وهو فصيح، وخارت قواي وأنا صبور، وضاق صدري حتى اختلفت الأضلاع!

قالوا: «فضح الموتُ الدنيا». . بل فضحتهُ دنيا البشر! فقد كان ينبغي لمثله أن يكون كالسيد المطاع، وأن يكون بوصلة النظر وقبلة الأفكار، لما عُرف به من صدق الوعد وطغيان الحضور، ولو أنّ راقصةً مغنيةً جذبت أنظار الحضور، وصرفتهم عن سيفٍ

مسلطٍ على رقابهم، لكانت الراقصة هي التي فضحت السيف.. رأيتُه.. رأيتُه فانتقم! هتك الزخارف التي تطرّفت بها الدنيا، ومزّق الوشي الذي تبرّجت به، فأمست حركاتها سكونًا، وبات الطمع فيها جنونًا، ولمعَ نصلُ السيف، واقشعرّت لمشهده الرقاب!

فضح الموتُ الدنيا.. فلم يُبقِ منها إلا على حسرةِ فراقٍ ولوعةِ مشتاق، ووصيةِ والدٍ ودموعِ مولود، وذِكرى تذهب وحكايةٍ تُنسى، وفراقٍ للأبد ولقاءٍ لن يقع، لم يُبقِ منها إلا على دهشةٍ وفجأة، وصرخةٍ وحُرقة، وغربةٍ وحسرة، وصبرٍ جميلٍ وحِملٍ ثقيل، فضح الموتُ الدنيا.. فطمس أثرها، وهدّ بنيانها، وسخّف من أمانيها، وصارت رسمًا على الهواء، ونحتًا بالحديد في الماء، فضحها فلم يعد يحضرني منها شيء، حتى كأنّي لم أحيَ فيها ساعة!

رأيتُه.. فكان ما لم أرجو! كنت أظنّ أنه سيكون لي خصوصيةٌ ما، لم تكن أكثر توقعاتي تشاؤمًا لتتصور هذه الحال، أقصى ما كنتُ أنتظره هو شعورٌ بعدم الاكتراث، ريثما تمضي السكرات ويُقال عني «مات»! كنتُ أتوقع الشعور بإثارةٍ تبعثُها في نفسي كلُّ تجربةٍ جديدة! لم أتصور أبدًا أنّ الجزع سيخترق نفسي، ويتملكني الهلع، وتتبدد نفسي حسرات، وتتخلى عني رباطة جأشي، ويخونني الحزم، ويقتلني الفضول لما هو آت، أبذل ما تبقى من نفسي؛ كي أكتفي بمعالجة هذه اللحظات القاتلة، وتأبى نفسي إلا أن تفرَقَ رُعبًا مما يكون بعد هذه اللحظات! تأبى إلا أن تسألني عن الزاد والقربان!!

آه لو علمتُ ما يلزم لهذه الساعة! لقد كان الأمر يستحق كلَّ دقيقة، ما أبأس تلك الابتسامات الواثقة! وما أسخف التصريحات بعدم الاهتمام! آه لو كانت لي كَرّةٌ أخرى! إذًا لبذلتُ كل عزيزٍ في استبيان الحجة، ولاسترخصت كل نفيسٍ في إعداد العدة، لن أرضى بظنٍ يُقارب اليقين، ولن أرضى إلا بعلمٍ جازم، آه لو كنتُ أعلم! لكانت هذه الساعة أحلى من زيارة مُغِب! ولكان الموت حبيبًا جاء على فاقة[1]! ولاستشعرت فيها أُنسًا كأُنسي ببراءة الأطفال، وحضارة الأندلس، وعيون الأفغان!

رأيتُه فارتعت لمرآه، واهتممت بشأنه.. واستغرقت في أمره، حتى غرقتُ بمعناه.. أعرستُ في مأتمه، وشِبتُ في ساعته.. حتى صغرت الدنيا، واحتجبت الذكرى.. وسرتُ في حِماه، حتى دُفِعتُ في بابه.. مشيتُ في دربه، ونوديتُ في ساحته.. اطلعتُ على سره، وهالني مطلعه.. وانكشفت حقيقته، فهانت في عينيّ حقيقتي، وأشفقت من بضاعتي، ويأستُ من النجاة.. أهذه نهاية أمري؟! أهكذا ينقطع ذكري؟! وامتلأت نفسي حسرة، وذاب قلبي ندمًا، وصرختُ طالبًا الرجوع، ساعةً واحدة.. ساعةً واحدة.. ساعةً...

---

(١) لما حضر معاذ بن جبل رضي الله عنه الموتُ قال: «مرحبًا بالموت، مرحبًا زائر مغب، حبيب جاء على فاقة، اللَّهُمَّ إنك تعلم أنّي كنتُ أخافك، فأنا اليوم أرجوك» (تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ـ دار الفكر: ٥٨: ٤٥٠).

فموْتٌ جميل!

«إلٰهي! ملجئي الدائم! علمنّي كيف أحيا!؟
أما كيف أموت؟ فأنا سأعرفه!»[١]

علي شريعتي

كان جورج لامسون في سن السابعة عشرة سنة ١٩٨٥م، وقتها ذهب مع أبيه على متن رحلة جوية من نيفادا إلى مينيابولس، ولسببٍ ما قام بتبديل المقاعد مع والده، قبل أن تتحطم الطائرة في نيفادا، ويموت كلّ من كان على متنها إلّا لامسون الابن.. نسخت هذه اللحظة ما سبق من عمر جورج، وغيّرت نظرته للحياة، فقد قطع على نفسه في لحظات الكارثة عهدًا مع الإلٰه، أنّه إن أنجاه من هذه ليعملنّ الخيرات وليساعدنّ الناس... وبعد ذلك بدأ جورج يتواصل مع من مرّوا بمثل تجربته، تجربة النجاة من حوادث الطائرات، معللًا ذلك بنظرته لحادث النجاة نظرةً على «درجةٍ عاليةٍ من الروحانية.. وأنّه يعتقد ألّا أحد مطلقًا يمكنّه أن يتفهم تلك المشاعر إلا من شاطره

(١) من رسالة لعلي شريعتي لطلابه من السجن.

التجربة»[١]. . أشد ما يستوقفني في هذه التجربة الثرية هو رغبة لامسون الأولى في النجاة وتجربة الموت مرةً أخرى!!

وكلّ هذا قد أتفهمه في حالة لامسون؛ فربما كان يريد الاستزادة من أعمال الخير؛ لأنّه يعتقد في حياةٍ بعد الموت وحسابًا في الآخرة. . لكنّي لا أدري لماذا يشعر ملحدٌ بالسعادة حين ينجو من الموت؟! ما سر الفرحة بخوض «نصف التجربة القاسية» مع يقينه أنّه سيخوضها ثانية؟! ما الفارق الذي ستحدثه أيامٌ تُضاف في حياته التي يعلم أنّها حتمًا ستنتهي؟! أليست الحسابات المادية لملحدٍ عانى شيئًا من هول الموت وألمه، تؤدي إلى أن مكسبه في أن تنتهي معاناته بموتةٍ واحدة؟! ما الذي يخافُه فيسعد لكونه لم يقابله؟! هل يستأخر موته طمعًا في الإعداد لموتٍ مثاليٍّ سعيد؟! لا أدري!

الملحد العجوز دانيال دانيت كان على وشك الموت نتيجة تسلخ الشريان الأبهر Dissecting aortic aneurysm، وعلى الفور تم نقله للمستشفى ولم يلبث أن تم إسعافه جراحيًّا، وبعد فترة حين سُئل عن تلك اللحظات ذكر أنّه يشعر بالامتنان، ويشكر الأطباء والممرضات الذين ساعدوه في تلك الأزمة[٢]. . ذلك

---

(١) القصة منقولة عن تقرير شبكة CNN الإخبارية عن جورج لامسون، وذلك في تقرير جماعي عن أربعةٍ ممن نجوا من حوادث الطائرات (الرابط الأول)، وتقريرٍ فرديٍّ عن لامسون وحده (الرابط الثاني):

http://edition.cnn.com/interactive/2014/01/world/sole-survivor/
http://edition.cnn.com/2014/01/08/opinion/sole-survivor-george-lamson/

(٢) في لقاءٍ مصوّرٍ معه تجده على هذا الرابط:

http://www.youtube.com/watch?v=0vHR35P5o4c

الامتنان يبعث في نفسي سؤالًا طرحه الفيلسوف الوجودي ألبير كامو على لسان إحدى شخصياته: «أيّ فرقٍ يصنعه أن يعيش عامين أو عشرين عامًا؟! إنّ السعادة تكمن في حقيقة أنّه قد وُجد في هذه الحياة»[(١)]!

كان ألبير كامو يرى أن أكثر صور الموت خزيًا تتمثل في موت طفل، بينا تقع أكثر صوره عبثيةً حين يموت المرءُ في حادث سيارة[(٢)]، ثم تدور الأيّام دورتها ويموت كامو في حادث سيارة، وكان من بين الأوراق التي وجدوها في حقيبته، تذكرة القطار الذي كان كامو ينوي أن يستقله في رحلته، ولكن عوضًا عن ذلك أقنعه صديقه مايكل جاليمار أن يصحبه في سيارته الجديدة الفارهة!! الحقيقة أنّ دور المرء في اختيار كيفية ووقت موته ـ دون انتحار ـ دورٌ معدوم؛ لا يبلغ دور كومبارس يظهر لُحَيظة ليُقتل في خضم المعركة!

«الموت السعيد». . كان هذا عنوان أول رواية كتبها كامو، ولكنها نُشِرت بعد موته بسنوات، يحكي الجزء الأول منها عن رجلٍ جزائري الأصل يعيش في كربٍ شديد، يفتقد السعادة ولم تفتح له الفرحة قطُّ بابها، رغم الإلحاح في الطَّرْق. . أخبره صاحب عمله ـ القعيد ـ عن أنّ السعادة في المال، فالمال يوفّر

---

(١) Alber Camus. Happy Death. P: 208.

(٢) ورد ذلك بصحيفة نيويورك تايمز في مقالها عن وفاة كامو، ثم في مقالة رأي بتاريخ ١٣ أغسطس ٢٠١١م، تناولت كلمة كامو وما تحتمله من معانٍ:
http://www.nytimes.com/2011/08/14/opinion/sunday/the-kgb-killed-camus-how-absurd.html?_r=0

لك الوقت لتمارس ما يجلب سعادتك، فقتلَه واستولى على ماله، وبحث عن السعادة في كل شيءٍ فلم يجدها، في السفر.. في النساء.. في العزلة.. في الطبيعة.. وما زال الباب مغلقًا والبحث ساريًا، حتى أدرك على فراش الموتِ أن السعادة تكمن في وجوده نفسه! بعد أن تقرأ الرواية تجد أنها تحاول البحث عن سعادة الحياة، ولا شأن لها مطلقًا بالموت السعيد، ومع قليلٍ من التأمل تجد أنّها طرحت المشكلة ولم تصل إلى الحل!

في يناير سنة ٢٠٠٠م، خصصت المجلة الطبية البريطانية ذات معامل التأثير العالي - الرابعة عالميا بين المجلات الطبية العامة سنة ٢٠١٣م - عددًا عن الموت الجيد[١]، نقل المحرر في الافتتاحية اثني عشر معيارًا للموت الجيد وفقًا لدراسةٍ علميةٍ سابقة[٢]، قامت هذه الدراسة على استبيان آراء الأطباء المتخصصين في العلاج الملطّف للمرض والمسكّن للألم، والذين يكثر اختلاطهم بالمرضى قُبيل الوفاة، وتلك المعايير هي:

- معرفة موعد الموت وفهم ما يُتوقع في أثنائه.
- القدرة على الاحتفاظ بالتحكم فيما يحدث أثناء الموت.
- التمتع بالكرامة والخصوصية.
- التحكم في تخفيف الألم وغيرها من الأعراض.

---

(١) Smith R. A good death. An important aim for health services and for us all. BMJ 2000; 320(7228): 129-130.

(٢) Debate of the Age Health and Care Study Group. The future of health and care of older people: the best is yet to come. London: Age Concern, 1999.

ـ التحكم والاختيار لمكان حدوث الموت «في البيت أو في مكانٍ آخر».

ـ الوصول للمعلومات والخبرات المطلوبة من أية نوع.

ـ الوصول للدعم الروحي والعاطفي المطلوب.

ـ الوصول للرعاية المطلوبة في أيّ مكان، وليس في المستشفى بحسب.

ـ التحكم فيمن يكون موجودًا وقت الموت ليشاركه الحدث.

ـ القدرة على إصدار توجيهاتٍ تضمن احترام أمنياته.

ـ توفر الوقت اللازم لوداع الآخرين وغيرها من الأمور التي يُراد فعلها قُبيل الموت.

ـ القدرة على إنهاء الحياة في الوقت المطلوب دون البقاء على قيد حياةٍ لا مغزى منها.

وأعود لأقرأ هذه المعايير مرةً بعد مرة! وتختلج في نفسي روافدُ من مشاعرَ شتى! فأدافع ابتسامةً يستحثها هذا الكلام العلمي! وأحجز دمعًا يستدره هذا الكلام المضحك! وقل ما شئتَ من أحاديث العجب! معرفة الموعد.. القدرة.. التحكم.. الوصول.. توفر الوقت! وكأنّها رحلةُ صيدٍ أو نزهةٌ بحرية! يا لهذا الكائن المغتّر! يا سيدي إنّ الموت يفجَؤُك بغتة! فتُذهلك الدهشة! وتُعجزك السَّكرة! ويضيع رشدك! ويتيه عقلك! وتتمنى.. تتمنى لو أنك ما عرفت الدنيا ولا عرفتك!

إنّ كل مقاربات الفلاسفة ودراسات العلماء للموت تنكسر على نفس الصخرة! إنّ هاهنا موضعٌ جمعت فيه الدنيا أطرافها وبثّت فيه الآخرةُ أخبارها! فمُنع الاقتراب وحَرُمت المناورة! والشأن ليس في كيف تموت بل كيف تحيا! فالحال عند الموت ليست إلا فهرسة لكتابِ الحياة، وسعادة المحتضَر ثمرةٌ لأعمال دنياه! وربّ ملكٍ مُتَنعمٍ يحسده كل من عرف شأنه، يتمنى وقت الموت لو كان شيئًا من حشيش الأرض وهوامها! وربّ أشعثَ أغبرَ مدفوعٍ بالأبواب، يأتيه الموت فيصير ملكًا متنعمًا يغبطه الناس لو عرفوا شأنه!

غادة!

هل رأيت الأعينَ النجلاءَ يتخللها رهق، والجبهةَ الزهراءَ يذويها شحوب، والأيدي الناعمةَ يُكَبِّلُها تعب، ونضارةَ البشرةِ يطمسُها ذبول، والحياءَ الملثّمَ يكشفُه ألم، والقدَّ الرشيقَ يأكلُه مرض، والغادةُ الحسناءُ تشكو من كَبَد، والنفسُ التواقةُ يقعد بها جسد؟!

كعادتها! ترنو «الذئبة الحمراء»[١] إلى القوارير، وكأنها تغار من رَبَّات الحسن، تترصد لهن لتصيبهن بضُرّ، حتى تهجمَ هجمةَ جبانٍ صادفه تمكين، فتُلْقِي بقتلاها عن شمالٍ ويمين!

أول ما رأيتُ (غادة) كانت في العناية المركزة، طريحةَ الفراش، تشكو إليّ حزنَ أمِّها، وتشكو أمُّها حالَ ابنتها، هي لا تعرف الكثير، ويقلقُها ما تعرفه، تذكر أنّ ابنتها تألمت فخضعت

(١) الذئبة الحمراء الجهازية: Systemic lupus erythematosus

مرضٌ مناعيٌّ ذاتيٌّ يهاجم فيه الجهاز المناعي أنسجةً وخلايا بالجسم محدثًا بها التهاباتٍ وتلف، وأغلب الإصابة به تكون في الفتيات والشابات.

لاستكشافٍ جراحي، لكنها لا تعلم لماذا يزداد الألم؟! أخبرها الجرّاح أنه وجد التهابًا حادًّا بالبنكرياس، ولا تفهم لم لا يُعالَج هذا الالتهاب بالجراحة؟ ترى الأنابيب الجراحية تخرج من بطن ابنتها، ولا تدري من أين تأتي بهذا السائل الذي لا يتوقف؟! تعرف أن ابنتها شُفيت من الذئبة الحمراء منذ ثلاث سنوات، فما معنى السؤال عن تاريخ ابنتي مع «الذئبة»؟! هل عادت «الذئبة» مرةً أخرى؟! هل هناك مشكلةٌ في الكُلَى؟! هل.. هل.. هل ستعيش ابنتي؟!

معضلةٌ طبية!! التمسنا في حلّها آراء المختصين في أمراض الكلى والمناعة، فهي ألصقُ باختصاصِهم، وأقربُ إلى مَحِلِّ اهتمامِهم، وقد استرعت فضولَهم، فطلبوا من أحد أطباء القسم أن يعدّ تقريرًا بالحالة، لكنّ «العنايةَ» عندنا أفضل، والإمكانياتِ أكثر، وردَّ الفعلِ أسرع... إذن فلتبق غادة تحت أعيننا، وليأتوا لمتابعتها معنا!!

«هل رأيتَ صورةَ فرحي»؟! يا الله!! أهذه منذ ستة أشهرٍ فقط؟! أرأيتَ قبلُ «موعظةً» من «صورة فرح»؟! أهكذا يكون ابن آدم حُسنًا يتألق، ونشاطًا يتفلت، وأملًا يمتد، فإذا به وقد أخذه المرضُ رهينةً، فلم يذر منه إلا بقيةً من روحِ دعابةٍ وذروًا من أملٍ متردد؟! كثيرًا ما كنت أدخل للمرور عليها؛ فتبادر بإخفاء الصورة ومداراة ابتسامة تداعب وجهها، أو تقطع حديثها مع الممرضات عن قصة زواجها، والصعوبات التي واجهتهم للحفاظ عليه!

هل سيفيد الكورتيزون؟! بالطبع! فالذئبة بالأساس مرضٌ مناعيٌّ تهاجم فيه المناعة أنسجة الجسم، والكورتيزون يثبط المناعة، حتمًا سيفيد!! لكن ماذا لو ضعفت المناعة فنشطت البكتريا؟! لو أصابت العدوى هذا البنكرياس الملتهب ستتدهور الحالة؟! وما أدراك أن التهاب البنكرياس ليس بسبب الذئبة؟! ولم لا يكون التهاب البنكرياس هو الذي أضعف الجسم فنشطت الذئبة؟! ألا ترى أن درجة الألم لا تتناسب مع التهاب البنكرياس؟! وأنت لا تستند في تشخيص الذئبة إلى أكثر من التاريخ المرضي.. الاستكشاف.. الأميليز.. الدلالات..

«كيف الحال يا هبة؟!».. أحيانًا أناديها بغيرِ اسمِها، خلطًا بينها وبين مريضةٍ أخرى، فتقابلني بعبوسٍ ولهجةٍ غاضبة.. «أنا اسمي غادة!».. تهتم بالأسماء هي! تسأل زميلي عن اسمه، «اسمي مينا!»، يكسو وجهها العجب، «لا!! لا يصح!! أنت اسمك محمد»!.. يُذكّرني منطقها بالطفولة! هذه الشفافية في رؤية الأشياء كما ينبغي لا كما تبدو، ومحاكمة الأمور إلى مُثُلٍ قائمةٍ لا تتأثر بالأعراف والأهواء!

بدأنا الكورتيزون، ولله الفضل أن أبدت تحسنًا، وله الحمد ظاهرًا وباطنًا، فالأنيميا تقل، وكرات الدم البيضاء تزداد، ودلالات نشاط الذئبة تقل، والحالة العامة أفضل، والإنزيمات التي نتابع بها التهاب البنكرياس في معدلها الطبيعي، ووظائف الكلى تتحسن.. الوضع في الجملة أحسن!

«زوجي يدعوك ـ وزملاءك ـ للغداء معنا بعد شفائي»!..
لسابق علمي بأنهم من أعيان قريتهم، وأنها وأخواتها يُجدن الطبخ كما حدثتني، فقد اشترطت عليها أن يكون الغداء ذا طبيعةٍ خاصة، مشتملًا على عدة أصنافٍ مما يشتهر به ريف مصر، فوافقت وأذكرتني صنوفًا أخرى لم أشترطها وتنوي إعدادها، فزدتُّ شرطًا ألا يزيد نصيب «مينا» عن قطعةً من الجبن الأبيض، فرفضت بضحكةٍ مرهقة!!

هذا هو اليوم الثاني من بدء الكورتيزون، الحالة العامة جيدة، والعلامات الحيوية مستقرة، والتحاليل عمومًا مبشرة، تستشعر أمها هذا التحسن، وغادة نفسها تشم نسمات العافية، بدأنا نفكر في نقلها من العناية إلى القسم الداخلي، ليمكن دخول الزيارة لها بصورةٍ أكبر، ولتزيد حركتها.. ولتقل.. ثم.. ثم حدث ما كنا نخشاه!

تعدني ألا تطلب مني السماح بالزيارة، مقابل أن أرفعَ قناعَ الأكسجين قليلًا عن أنفها، مضطرًّا أوافق! ثم يأتي التليفون من بوابة المشفى إلى «العناية»، إنه زوجها يستأذن في الزيارة، تخاطبني عينها.. «لكنها لن تدومَ أكثر من دقيقة واحدة»!.. باسمةً توافق!! أغبط قدرتها على التمتع بهذه المعطيات الصغيرة، لتنعكس في وجهها صورةً تامةً من السعادة البالغة، كمن يطمئن لجواب أسئلةٍ وجوديةٍ كبرى من مقدماتٍ بسيطة! أغبط هذه الفطرة التي ما زالت حاضرةً تصد عوادي اليأس ورياح القلق!

لماذا.. لماذا تنتكس مرةً أخرى؟! هكذا لم يبق إلا استعمال الأجسام المضادة وريديًّا لعلاج الذئبة، دواءٌ أثبت فاعلية، لكن العلاج به يتكلف آلاف الجنيهات! يسألني زوجها الشاب، فأخبره بالدواء الفعّال باهظ الثمن، تُسكته الحيرة، أشاركه الفكرة.. «قابلني بعد قليل، فربما استطعنا جلبها على نفقة المستشفى»!.. لماذا؟!! لماذا تنتكس!؟ أين ذهب العلم!! آلآن يعلن العجز؟! لن يقابلني بعد قليل.. االمرض يمتد سريعًا ليقضي على القلب والرئتين!! لا بد من التنفس الصناعي، فنسبة تشبع الدم بالأكسجين تتدهور!!

تتسارع الخطوات من حولها.. نقترب منها استعدادًا لوضع أنبوب التنفس الصناعي.. تعلو وجهها نظرة فزع من هذا التكالب المفاجئ.. وما تلبث أن تطمئن.. تشير بيدها تستمهلنا في كلمة.. كلمة..

«أنا آسفة لكم كلكم»!

تخنقني العَبْرة..

«لم الأسف؟! ستكونين بخير! قولي الحمد لله»!

«الحمد ..لله!! الحمد ..لله!! لا.. إلٰه.. إلا ..الله»!

لم تكن غادة من أصحاب المنجزات الضخمة، ولا كانت من صُويحبات الطموحات الأممية، لا تحكي أمها عن أي اهتمامٍ لها خارج المعتاد، لم تكن هناك صورًا معلقةً لمشاهير على جدران غرفتها، لم تذكر نشاطًا فعلته بالجامعة غير الدراسة..

كانت غادة امرأةً من فئام الناس! لا يستوقفك في سيرتها شيءٌ ذو بال! ولا يخطر ببالك يومًا أن يكون عندها ما تغبطها عليه وأنت الرجل العظيم! فضلًا عن أن تتخذها قدوةً وتضرب بها الأمثال! لكنّك ـ لو رأيتها ـ لسألتها عن سرّ هذا الرضا وراحة الضمير!؟ ولنذرتَ من عمرك ما يكفي لتحقيق أسباب الوصول لهذا الموت الجميل؟!

هل السر في الطمأنينة المتدفقة من الأمومة الجيّاشة وهذا البرّ الشديد؟! هل السر في الإخلاص السيّال من قلب رفيق الدرب!؟ لعله في تلك السعادة المنبعثة من ذكرى الزواج؟! أم تراه في الانسياق وراء تلك الفطرة الأصيلة دون التفات للوساوس والآراء؟! أو يكون في الأمل.. في الصبر.. في الامتنان.. في الرضا بتصريف أقدار الخلائق!! سأظل ـ وافيًا بالنذر ـ أسعى لتحصيل تلك الأسباب، مشفقًا على كآبة قلب من يُنكر هذه الأسرار!!

في رحاب الضنك!

«ألم يخطر لك يومًا أن تتساءل عن معنى حياتك؟
فضحك الدكتور عاليًا ثم قال: لا وقت عندي لذلك!»

الشحاذ.. نجيب محفوظ(١)

سمع الوالد الملحد طفلَه يدندن بصوتٍ منغّم مقطع، حاول أن يستبين الألفاظ دون جدوى، سأله بملامح يغزوها الفضول عما يقوله، فأجابه الطفل «حياتي كلُّها لله!».. وقعت الكلمة على الوالد كالقنبلة، فجّرت مخاوفه الكامنة، واعتمل في داخلِه غضبٌ يغلي، من الذي لقّن الطفل هذه الكلمات الجازمة؟! لقد أخبر المعلّمين في المدرسة الابتدائية أنّه لا يريد نقاش أية مسائل دينية مع الطفل، حرص تمام الحرص على قطع علاقته بكل المتدينين في عائلته، اختار شقةً بعيدة عن المساجد ليسكن فيها، زوجته بدورها ملحدةٌ متعصبة، فمن أين أتى الولد بهذه الدندنة؟!

سأله بحذر «أين سمعت هذه الكلمات يا آدم؟!»، فأجاب الولد بعفوية «من أصحابي!»، تغيّر وجه الوالد ولم يُطق أن يكظم

(١) نجيب محفوظ، رواية الشحاذ، مطبوعات مكتبة مصر، صفحة ١٠.

ما في داخله، فزفر زفرةً محرقة، وأدار وجهه ناحية اليمين، كحركة يفعلها لاإراديًّا وقت الغضب! سأل آدم «أبي! هل هناك مشكلة؟!»، أجابه باقتضاب وشفقة «هناك مشاكل!؟»، تغيرت نبرة الولد وبدأ بالدفاع عن نفسه وزملائه، قاطعه الوالد قائلًا «المشكلة في الكلام نفسه يا آدم! حياتك ليست لله يا آدم!».. ارتفع حاجبا آدم وهو يقول «فلأيّ شيءٍ هي؟!».. حملق الوالد طويلًا في عيني ابنه المعلقة بشفتيه، لأيّ شيءٍ هي؟! لأي شيءٍ هي؟!

من الأخبار الطريفة التي تداولتها وكالات الأنباء، أن الملحدين في الجيش الأمريكي يطالبون أن يكون لهم نصيبٌ من «سلاح الشؤون المعنوية»، يريدون المساواة بزملائهم المتدينين، فيكون لهم مرشدين أسوةً بقساوسة النصارى وأحبار اليهود، في لقاءٍ لصحيفة النيويورك تايمز مع أحد الملحدين في الجيش الأمريكي يقول: «إنّ الإنسانية بالنسبة للملحد لها نفس دور المسيحية بالنسبة للمسيحي واليهودية بالنسبة لليهودي، إنّها تجيب أسئلةً ذات أهميةٍ قصوى، وتوجّه قيمنا»(١)! أسئلةً ذات أهميةٍ قصوى!!

بعض رؤوس الإلحاد المعاصر يتخذ موقفًا رافضًا للأسئلة عن علة الوجود ومعنى الحياة وغايتها، ولذلك فكلامهم في جوابه وتناوله قليل، ريتشارد دوكنز ـ على سبيل المثال ـ يقول إن السؤال عن الغاية من الحياة غير مناسب بل يراه سخيفًا؛ لأنّ

---

(١) http://www.nytimes.com/2011/04/27/us/27atheists.html?pagewanted=all

معنى سؤال الغاية عنده هو معرفة ما يريده الصانع والمصمم من صنعته، فيصح أن تسأل عن الغاية من آلةٍ أو جهازٍ معين، تسأل مصممها وصانعها فيجيبك بالغاية، الجبل مثلًا لا معنى لأن تسأل عن الغاية من وجوده، كذلك الإنسان فإنّه ليس من صنعةِ أحد، وبالتالي لا معنى للسؤال عن الغاية من وجوده[1]، بمعنى أنّك لو كنت تعتقد أن للإنسان خالقًا، فيمكن معرفة الغاية من وجوده إن أخبرك بها خالقه، أمّا في حال إن كنتَ لا تعتقد بأن الإنسان مخلوق، فلا معنى لأن يكون لحياته غاية!

دانيال دينيت يرى أن السؤال عن الغاية من الحياة ليس إلّا نتيجة للطريقة التي تطوّر بها العقل البشري، في محاضرة له عن «تطور الغايات» "The evolution of purposes" يؤكد أنّ العقل والوعي والنية هي نتيجةٌ وليست سببًا[2]، وفي جواب سؤالٍ عن الغاية من الحياة يقول: «الكون بدأ بلا معنى، ولم يكن هناك غايةٌ من وجوده، وقد أمكن أن تبزغ الحياة، وقد كان، ونحن الذين نصنع المعنى ونهتم، نهتم لأنّ هذا جزءٌ من غرائزنا، جزءٌ من تركيبنا الحيوي، وبينا نحن نفكر ونتشارك ونهتم، تبدأ بعض الأمور تهمنا أكثر، وأي شيءٍ أكثر أهميةً مما يهمنا جميعًا، هذا

---

(١) محاضرة مصوّرة له بعنوان «الغاية من الغاية» "The purpose of the purpose" ألقاها في جامعة أوكلاهوما سنة ٢٠٠٩م، وهي موجودة على هذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=mT4EWCRfdUg

(٢) The Evolution of Purposes. Presented by Daniel Dennett. Carillo Gantner Theatre, Sidney Myer Asia Centre at the University of Melbourne on 15 November 2011.
https://www.youtube.com/watch?v=3L7uNyQL0H0

ما نحن عليه، ويمكننا أن نتقابل في استتكشافٍ عقليٍّ متبادلٍ ونقرر الأشياء المهمة»[1]!

هناك طريقةٌ أخرى غير طريقة الطعن في السؤال، وهي طريقة تغيير السؤال، فبدلًا من أن تجيب سؤال «لماذا» تغيّر السؤال إلى «كيف»، بدلًا من أن تجيب سؤال «لماذا وُجد العالم؟» تحاول إجابة سؤال «كيف وُجد العالم؟»، يقول دانيال دينيت: «إحدى الطرق لتخفيف القلق تجاه هذا اللغز هو بتغيير الموضوع قليلًا، فبدلًا من إجابة سؤال «لماذا؟» بإجابة تبدأ بـ«لأن» ـ الإجابة التي يبدو أن السؤال «لماذا» يتطلبها ـ يضع الناس سؤال «كيف؟» محل سؤال «لماذا؟»»[2].

في ذات السياق يقول الفيزيائي الملحد لورانس كراوس: «عندما نسأل «لماذا؟» فإننا في الغالب نعني «كيف؟»، هذا في الغالب يكفي لتحقيق مرادنا، على سبيل المثال فنحن ربما نسأل «لماذا تقع الأرض على بعد ٩٣ مليون ميلًا من الشمس؟» ولكن ما نعنيه حقيقةً في الغالب هو «كيف تكون الأرض على بعد ٩٣ مليون ميلًا من الشمس؟»، هذا لأننا مهتمون بالعمليات الفيزيائية التي أدت إلى وجود الأرض في مكانها الحالي، سؤال «لماذا؟» يستلزم ضمنيًّا اقتراح وجود الغاية، وعندما نحاول أن نفهم النظام الشمسي بمصطلحاتٍ علمية، فإننا في الغالب لا ننسب الغاية لهذه

---

(١) يوجد تصوير هذا الجواب على الرابط التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=7fjkbm26loE

(٢) Darwin’s dangerous idea: Evolution and the meaning of life. Daniel Dennett. Page 24.

المصطلحات العلمية»[1]!

الطريقة الثالثة في التعامل مع أسئلة العلة والغاية، تتمثل في الإقرار بعدم التوصل لجواب هذه الأسئلة حتى الآن، يقول الفيزيائي الملحد ستيفين واينبرغ: «لماذا؟ لماذا كان العالم مصنوعًا من هذه الحقول بالذات: حقول الكواركات والإلكترون والفوتون وما إلى ذلك؟ ولماذا كان لها الخصائص المفترضة في النموذج المعياري؟ وبهذا الخصوص لماذا تطيع الطبيعة مبادئ النسبية وميكانيكا الكم؟ إن هذه الأسئلة ما تزال مع الأسف بدون جواب. . . إنّ الأمل في الإجابة عن هذه الأسئلة هو الذي يجعل فيزياء الجسيمات العنصرية مثيرة لهذه الدرجة»[2].

ما زال والد الطفل آدم يبحث في طرائق الملحدين فلا يجد شيئًا يقوله لابنه، إنّ معنى الحياة في ظل هذه الطرائق هو اللاجدوى كما يصفها ألبر كامو، أو الشعور بالغثيان كما يصفه سارتر، وما زالت أسئلة المجنّدين الملحدين ذات الأهمية القصوى دون جواب، حتى لو عيّن لجوابها أشهر الملحدين وأكثرهم إنتاجًا، ما زالت الأسئلة توصف بالسخف وعدم المناسبة، أو تُحرّف لأسئلةٍ أخرى عن الكيفية، أو تُجابه بجهلٍ متواضع!

الطريقة الرابعة: في التعامل مع أسئلة الغاية تتمثل في

---

(١) *Lawrence Maxwell Krauss. A* universe from nothing: why there is something rather than nothing. Page 146

(٢) ستيفين واينبرغ، أحلام الفيزيائيين، صفحة ٣٠.

الإقرار بأنّ الغاية من الحياة ككل لا معنى لها في الإلحاد، لكن يمكن البحث عنها بعض الأعمال التي يأتيها الإنسان، وويتبع لهذه الطريقة شِعب قضاء الحياة بالانغماس في الشهوات، كريستوفر هيتشنز يرى أن معنى حياته يتحقق بفعله الأمور التي يريدها، فمعنى الحياة عنده يتمثل في استمتاعه بالسخرية والجنس[١]، كذلك سام هاريس يرى أن التعامل مع الحياة يشابه التعامل مع فيلم سينمائيٍّ، لا يمنعك من الاستمتاع به والحكم عليه بالجودة والرداءة كونه مؤقتًا، وبالتالي فيمكن للمرء أن يستشعر الغاية في أعماله المؤقتة دون أي إشكال[٢]!! كذاك يستعمل دوكنز هذه الطريقة أحيانًا كذلك فيقول: «أليس من المحزن أن تذهب إلى قبرك دون أن تتساءل لماذا وُلدت؟ من ـ بهذه الفكرة ـ ما كان ليقفز من سريره لهِفًا ليستأنف اكتشاف العالم والتمتع بأن يكون جزءًا منه؟!»[٣].

يُعجبني تمثيل سام هاريس لمعنى الحياة بجودة الفيلم السينمائي، ألا ينغّص عليك مشاهدة الفيلم الممتع إدراك أنّه سينتهي؟! ألا تنطوي «النهاية السعيدة» لأي فيلمٍ على الحسرة التي

(١) Hitchens vs. Turek debate at VCU, VA:
https://www.youtube.com/watch?v=bx1yXvcT2kw
A debate on January 27th 2008 at Standford U. Hosted by Ben Stein and moderated by Michael Cromartie:
https://www.youtube.com/watch?v=9wkZ7pjNZNs

(٢) في إجابةٍ مصوّرةٍ لسام هاريس عن الغاية من الحياة:
https://www.youtube.com/watch?v=qxkqz7-DmsE

(٣) Richard Dawkins. Unweaving the rainbow. Page 11.

تلازم النهاية؟! ثمّ من أين تحكم على الفيلم بالجودة أو الرداءة، أليس من خلال ربطه بأثره عليك بعد انتهائه؟! هل تذكر مثلًا فيلمًا تافهًا شاهدته منذ عشرين عامًا لقتل الفراغ أو لمجاملة الأصدقاء؟! ألا تتمنى لو خلت حياتك من مشاهدة كلِّ فيلمٍ لا يؤثر فيها بعد انتهائه؟! حسنًا.. ألا تتمنى لو خلت حياتك من كلّ فعلٍ لا يؤثر فيها بعد انتهائه؟! حسنًا.. فما معنى حياتك إن كانت أجزاؤها ومجموعها لا يؤثر بعد انتهائك؟! يقول كافكا: «مرعبٌ أن ترى من الخارج موت فتى بالغٍ أو إقدامه على قتل نفسه، المغادرة في لحظة ارتباكٍ شامل، من غير أملٍ أو بأملٍ يتيم، يمكن أن يكون له معنى في إطار تطورٍ لاحق»[1]، فما لك ترى لحياتك معنى وليس بعدها تطورٌ لاحق؟!

في الرد على سلوك مايكل مارتن[2] لهذه الطريقة في إيجاد معنى الحياة من الأحداث الفردية، يقول الباحث عمرو بسيوني: «يبدو أن مارتن يحاول تجاوز مشكلة عدمية الحياة إلى تعليق معنى الحياة بالمنجزات الشخصية، فأنت تجد لحياتك معنى مادمت تضع لها هدفًا وتسعى لتحقيقه؛ كالدراسة، والزواج، والعمل، والكفاح السياسي، والحرب... إلخ، ولكن ما زعمه مارتن رؤيةً بعين الله، كرؤيةٍ كليةٍ شاملةٍ للكون؛ ليست مقتصرةً على الكون

(١) فرانتس كافكا، يوميات فرانتس كافكا ١٩١٠ ـ ١٩٢٣م، تحرير: ماكس برود، ترجمة خليل الشيخ، صفحة ٢٧٩.

(٢) Michael Martin. Atheism: A Philosophical Justification. Temple University Press (1990). P: 13-23.

الكلي في الحقيقة، فقد أعرض مارتن عن لب المشكلة الحقيقية، فإن فناء الكون الكلي ليس إلا فناء الإنسان، الذي يحاول مارتن أن يقصر طموحه على الإنجاز الفردي، ليكن؛ ولكن أين الإنجاز الفردي في العدم؟!، إذا فني الكون فقد فني الإنسان بإنجازاته وطموحاته، حتى لو حقق بعض المعنى لنفسه في إنجازاته الجزئية الآنية، لا بد أن يأتيه الوقت الذي يرى نفسه بمثابة من يزرع وردة في مزبلة! سيموت الإنسان وتموت نجاحاته، ويصبح عدمًا، لا قيمة له، ولا إنجاز، ولا معنى بطبيعة الحال»[1]!

ما زال والد آدم والمجندين الأمريكيين يبحثون دون جدوى، إنّ معنى الفعل كمعنى الكلمة، لا يكون مفيدًا إلا إن كان ضمن جملةٍ يتحدد المعنى من خلال موضع الكلمة فيها، فكذلك معنى الفعل لا يتحدد إلا بالقيمة التي يبعثها والأثر الذي يتركه، وغاية الخلل أن يُخلط بين المعنى والاستمتاع بالفعل، وإلّا لكان السارق والكذّاب والمنافق من أهل المعاني لمجرد أنّهم يستمتعون بلذة الخفاء! ولكانت الموت دفاعًا عن الشرف بلا معنى لأنّه كُرهٌ لا لذة فيه!! وما بال الناس تنغمس في أفعال اللذة فلا تعرف لحياتهم معنى! ولا يكف سؤال الغاية والمعنى من الحياة يتردد عقب كلّ لذةٍ مؤقتة!

تتنوع مواقف الملحدين وتتشتت بين الطرق الأبعة السابقة،

---

(١) عمرو بسيوني: مقالة «الأسس اللا عملية للإلحاد.. مشكلة معنى الحياة نموذجًا»، نشر مركز نماء للبحوث والدراسات.

http://www.nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?ID=427

بين تسخيفٍ وتحريفٍ وجهلٍ وتخليط، ينتقل أحدهم من طريقةٍ إلى أخرى بحسب السؤال، ونطاق الغاية التي يبحث عنها السائل، فإن كان السؤال عن خلق الكون مثلًا استعمل التحريف أو الاعتراف بالجهل، وإن كان السؤال عن الغاية من الحياة استعملت طريقة التسخيف أو التخليط!! لكنّها كلها طرقٌ لا تقنع سائلًا، ولا تربّي طفلًا، ولا تبني نفسًا، ولا تطفئ رغبة، ولا تُنهي بحثًا!

الطريقة الخامسة: في تناول أسئلة الغاية، تكون باللجوء للدّين، باعتباره باعثًا للمعنى في الحياة وإن كان غير معترفٍ به كحقيقةٍ ثابتة، تقول أستاذة النقد الفني الملحدة كاميليا باجيلا: «إنني أريد أن تُعلّم الأديان الكبرى في كلّ مدرسة، إنّ العلمانية الإنسانية قد وصلت إلى طريقٍ مسدود، وأي ليبراليٍّ لا يدرك ذلك هو ببساطة يمكّن لرد الفعل المحافِظ للأصولية في المسيحية والإسلام، إنّ بحث الإنسان عن المعنى غريزيٌّ وغير قابلٍ للاستئصال، وعندما تسقط آلهةٌ ستُخترع أخرى»[١]!!

وإذن.. وبعد طول عناء!

يبدو أنّ والد آدم سيضطر في النهاية أن ينشد مع طفله «حياتي كلّها لله!»!

---

(١) Camille Paglia. Art movies: RIP.
http://www.salon.com/2007/08/08/clarkson/

لا تسأل!

تتوافد الأسئلة من كل صوب، وتنسال من كل حدب، أعرفُ منها وأنكر، وأتمسّك ببعضها وأترك، ثم أمضي لأرى ما عند الناس من الاستفهام، وما على ألسنتهم من بضاعة الكلام، فأقبلُ منها وأرفض، وأرضى بها أو أسخط، ثم أمضي فأبحث في تفريعات المتفلسفين، وخيالات المتفنين، فأنفر منها، وإنّ منهم لمنفرين، وأعرض عنها، وأنا شرُّ المعرضين، ثمّ أمضي حاملًا حقيبتي في عتمة الطريق، أسأل كلَّ مارٍ، وأنتظر في كل محطة، أفرح لمقدم الأشباح العابرة، وأطمع فيما وراء الأبواب المغلقة.. ثم أمضي.. ثم أمضي.. حتى حططتُ رحْلي على باب العلماء!!

(كلُّ سؤالٍ هو صرخةٌ لفهم العالم، ليس هناك ما نسمّيه سؤالًا غبيًّا!).. كارل ساغان![1]

(١) Carl Sagan. The Demon-Haunted World: Science as a Candle in the Dark. Headline Book Publishing (1997). Page: 302.

نعم.. تصمّ أذنيّ تلك الصرخات، تتتابع كزّخات الرصاص، وتسيطر كرعد الصحراء، تستحوذ كوسوسة الشيطان، وتبقى كأسمار العشّاق، تُلِحُّ كذنبٍ قديم، وتحلو كتوبةٍ صادقة، تحنُّ إلى الفؤاد فتهيّجه كأنّها شهوةٌ كامنة، ويحنُّ إليها الفؤاد فيحييها كأنّها نسكٌ مألوف، تضرب في الجذور بحثًا عن العلة، وتتجاوز الفروع لعلّها تبصر الغاية، تتخلل كل ذرةٍ في شجرة الحياة، ومن عجيب شأنها مع تلك الشجرة، أنّها مصدر مائها الذي به تحيا، ومورد عطبها الذي منه تموت!

(ليست كلُّ الأسئلة مناسبةً لكلِّ الموضوعات، ما لون الغيرة؟ قد يكون مناسبًا لشاعر ولكن ليس لعالم).. الملحد الشهير ريتشارد دوكنز![1]

لا.. لم تفهمني.. ليست كل الموضوعات، إنّها الأمهات الكبريات، بل ليست كل الأمّهات، إنها صاحبة الجلالة، يلفها الغموض فتشتاق لها أبصار الباحثين، وتسطع بالوضوح فلا تطيقها إلا أعين المحبين، تُقبل في رداءٍ ثابت، وتبحث عن غايةٍ واحدة.. عن سر الوجود، وعلة الحياة، ومعنى الفعل.. تستعمل أداةً واحدة.. «لماذا؟».. أداةُ استفهامٍ حادة، تُحدث في القلب آثارًا قطعيةً غائرة، بطولِه وعرضِه، وسويدائِه ولبِّه، وشعرِه ونثرِه، ورثائِه وغزلِه، وهجائِه ومدحِه.. تحضر صاحبة الجلالة فيستسلم

---

(١) محاضرة مصوّرة له بعنوان «الغاية من الغاية» "The purpose of the purpose" ألقاها في جامعة أوكلاهوما سنة ٢٠٠٩م، وهي موجودة على هذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=mT4EWCRfdUg

لها القلب؛ كالمحِّب في حضرة محبوبه، تكشف له عن سرّها فتهون كل خطوبه، ثمّ تغلق في وجهه بابَها فتكون أكبرَ كُروبِه!

«إنّ كلمة «لماذا» تنطوي على مزالقَ كثيرة». . الملحد الشهير ستيفين واينبرغ![1]

مزالق! ولهذا جئتكم! أليست طريقتكم الطريقة المثلى؟! أليست سيرتكم السيرة الحسنى؟! لقد حذرتمونا من أولئك الذين لا يسمحون لنا بالسؤال، وحرضتمونا على الخوض في كافة الأدغال، فها أنا ذا واقفٌ بالباب، تركت دين الآباء والأجداد، ولبست مسوحكم، ورفعت شعاركم، وانتظمتُ في الصفّ، ورفعتُ اللواء، فمالك الآن تحدثني عن «أسئلةٍ فيها مزالق»!!؟ إن لم تكن تحسن الجواب فأحلني إلى غيرك، ومن أحال فقد برئ، وإن لم يكن عندك الجواب فعند غيرك من معشر العلماء!!

«لمئات السنين كانت أسئلة «لماذا» معضلةً عند الفلاسفة والعلماء». . الملحد الشهير دانيال دينيت![2]

أفًّا! لقد جئتكم ولدًا عقّ أباه! فهل تجمعون لي بين الخيبة والعقوق؟! مالكم؟! وأيّ فضلٍ لكم إن لم يكن في حلّ هذه السؤالات!؟ هل تظنّ أني لا أنام الليل مثلًا إن لم أعرف عدد الالكترونات في ذرة الكربون؟! و«كون الأرض تدور حول الشمس أو الشمس تدور حول الأرض هو من الأمور التي تتصف

---

(١) ستيفين واينبرغ، أحلام الفيزيائيين، صفحة ٣٠.

(٢) Darwin’s dangerous idea: Evolution and the meaning of life. Daniel Dennett. Page 23.

بأعمق اللا اكتراث»[1]؟! إنني مثلكم ـ وإن ادعيتم العكس ـ يشغلني السؤال عن سر الوجود، ومعنى الحياة، لماذا أنا موجود؟! لماذا تشغلني هذه السؤالات؟!

«ما أقوله عن السؤال بـ«لماذا؟» هو لماذا تظن أنّ لك أي حقّ في أن تسأله؟!».. الملحد الشهير ريتشارد دوكنز![2]

ومن أنت حتى تحدد ما يحقُّ لي وما لا يجوز؟! شيءٌ عجيب! وما غاية الحياة إذن!؟ إنني نفرتُ منهم عندما أخبروني عن بعض أسئلتي أنّها أسئلةٌ مغلوطة، وتأففتُ من ادعائهم أنّ قضايا محددة فوق إدراك العقل البشري، ورفضتُ من قبلُ قولهم لي إنني سأفهم عندما أكبر، لكن يبدو أنني كنتُ مخطئًا وأنني الآن كبرتُ، أتمنعني من أسئلة الوجود، وتحجزني عن بحث العلة، وتحرّم عليّ استعمال «لماذا؟»!

«يجب أن نكون حذرين على وجه الخصوص من أسئلة «لماذا»؟».. الملحد الشهير لورانس كراوس![3]

ما لكم؟! ما مشكلتكم مع سؤال لماذا؟! من أين لكم هذه النفوس؟! من أين.. مهلًا! لعلي أسأت الفهم! ربّما تقصدون أن السؤال أكبر من قدرة جنس الإنسان؟! وأنّه ينبغي لنا أن نتريث في

---

(١) ألبير كامو، أسطورة سيزيف، صفحة ١٢.

(٢) In response to a question from one of the audience after the discussion between Richard Dawkins and Paula Kirby at Eden Court Theatre, Inverness, Wednesday 2 April 2008.
https://www.youtube.com/watch?v=IGDTtsh0KTM&list=PL5EA3513CCC6F2818
https://www.youtube.com/watch?v=LSZ_fsG5uMg

(٣) *Lawrence* Maxwell *Krauss*. *A* universe from nothing: why there is something rather than nothing. Page 146

الإقدام على جوابه، ونصبر في الشك في أسبابه، إن كان كذلك فنعم.. ولكنكم أسأتم البيان!! لقد توهمتُ أنّكم لا تهتمون بهذه الأسئلة، وتحطون من قدر سائلها، وتعدّونها سخفًا ولغوًا!

«سيدي! السؤال بـ«لماذا» هو سؤالٌ سخيفٌ فحسب».. الملحد الشهير بيتر أتكنز![1]

سخيف..!

««لماذا؟» سؤالٌ سخيف، «لماذا؟» سؤالٌ سخيف.. إنه سؤالٌ بلا معنى».. الملحد الشهير ريتشارد دوكنز![2]

وإذن!! هذا فراق!!

---

(١) جواب بيتر أتكنز عندما سأله الأمير فيليب زوج ملكة بريطانيا بعد محاضرةٍ لأتكنز في قصر وندسور بانجلترا، فقال فيليب: «العلم الطبيعي يستطيع إجابة أسئلة كيف، وهذا جيد جدًّا، ولكن ماذا عن سؤال لماذا؟»، فأجابه أتكنز «سيدي السؤال بـ «لماذا» هو سؤالٌ سخيفٌ فحسب»، حكاها عنه دوكنز في محاضرةٍ مصوّرة له بعنوان «الغاية من الغاية» "The purpose of the purpose" ألقاها في جامعة أوكلاهوما سنة ٢٠٠٩م، وهي موجودة على هذا الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=mT4EWCRfdUg

(٢) لقاء على قناة ABC بعنوان «الدين والإلحاد» «Religion and atheism» بتاريخ ٩ إبريل ٢٠١٢م، وهو موجود على هذا الرابط:

http://www.abc.net.au/tv/qanda/txt/s3469101.htm